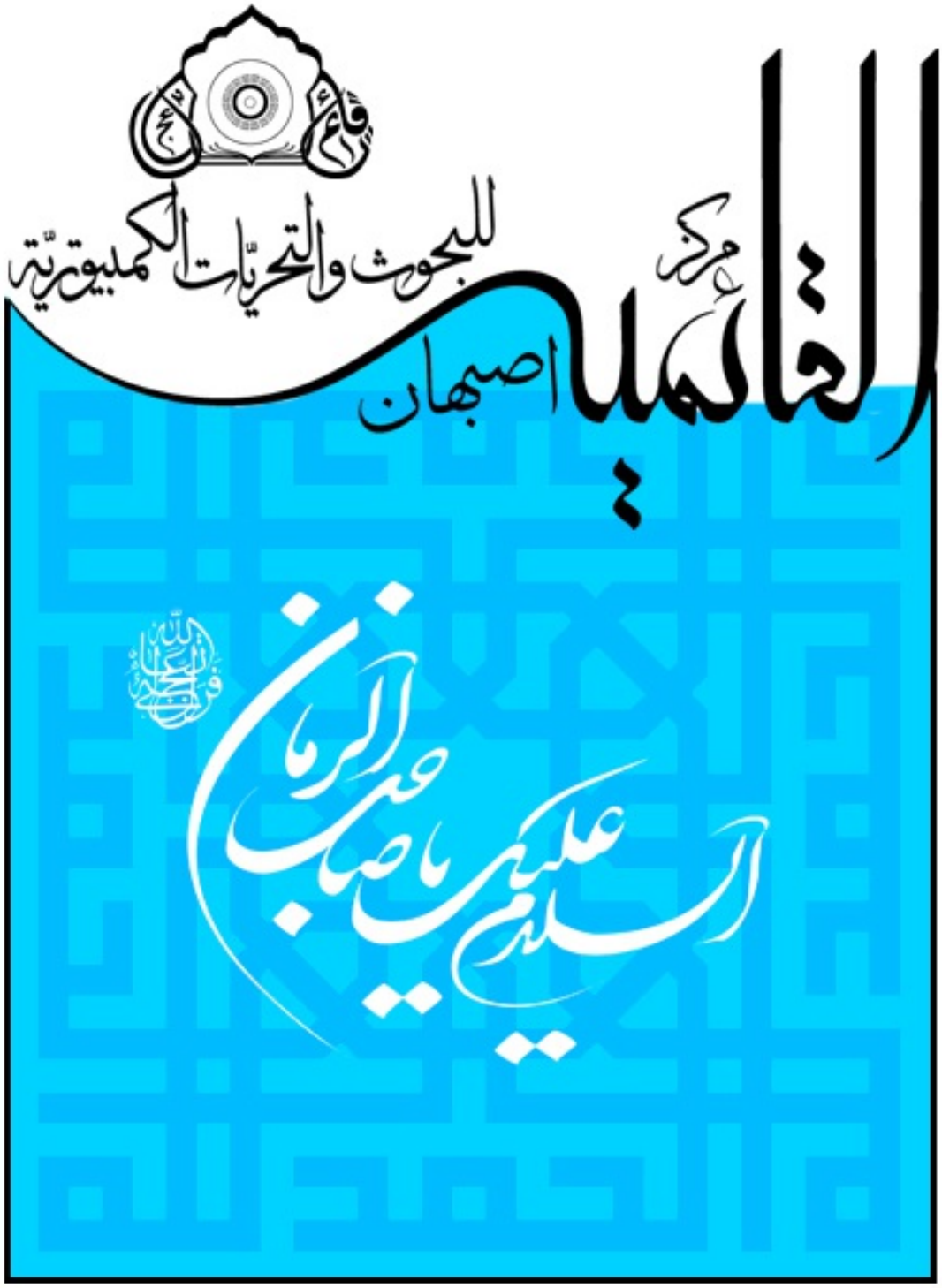

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

ميقات الحج

مجلة نصف سنوية تعنى بالشؤون الفكرية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

٣٢

* الرسول الرحمة والحج نموذجاً * إيمان أجداد الرسول (ص) *
* قراءة في حجة الوداع.. * حجية الفعل النبوي *
* معجزة النبي في كونه قارئاً أو أمياً *
* سيرة المصطفى (ص) *
* عمرة القضاء *
* مشاعر البعثة النبوية الشريفة من خلال نهج البلاغة *

بسم الله الرحمن الرحيم

دو فصلنامه « میقات الحج »

كاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مركز القائمیة باصفهان للتحریات الكمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
میقات الحج-المجلد ۳۲ ----- ۶
اشارة ----- ۶
اشارة ----- ۶
قواعد النشر ----- ۱۰
الصلاة جماعة بالاستدارة حول الکعبة ----- ۱۱
الحج رموز و حکم ----- ۲۰
کیف نحافظ علی مکاسب الحج؟ ----- ۴۷
التزاحم بین الحج والفرائض الآخری (۲) ----- ۶۳
الأماکن المأثورة المتواترة فی مکة المکرمة (۱) ----- ۹۱
شخصیات من الحرمین الشریفین (۲۶) ----- ۱۲۳
تعریف مرکز ----- ۱۴۹

میقات الحج-المجلد ۳۲

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات‌الحج : مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیه .....محمد محمدی‌ری‌شهری.

مشخصات نشر : [بی‌جا: بی‌نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهری : ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.

شابک : ۵۰۰۰ ریال

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی توصیفی

یادداشت : عربی.

یادداشت : شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.

یادداشت : پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.

یادداشت : کتابنامه.

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

شناسه افزوده : قاضی‌عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -

شماره کتابشناسی ملی : ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

اشارة

ص: ۲

ص: ۳

ص: ۴

قواعد النشر

ص: ۵

ترحب مجلة "ميقات الحج "بملاحظات القراء الكرام ومقترحاتهم وينبغى أن تتوافر البحوث المهتمة بالحج والعمرة والزيارة على الصفات التالية:

۱- أن تكون المادة المرسلة غير منشورة سابقاً.

۲- أن يتسم البحث بالجدة والأصالة والمنهجية.

۳- أن يقترن البحث بذكرالمصادر والهوامش بدقة وتفصيل.

۴- أن لايتجاوز البحث ۴۰ صفحة وأن يكون البحث مطبوعاً بالحاسب الآلى، ويرفق معه القرص المنسوخ عليه.

۵- أن يرفق بالبحث ملخص باللغة الإنجليزية إن أمكن.

۶- تحتفظ المجلة بحقها فى الحذف والتعديل اليسيرين، مع مراعاة المنهج العلمى المتبع.

(ع)- لايعاد البحث إلى صاحبه، سواء نشر أم لم ينشر.

۸- لاتعبر الأبحاث المنشورة بالضرورة عن رأى المجلة.

۹- يعتمد ترتيب البحوث فى المجلة على أسس فنية ولا غير.

۱۰- ترسل البحوث والآراء على عنوان المجلة: إيران- طهران- شارع آزادى- منظمة الحج والزيارة- الطابق ۲. صندوق البريد: ۵۸۵۶- ۱۴۱۵۵.

ص: ۶

الصلاة جماعة بالاستدارة حول الكعبة

كان لكلّ مذهب من المذاهب الأربعة مقام خاص فى المسجد الحرام، يقوم فيه إمام المذهب ويقتدى به المصلّون، كل إمام فى ضلع من أضلاع الكعبة المشرفة، وبعد أن جاء السعوديون إلى منصَّة الحكم أزالوا هذه المقامات الأربعة وجعلوها مقاماً واحداً لإمامٍ من الحنابلة فقط، وبذلك أعادوا الصلاة جماعة استدارة حول الكعبة الشريفة.

وأصبحت هذه المسألة مورد بحث ونقاش بين فقهائنا من جديد بعدما كانت المسألة معنونة فى كتب المتقدمين أيضاً، وقبل الخوض فى دراسة دليل المسألة صحة وفساداً، نقدم اموراً:

الأوّل: تاريخ ظهور الصلاة جماعة بهذه الكيفية

يظهر من الأزرقى فى «تاريخ مكة المكرمة» أنّ أول من أدار الصفوف حول الكعبة هو خالد بن عبدالله القسرى، يقول: كان الناس يقومون قيام شهر رمضان فى أعلى المسجد الحرام تركز حربة خلف المقام بربوة فيصلى الإمام خلف الحربة، والناس وراءه فمَن أراد صلى مع الإمام ومَن أراد طاف بالبيت وركع خلف المقام، فلمّا ولى خالد بن عبدالله القسرى مكة وحضر شهر رمضان، أمر خالد القراء أن يتقدّموا فيصلوا خلف المقام، وأدار الصفوف حول الكعبة، وذلك أنّ الناس ضاق عليهم أعلى المسجد، فأدارهم حول الكعبة.

فقيل له: تقطع الطواف لغير المكتوبة، قال: فأنا آمرهم يطوفون بين كل ترويحتين سبعاً، فأمرهم ففصلوا بين كل ترويحتين بطواف سبع.

فقيل له: فإنّه يكون فى مؤخر الكعبة وجوانبها من لا يعلم بانقضاء طواف الطائف من مصل وغيره فيتهيّأ للصلاة، فأمر عبيد الكعبة أن يكبروا حول الكعبة، يقولون: ألحمد لله والله أكبر، فإذا بلغوا الركن الأسود فى الطواف السادس سكتوا بين التكبيرتين سكتة حتّى يتهيّأ الناس ممّن فى الحجر ومن فى جوانب المسجد من مصل وغيره، فيعرفون ذلك بانقطاع التكبير، ويصلى ويخفّف المصلى صلاته ثم يعودون إلى التكبير حتّى يفرغوا من السبع، ويقوم مسمع فينادى الصلاة رحمكم الله.

قال: وكان عطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار ونظائرهم من العلماء يرون ذلك ولاينكرونه.

ثم نقل عن ابن جريج قلت لعطاء: إذا قلّ الناس فى المسجد الحرام أحبّ إليك أن يصلوا خلف المقام ويكونوا صفاً واحداً حول الكعبة؟

قال: بل يكون صفاً واحداً حول الكعبة وتلا:

وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ (۱). (۲) ويظهر من كلام الأزرقى أنّ الدافع إلى الصلاة حول الكعبة استدارة، هو ضيق المكان فى صلاة التراويح، ولم يكن قبله أى سابقة لها، وقد تصدى عبدالملك للخلافة عام ۶۵ ه بعد وفاة أبيه مروان بن الحكم وتوفّى عام ۸۶ ه.

۱- الزمر: ۷۵.

۲- تاريخ مكة، للأزرقى ۶۵: ۲- ۶۶.

ص: ۷

وبما أنه لم تمتد سلطة عبدالملك بن مروان إلى مكة المكرمة الّتى كان قد استولى عليها عبدالله بن الزبير إلى أن قتل هذا الأخير عام (ع) ۳ ه، فيكون هذا الشكل من الصلاة قد بدأ فى العام الذى تولى خالد بن عبدالله القسرى مكة سنة ۸۹ هجرية، من قبل وليد بن عبدالملك الذى تولى الخلافة سنة ۸۶- ۹۶ هجرية. (۱) الثانى: أوّل من تعرض إلى المسألة من الأصحاب

لم نجد عنواناً لهذه المسألة عند أصحابنا قبل ابن الجنيد فهو أول من تعرّض لها حسب اطّلاعنا، نقله العلّامة عنه وقال: قال ابن الجنيد: الإمام إذا صلى فى المسجد الحرام أحاط المصلون حول البيت من حيث لايكون أحدهم أقرب إلى جدار البيت منه، ولم يذكر علماؤنا ذلك والأقرب الوقوف خلف الإمام للعموم. (۲) وعلى ضوء هذا فقد جعل الميزان فى تأخّر المأموم عن الإمام أو عدم تقدمّه عليه- على اختلاف فيما هو الشرط- هو أن يكون الفاصل المكانى بين المأموم والكعبة أكثر من الفاصل المكانى بين الإمام والكعبة، وعلى ذلك تجوز الصلاة بالاستدارة التامة لكن برعاية هذا الشرط.

مثلًا: إذا كان الإمام واقفاً حيال مقام إبراهيم فالفاصل بينه وبين الكعبة حوالى ۱۲ متراً تقريباً، فيجب أن يكون الفاصل المكانى المستدير فى تمام الدور أكثر من هذا المقدار حتّى يصدق كون المأموم خلف الإمام أو غير متقدم عليه. وسيوافيك أنّ هذا الشرط إنّما يتحقّق فى بعض الصور لا كلّها.

ولم نجد من تعرض للمسألة بعد ابن الجنيد إلى عصر العلّامة الحلى، وقد خلت كتب الشيخ الطوسى من عنوان هذه المسألة ومن أتى بعده كابن البراج، وابن زهرة وابن إدريس والمحقّق وغيرهم؛ وإليك نقل كلمات الآخرين:

الثالث: نقل كلمات الآخرين

قال العلّامة: المصلى خارج الكعبة وهو مشاهد لها يستقبل أى جدرانها شاء، وكذا لوكان فى حكم المشاهد، ولو تعدّدوا وأرادوا الاجتماع ففى صلاتهم مستديرين حولها إشكال، ولا إشكال لوكانوا منفردين. (۳) ولعل وجه الإشكال عند العلّامة غيره عند ابن الجنيد، فالإشكال عند الثانى هو تقدّم المأموم على الإمام فى بعض الأحايين، ولذلك لوكان الفاصل المكانى بين الكعبة والمأموم أكثر من الفاصل المكانى بينها وبين الإمام لجاز عنده بالاستدارة الكاملة.

وأمّا الإشكال عند العلّامة فلعله هو مسألة المواجهة وكون المأموم مواجهاً للإمام فى نصف الدائرة وهو أمر غريب.

فإنّ المأموم يقف خلف الإمام أومع الإمام على جهة واحدة، ولكنّه فى نصف الدائرة يقف مواجهاً للإمام و مقابلًا له وهو أمر غير متعارف.

۱- أنظر تاريخ الطبرى، أحداث سنة ۸۹ ه-؛ وجمهرة النسب والأعلام للزركلى؛ وباقى المصادر.

۲- مختلف الشيعة ۹۰: ۳.

۳- تذكرة الفقهاء ۱۰: ۳.

ص: ۸

وقد صرح بهذا فی المنتهی وقال: لو صلّی الإمام فی المسجد الحرام إلی ناحیهٔ من نواحی الکعبهٔ واستدار المأمومون حولها، صحت صلاهٔ مَن خلف الإمام خاصهٔ، سواء أکان بعد المأمومین فی الجههٔ الأُخری عنها أکثر من بعد الإمام أو لا، خلافاً للشافعی وأبی حنیفهٔ.

لنا: إنّ موقف المأموم خلف الإمام أو إلی جانبه وإنّما یحصل فی جههٔ واحدهٔ، فصلاهٔ من غایرها باطلهٔ، ولأنهم وقفوا بین یدی الإمام فتبطل صلاتهم. (۱) وعبارته کالصریح فی أنّ المحذور لیس هو تقدّم المأموم بل مواجهته للإمام، وهذا صریح قوله: «ولأنّهم وقفوا بین یدی الإمام».

فظهر ممّا نقلناه أنّ مشکلهٔ الصلاهٔ مستدیرهٔ أمران:

لزوم تقدّم المأموم علی الإمام فی بعض الصور.

مواجههٔ المأموم للإمام أحیاناً.

ویظهر من الشهید فی «البیان» أنّ المانع عنده هو الوجه الأول قال: ولو صلّوا جماعهٔ فلهم الاستدارهٔ حولها، وینبغی أن لا یکون المأموم إلیها أقرب من الإمام.

ویظهر منه (قدس سره) فی کتاب «الدروس» أنّ المانع هو نفس ما ذکره فی البیان حیث قال: أن لا یتقدّم المأموم علی الإمام بعقبه، ولاـ عبرهٔ بمسجده إلّاـ فی المستدیرین حول الکعبهٔ بحیث لاـ یکون المأموم أقرب إلیها. (۲) وقال فی «الذکری»: لو استطال صف المأمومین مع المشاهدهٔ حتّی خرج عن الکعبهٔ، بطلت صلاهٔ الخارج لعدم إجزاء الجههٔ هنا؛ ولو استداروا صحّ، للإجماع علیه عملًا فی کلّ الأعصار السالفهٔ؛ نعم، یشترط أن لا یکون المأموم أقرب إلی الکعبهٔ من الإمام. (۳) وظاهر هذا الکلام أنّ الإشکال عنده هو تقدّم المأموم علی الإمام، ولذلک اشترط أن لا یکون المأموم أقرب إلی الکعبهٔ من الإمام.

و أمّا الشهید الثانی فیظهر منه أیضاً أنّ الإشکال هو تقدّم المأموم علی الإمام فی الصلاهٔ استدارهٔ، فقال: إنّ قول المحقّق «ولا یجوز أن یقف المأموم قدّام الإمام» مفهومه الاعتبار بتساوی الأقدام حال القیام، ... إلی أن قال: و أمّا فی حال الرکوع فظاهرهم أنه کذلک و أنه لا اعتبار بتقدّم رأس المأموم، وکذا حال السجود و التشهد فیجوز تقدم رأس المأموم علی رأسه؛ لکن یستثنی منه مالو کانت الصلاهٔ حول الکعبهٔ، فإنّه لایجوز أن یکون مسجد المأموم أقرب إلیها. (۴) وأمّا سبطه فقد ألمح إلی کلا الإشکالین، حیث ذکر کلام ابن الجنید والشهید فی الذکری اللّذین رکّزا علی الإشکال الأول، ثم نقل کلام العلّامهٔ فی التذکره والمنتهی الّذی یشیر إلی الإشکال الثانی، وقال فی

۱- المنتهی ۲۵۷: ۶.

۲- الدروس ۲۲۰: ۱.

۳- ذکری الشیعهٔ ۱۶۱: ۳.

۴- مسالک الأفهام ۳۰۸: ۱.

ص: ۹

آخر كلامه: ولم أقف فى ذلك على رواية من طرق الأصحاب، والمسألة محل تردّد، ولا ريب أنّ الوقوف فى جهة الإمام أولى وأحوط. (۱) وأمّا الشيخ الأكبر كاشف الغطاء فلم يهتم بالإشكال الثانى و إنّما اهتم بالاشكال الأول وقال: وحول الكعبة يصح الدوران فى الصف ومقابلة الوجوهِ الوجهَ بشرط أن تكون الفاصلة من جانب المأمومين أوسع. (۲) وسيأتى حدّ الفاصل اللازم بين الإمام و الكعبة، وبينها وبين المأموم فانتظر.

إلى غير ذلك من الكلمات للمتأخرين والمعاصرين وربّما نمرّ على كلماتهم عند الاستدلال على حكم المسألة.

الرابع: ماهو الأصل فى المسألة

إنّ الأصل فى المقام هو الفساد إلّا أن يدل دليل على خلافه، وذلك لأنّ العبادات أمور توقيفية لا دور للعقلاء فيه، فإذا شُك فى امتثال الأمر بالفرد الخاص فالأصل هو الفساد.

وإن شئت قلت: إنّ مشروعية العبادات أمر توقيفى فما عُلم كونه مشروعاً فهو مشروع، وما شُك فى مشروعيته فهو ممنوع وإن كان فى الواقع مشروعاً، وهذا كإتيان الصلاة مع قبض اليد اليسرى فى اليمنى، حيث إنّ للصلاة فردين ومصداقين: أحدهما إتيان الصلاة بالسدل والآخر بالقبض، فالشك فى جواز القبض كاف فى كونه بدعة مبطلة للصلاة؛ وهذا هو الأصل فى المقام.

وربّما يقرر بأنّ الأصل فى المقام هوالصحة، وهو أنّ صلاة الجماعة ترجع فى حقيقتها إلى أنها هى عدل للواجب التخييرى، لا أنها من مسقطات وجوب الصلاة، فإذاً يدور الأمر بين كون الواجب هو الفرادى ومطلق الجماعة، وبين كون الواجب هو الفرادى و الجماعة المقيّدة بأنها بغير الاستدارة، ومقتضى الأصل هو البراءة عن هذا التقييد. (۳) يلاحظ عليه: أنّ المأمور به هو طبيعة الصلاة والصلاة جماعة وفرادى من مصاديق هذا الواجب، والتخيير بين المصداقين عقلى لاشرعى، وعلى هذا فيكون مرجع الشك إلى سقوط الطبيعة بالفرد الخاص والأصل خلافه، فإنّ قاعدة الاشتغال محكمة حتّى يثبت الامتثال؛ وبالجملة إذا كانت للطبيعة المأمور بها مصاديق مختلفة، ويقطع بحصول الامتثال ببعض المصاديق ويُشك فى حصوله بالبعض الآخر، يكون المقام محكوماً بالاشتغال، لأنه من قبيل الشك فى السقوط؛ فلو أمر المولى بتطهير النجس بالماء وشك فى صحة التطهير بماء الكبريت، فالاشتغال محكم مالم يكن هنا إطلاق لفظى حاكم على الأصل.

۱- مدارك الأحكام ۳۳۲: ۴.

۲- كشف الغطاء ۲۶۵: ۱.

۳- مجلة فقه أهل البيت:، العدد ۴۴ ص ۹۴، وقد استظهره من كلام السيد الخوئى فى مسألة اشتراط التأخّر وعدم كفاية المساواة الحقيقية وقال: وهو يجرى فى مقامنا بالنحو المذكور.

ص: ۱۰

وقد صرح بما ذكرنا السيد الحكيم (قدس سره) بتعبير آخر حيث قال:

تارة يكون الشك فى صحة الجماعة حدوثاً واخرى يكون بقاءاً، فإن كان الأول فالمرجع أصالة عدم انعقاد الجماعة؛ لأنّ انعقادها إنما يكون بجعل الإمامة للإمام من المأموم فى ظرف اجتماع الشرائط، فإذا شُكّ فى شرطية شىء مفقود أو مانعية شىء موجود- للإمام أو المأموم أو الائتمام- فقد شُك فى الانعقاد الملازم للشك فى حصول الإمامة للإمام و المأمومية للمأموم، والأصل العدم فى جميع ذلك، وبعبارة اخرى الشك فى المقام فى ترتب الأثر على الجعل المذكور ومقتضى الأصل عدمه. (۱) وربّما يتصور أنّ الأصل العملى محكوم بالإطلاقات الواردة فى صلاة الجماعة، وذلك لأنّ مقتضى الإطلاقات الواردة فى صلاة الجماعة عدم اشتراط شىء من تأخّر المأموم عن الإمام أو عدم تقدّمه عليه، غاية الأمر خرج منها ما إذا لم تكن الصلاة إلّا على جهة واحدة وعلى خط مستقيم فيشترط فيه التأخر، أو عدم التقدم، وأمّا إذا أمكنت الصلاة استدارة وعلى جميع الجهات، فالإطلاقات الواردة فى باب الجماعة محكمة لا يشترط فيها شىء لا عدم التقدّم ولا عدم التأخّر.

يلاحظ عليه: بأنه ماذا يريد من الإطلاقات فى المقام، فهل يريد ما ورد فى التأكيد على استحبابها فى الفريضة، الّذى عقد لها الحر العاملى باباً تحت عنوان «باب تأكد استحبابها فى الفرائض»، ومن المعلوم أنها ليست فى مقام البيان لشرائط الجماعة، فإنّ الروايات الواردة فى الحث على الجماعة كلها نظير قول أمير المؤمنين (ع): «من سمع النداء ولم يجبه من غير علّة فلا صلاة له». (۲) أو أنه يريد ما ورد: «أنّ أقل ما تنعقد به الجماعة اثنان» كقول زرارة فى حديث قال: قلت لأبى عبدالله (ع): الرجلان يكونان جماعة؟ فقال (ع): «نعم، ويقوم الرجل عن يمين الإمام». (۳) وبالجملة هذه الروايات ونظائرها ناظرة إلى تشريع الجماعة واستحبابها المؤكّد، ولانظر لبيان الشرائط والأجزاء حتّى يتمسك به فى مورد الشك على نفى الجزئية.

فخرجنا بالأمرين التاليين:

أنّ الأصل الأوّلى هو الفساد؛ لأنه من قبيل الشك فى الامتثال، أو الشك فى انعقاد الجماعة.

أنّ الأصل غير محكوم بالإطلاقات، إذ ليس هنا إطلاق حاكم على الأصل، ويلزم الرجوع إلى أدلّة الشروط فى المقام، و إليك البيان.

قد سبق أنّ الإشكال فى المقام يدور على أمرين:

إشكال تقدّم المأموم على الإمام فى بعض الصور.

مواجهة المأموم مع الإمام فى بعض الأحايين.

وإليك دراستهما.

۱- مستمسك العروة الوثقى ۲۱۷: ۷.

۲- الوسائل ۵: الباب ۲ من أبواب صلاة الجماعة، الحديث ۱.

۳- الوسائل ۵: الباب ۴ من أبواب صلاة الجماعة، الحديث ۱.

ص: ۱۱

الأوّل: شرطية عدم تقدّم المأموم على الإمام

فقد قال المحقّق: ولا يجوز أن يقف المأموم قدّام الإمام. (۱) واستُدل عليه بعدم الخلاف بين الأصحاب، وظاهر المعتبر الإجماع عليه من غير فرق بين الابتداء والاستدامة، كما هو صريح معقد بعضها اقتصاراً فى العبادة التوقيفية، على ما علم ثبوته من فعل النبى (ص) والأئمة (عليهم السلام)، والصحابة والتابعين وتابعى التابعين وسيرة سائر فرق المسلمين فى جميع الأعصار والأمصار، بعد قصور الإطلاقات المساقة لغيره عن تناول مثل ذلك. (۲) وظاهر كلامه كظاهر كلام الآخرين أنه ليس هناك دليل لفظى يدل على عدم جواز تقدم المأموم على الإمام، ولو كان فإنّما هو إشارات وتلميحات، غير أنّ معقد الإجماع يعمّ عامّة الحالات سواء أكان فى المسجد الحرام أم غيره.

ولا يمكن أن يقال: إنّ الإجماع دليل لبّى يقتصر فيه على القدر المتيقّن وهو ما إذا صلّوا على جهة واحدة.

بل يمكن أن يستظهر ذلك من كلمة الإمام بأنه إمام يقتدى به فى الأقوال والأفعال، ولازم ذلك عدم كون المأموم متقدماً على الإمام؛ ولذلك نرى أنه ورد فى الروايات أنّ الإمام قد سُئِل عن رجل أمّ قوماً فصلى بهم ركعة ثم مات؟ قال (ع): «يقدّمون رجلًا آخر فيعتد بالركعة ويطرحون الميت خلفهم ويغتسل مَنْ مسه». (۳) وعلى كل تقدير لايمكن أن نشك فى شرطية عدم تقدّم المأموم على الإمام فى حال من الأحوال وفى مسجد دون مسجد، وإن كان عدم جواز مساواة الإمام والمأموم موضع تأمل ونقاش.

إذا علمت ذلك فالمهم هو تبيين مدار التقدّم وملاكه.

فلو كان الملاك فى التقدّم والتأخّر هو عدم أقربية المأموم إلى الكعبة من الإمام، بل يكونان متساويين أو يكون المأموم أبعد من الكعبة من الإمام، فلازم ذلك صحة الصلاة استدارة، بشرط أن تكون الدائرة الّتى وقف عليها الإمام غير الدائرة الّتى يقف عليها المأموم، وتكون الدائرة الثانية أبعد من الدائرة الأُولى حتّى تكون المسافة بين المأموم والكعبة أكثر من المسافة بين الإمام و الكعبة فى عامّة الحالات.

وذلك لأنّ الكعبة لمّا كانت مربعة مستطيلة فلو دارت عليها دائرة، فخطوط هذه الدائرة بالإضافة إلى الكعبة ليست متساوية، بل ما يحاذى منها الزوايا أقرب ممّا يحاذى الأضلاع بطبيعة الحال، لفرض كون الكعبة على شكل المربع المستطيل فالخط المقابل للضلع أبعد من الكعبة بالنسبة إلى الخط المقابل للزاوية بالضرورة.

وعلى ذلك فيجب أن تكون الدائرة الّتى يقف عليها المأمومون أكبر من الدائرة الّتى قام عليها الإمام، أى أبعد عن الكعبة فى جميع النقاط، وإلّا فمجرد كون الفاصل المكانى بين المأموم والكعبة أكبر منه بين الإمام والكعبة، لايكفى- كما هو الظاهر من الكلمات الماضية- مالم يكن الفصل على حدّ يكون الفصل أكبر فى عامة الحالات.

۱- الشرائع ۱۲۳: ۱.

۲- جواهر الكلام ۲۲۱: ۱۳.

۳- الوسائل ۵: الباب ۴۳ من أبواب الجماعة، الحديث ۱.

ص: ۱۲

فإنّ الشرط- أعنى: عدم تقدم المأموم- محفوظ فى جميع الحالات.

وبـذلك يعلم أنّ مجرّد كون المأموم خلفاً أو جانباً بحسب الـدائرة البركاليّة، لا يلازم عدم أقربيّته إلى الكعبة من الإمام، ضـرورة زيادة جوانب الكعبة، بل لابدّ أن تكون الدائرة الّتى وقف عليها المأموم أوسع من الدائرة الّتى وقف عليها الإمام على نحو يكون الإمام أقرب إلى الكعبة من المأموم فى عامة الحالات.

وأمّا لوكان الميزان فى التقدم هو نفس موقف الإمام مع قطع النظر عن الأقربية والأبعدية بالنسبة إلى الكعبة، فحينئذ لو وقف المأمومون على نفس الـدائرة الّتى وقف عليها الإمام لصـدق عدم التقدم، وهذا واضح، مثلًا: لو أمر الضابط الجنود أن يقفوا بشـكل دائرى، فوقفوا على خط دائرى جنباً إلى جنب، فيصدق عدم تقدّم أحدهم على الآخرين.

وإلى ما ذكرنا يشير صاحب الجواهر بقوله: بإمكان دعوى صدق الخلْف أو الجانب، إذ هما بالنسبة إلى كل واحد بحسبه ولو بملاحظة الدائرة البركالية. (۱) والمتبادر من معاقـد الاجماعات والإشارات الواردة فى الروايات أنّ الميزان عدم تقدّم المأموم على موقف الإمام من دون لحاظ الجهة الّتى يتّجهون لها.

وبعبارة اخرى: الملاك فى تحقّق هـذا الشـرط موقف كل من الإمام و المأموم فى غير المسـجد الحرام باتفاق الفقهاء، فلابد أن يكون هو أيضاً نفس الملاك فى المسجد الحرام أيضاً، وإلّا يجب أن يلتزم بأحد أمرين:

أن يكون الملاـك فى غير المسـجدالحرام هو موقف الإمـام والمـأموم، و أمّـا فى المسـجدالحرام فالملاـك هو الكعبـة، بـأن لاـ يكون المأموم أقرب إلى الكعبة من الإمام.

مراعاة كلا الأمرين.

والأوّل أمر غريب لعدم الدليل على التفريق بين المسجد الحرام وسائر الأمكنة، والثانى موافق للاحتياط ولكن ليس لاعتبار الجمع دليل صالح.

وبذلك يظهر أنّ مشـكلة تقدّم المأموم على الإمام فى الصـلاة الاسـتدارية إمّا غير متحقّق مطلقاً، إذا قلنا بأنّ الميزان هو ملاحظة موقف الإمام، و إمّا غير متحقّق فى بعض الدوائر ومتحقّق فى البعض الآخر.

الثانى: إشكال المواجهة

الإشـكال الثـانى فى المسألـة هو لزوم المواجهـة، بـأن يكون المـأموم مواجهـاً للإمام دون أن يكون فى جنبه أو خلفه، وتظهر المواجهة بوضوح فى النصف الثانى من الـدائرة، مع أنّه أمر غير معهود، ولذلك اشترط بعض القائلين بالجواز بكون اسـتقبال الإمام و المأمومين إلى جهـة واحـدة، إذ لو قيـل بـالجواز مطلقاً يلزم جواز الجماعـة فى داخل الكعبـة على التعاكس، بأن يكون وجه كل منهما إلى الآخر وهو ممّـا لا مجال للالتزام به. (۲) والحق أنّ هذا الاشـكال يسـتحق التأمّل، وما دلّ على جواز إقامة الصـلاة جماعة منصـرف إلى الفرد الشائع، وأما هذا الفرد النادر فإطلاق الأدلة على فرض وجوده منصرفة عنه.

۱- جواهر الكلام ۲۳۰: ۱۳.

۲- مستمسك العروة الوثقى ۲۴۸: ۷.

ص: ۱۳

فإن قلت: إنّ الشكل الهندسى للمسجد الحرام كان دائرياً منذ أن بنيت الكعبة من قبل نبى الله إبراهيم (ع)، لأنّ الطواف بالبيت العتيق- الّذى نادى به الله عزوجل على لسان إبراهيم الخليل فى قوله: وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ. (۱)- يشهد لذلك، أوليس ذلك قرينة على جواز الصلاة بالجماعة استدارة وإن استلزم فى بعض الحالات مواجهة المأموم اللإمام؟

قلت: لاشك أنّ المطاف يكون دائرياً وأمّا كون المسجد فى عصر النبى إبراهيم (ع) بنى على شكل دائرة فلم يدل عليه دليل؛ وعلى فرض كونه كذلك لا يكون دليلًا على جواز الصلاة جماعة بالاستدارة.

إلى هنا تمت دراسة الاشكالين المذكورين فى كلام الفقهاء وهناك إشكال ثالث.

الثالث: وجود الحائل بين الإمام والمأموم

من شروط صحة الجماعة أن يكون بين الإمام و المأموم حائل يمنع عن مشاهدته، قال المحقّق: لاتصحّ مع حائل بين الإمام و المأموم يمنع المشاهدة، وقال صاحب الجواهر: الظاهر أنه إجماعى- كما فى الذخيرة- بل هو كذلك فى صريح الخلاف والمنتهى والمدارك.

ويدل عليه صحيح زرارة عن الباقر (ع): «إن صلّى قوم وبينهم وبين الإمام ما لا يتخطى فليس ذلك الإمام لهم بإمام، وأى صف كان أهله يصلون بصلاة إمام وبينهم وبين الصف الّذى يتقدمهم قدر ما لايتخطى، فليس تلك لهم بصلاة، فإن كان بينهم سترة أو جدار فليست تلك لهم بصلاة، إلّا من كان من حيال الباب، قال: وقال: هذه المقاصير لم تكن فى زمان أحد من الناس وإنّما أحدثها الجبارون، ليست لمن صلّى خلفها مقتدياً بصلاة مَنْ فيها صلاة». (۲) ووجه الإشكال: أنّ الكعبة المشرفة تحول بين الإمام وكثير من المأمومين الذين يصلّون فى النصف الثانى من الدائرة بحيث إنّهم لايرونه.

ويمكن أن يقال: إنّه لا يشترط مشاهدة جميع المأمومين الإمام، بل يكفى مشاهدة من يشاهده من المأمومين وإن تعددت الوسائط. (۳) فإذا وقف المأموم فى نصف الدائرة الثانية فهو وإن كان لا يشاهد الإمام؛ لأنّ الكعبة تحول بينهما إلّا أنّه يشاهد الإمام بوسائط ولايقاس المقام بصلاة الإمام بالمقصورة، فإنّ مقصورة المسجد كانت بشكل يحجز عن دخول الغير ولم يكن الإمام مشاهداً مطلقاً و إنّما يطلع المأمومون على أحواله من الركوع والسجود بواسطة تكبير المكبرين.

أضف إلى ذلك انصراف ما دلّ على عدم وجود الحائل عن هذا النوع من الحائل الّذى اقتضته طبيعة صلاة الجماعة فى ذلك المكان.

۱- الحج: ۲۹.

۲- الوسائل ۵: الباب ۶۲ من أبواب صلاة الجماعة، الحديث ۲.

۳- جواهر الكلام ۱۵۹: ۱۳.

ص: ۱۴

إلى هنا درسنا الإشكالات الثلاثة فى المقام، وقد عرفت أنّ الإشكال الثانى أقوى من الأول و الأخير، فالاقتصار فى إقامة الصلاة جماعة على نحو الاستدارة على ما لايوجد فيه أحد الموانع الثلاثة هو الأحوط.

الاستدلال على الصحة بالسيرة

إنّ قسماًمن الفقهاء استدلّوا على الصحة بالسيرة وفى مقدّمتهم الشهيد الأوّل فى «الذكرى» حيث قال: ولو استداروا صحّ للإجماع عليه عملًا فى كل الأعصار السالفة. (۱) وقد ايدت السيرة بأنّ أصحاب النبى (ص) فى عام الفتح بلغوا عشرة آلاف أو أكثر، فكيف يمكن لهم الصلاة فيه بنحو الخط المستقيم؟ بل بلغ عدد المرافقين فى حجة الوداع إلى مائة ألف.

وهذه السيرة الّتى لم يعترض عليها أئمة الشيعة خير دليل على كونها أمراً مقبولًا عندهم. (۲) يلاحظ عليه: أنّ كل ما ذكروه حول هذه السيرة نابع عن عدم الوقوف على وقت بدء الصلاة بهذه الكيفية، وقد عرفت أنّ أول من أدار هو خالد بن عبدالله القسرى، وأنّ السبب للاستدارة هو ضيق المكان على الناس فى صلاة التراويح، ولم يكن هذا الملاك موجوداً فى الصلوات اليومية.

وأمّا عدم سعة المسجد الحرام للآلاف المؤلفة فهو أمر صحيح لكنّه ليس دليلًا على إقامة الصلاة فى المسجد الحرام، بل ربّما أقامها النبى (ص) خارج المسجد، خصوصاً أنّ النبى (ص) أقام خارج مكة وقد سُئل عن السبب فقال، لم يترك عقيل لنا بيتاً فى مكة.

وحقيقة الكلام: أنّ المسجد الحرام لم يكن بهذه السعة ولم يكن أيضاً كافياً حتّى ولو أقاموا الصلاة مع النبى (ص) استدارة، وهذا ابن الجوزى يصف لنا بناء المسجدالحرام ويقول: إنّ المسجد الحرام كان صغيراً ولم يكن عليه جدار، إنّما كانت الدور محدقة به، وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية، فضاق على الناس المسجد، فاشترى عمر بن الخطاب دوراً فهدمها، ثم أحاط عليه جداراً قصيراً، ثم وسع المسجد عثمان بن عفان واشترى من قوم، ثم زاد ابن الزبير فى المسجد واشترى دوراً وأدخلها فيه، وأول مَنْ نقل إليه أساطين الرخام وسقفه بالساج المزخرف الوليد بن عبدالملك، ثم زاد المنصور فى شقه الشامى ثم زاد المهدى، وكانت الكعبة فى جانب فأحب أن تكون وسطاً، فاشترى من الناس الدور ووسطها، ثم توالت الزيادات فيه إلى يومنا هذا. (۳)***

۱- الذكرى: ۱۶۲.

۲- المحقّق الاصفهانى، صلاة الجماعة: ۱۳۶.

۳- مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن لأبى الفرج بن الجوزى ۳۵۸: ۱.

ص: ۱۵

الحج رموز و حكم

الوقوف فی عرفات

الوقوف فی أرض عرفات فی النصف الثانی من یوم عرفة- و هو یوم التاسع من ذی‌الحجة- هو أوّل مرحلة من مناسک حج التمتع بعد إحرامه، کما عرض الله تعالی مناسک الحج لإبراهیم (ع) وعلّمه، وهو الحج الإبراهیمی الذی عُلّمه رسول الله (ص).

یکفی فی أهمیة عرفة ما قاله الإمام الصادق (ع): «من لم یغفر له فی شهر رمضان لم یغفر له إلی قابل، إلّا أن یشهد عرفة»، (۱) إنّ من الذنوب ما لا یغفر إلّا بعرفة والمشعر الحرام. (۲) أسرار الوقوف

یقول الإمام علی (ع) حول سرّ الوقوف بعرفات: «لأنّ الکعبة بیته والحرم بابه، فلما قصدوه وافدین، وقفهم بالباب یتضرّعون» (۳)، من هنا کان لیوم عرفة ولیلته أدعیة خاصة، هی من فضائل یوم عرفة البارزة ووظائفه الهامة.

إنّ أسرار الوقوف بعرفات کثیرة، وقد أشیر إلی بعضها فی حدیث الشبلی المتقدم، وهی:

۱. علی الحاج بوقوفه فی عرفات أن یقف علی المعارف والعلوم الدینیة، ویطّلع علی الأسرار الإلهیة فی نظام الخلقة، ویعلم أنّ الله سبحانه واقف علی کل حاجاته، وقادر علی رفعها بأجمعها.

من هنا یقول الإمام السجاد (ع) للسائل الذی استجداه فی یوم عرفة:

«ویحک! أغیر الله تسأل فی هذا الیوم. إنّه لیرجی لما فی بطون الحبالی فی هذا الیوم أن یکون سعیداً». (۴) إنّ من یطلب هنا من غیر الله تعالی یضر بنفسه، هؤلاء یقول الإمام السجاد (ع) فیهم: «هؤلاء شرار من خلق الله، الناس مقبلون علی الله وهم مقبلون علی الناس». (۵) ۲. علی الحاج أن یدرک فی عرفة أنّ الله تعالی مطلع علی ما یظهر ویعلن وما یسر ویخفی، حتی ما یخفی علی الحاج نفسه و یکون مستکناً بطریقة لا شعوریة فی أعماقه، عندما یعلم الإنسان أنّ قلبه فی محضر الحق تعالی ومشهده، یتجنب الذنوب الجوانحیة کما یتحاشی التلوث بالذنوب الجوارحیة، وینزه قلبه علی الخواطر السیئة والملوثة.

یقول الإمام السجاد (ع): «... الله عزّوجل إذا کان عشیة عرفة وضحوة یوم منی، باهی کرام ملائکة بالواقفین بعرفات ومنی، وقال لهم: هؤلاء عبادی وإمائی حضرونی ههنا من البلاد السحیقة البعیدة شعثاً

۱- الکافی ۶۶: ۴.

۲- بحار الانوار ۲۶۱: ۹۶.

۳- الکافی ۲۲۴: ۴، و انظر: المصدر السابق: ۴۶.

۴- وسائل الشیعة ۲۸: ۱۰.

۵- بحار الانوار ۲۶۱: ۹۶.

ص: ۱۶

غبراً، قد فارقوا شهواتهم وبلادهم وأوطانهم وأخدانهم ابتغاء مرضاتى، ألا فانظروا إلى قلوبهم وما فيها، فقد قويت أبصاركم يا ملائكتى على الاطلاع عليها، فتطلع الملائكة على قلوبهم فيقولون ...». (۱) تملك الملائكة بعض الاطلاع على الغيب، وعندها معلومات عن الكثير من مسائل ما بعد الطبيعة، إلّا أنّ ستر الحقّ تعالى ولطفه ورحمته لا يسمحان للملائكة- من أولئك المعنيين بتسجيل أعمال البشر وخواطرهم- بفهم الكثير من أسرار الناس، إلّا أنّه وفقاً للحديث المتقدم يطلع الملائكة فى يومى عرفة والعيد بإذن من الله تعالى على خفايا قلوب الزائرين، ويرون أنّ قلوب بعض الحجاج سوداء جداً تتعالى منها خيوط الدخان الأسود، وهنا يقول الله سبحانه للملائكة: أولئك الذين لم يصدّقوا النبى (ص) ولم يعتبروه صادقاً- والعياذ بالله- ويقولون عن بعض ما يتصل بخلافة أميرالمومنين على (ع): إنّ رسول الله (ص) لم يفعل ذلك ولم يصدر منه هذا! ثم يرى الملائكة فريقاً آخر قلوبهم نيّرة، وهنا يقول الله سبحانه: إنّ هؤلاء كانوا يطيعون الله ورسوله، ويعتبرون النبى (ص) أميناً على الوحى وأنه لم يقل شيئاً من عنده، وأنّ كل ما قاله وأتى به- بما فى ذلك الإمامة والقيادة من بعده- إنّما صدر عنه طبقاً لما جاءه من الوحى.

وسرّ ذلك كما أسلفنا فيما مضى، أنّ الولاية هى سرّ الأعمال كافة، فالمؤمنون الحقيقيون يبلغون سرّ الولاية، فيصلون أسرار الحج، فيظهرون فى أرض عرفات بصورة الإنسان الواقعى، فيفتخر الله بهم فى مقام الفعل.

نعم، إنّ ما جاء فى الحديث الشريف ليس قضيّة تاريخية، وليس من نوع «قضية فى واقعة» ينحصر بمراسم الحج وأيام عرفة، وعيد الأضحى، إنّ هذا المشهد مستمر متواصل، غايته أنّ ظهوره التام يكون فى الحج.

۳. يصعد (۲) بعض الحجاج يوم عرفة على «جبل الرحمة» (۳)، والسّير فى الصعود أعلى الجبل أن يعلم الإنسان أنّ الله تعالى رؤوف رحيم بكل مسلم من ذكر أو أنثى و أنه متوليهم، فالله وإن كانت له بالنسبة للجميع ولاية تكوينية وهو وليّ الجميع (۴)، ومع أنّ رحمته عامة وشاملة للموجودات كافة، (۵) إلّا أنّ له رحمة خاصّة بالمتقين، قال سبحانه: وَ رَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (۶)

۱- المصدر السابق: ۲۵۹.

۲- إنّ ما ذكرناه فى المتن أعلاه الصعود على جبل الرحمة ناظر إلى حديث الشبلى، والّا فبناءاً على رأى مشهور الفقهاء، الأفضل الوقوف يوم عرفة أسفل الجبل وفى الأرض السهلة، فيما الصعود على الجبل مكروه، فقد سئل الإمام الكاظم ۷ عن الوقوف بعرفات فوق الجبل أحبّ إليك أم على الأرض؟ فقال: «على الأرض..»، وسائل الشيعة ۱۱: ۱۰. وقال الإمام الصادق ۷: «عرفات كلّها موقف وأفضل الموقف سفح الجبل»، الكافى ۴۶۳: ۴. وفى رواية أخرى ورد: «عرفات كلّها موقف وما قرب من الجبل فهو أفضل»، وسائل الشيعة ۱۹: ۱۰.

۳- يقع الجبل الرحمة فى أرض عرفات، وقد وقف رسول الله ۹ على مرتفع حجرى فيه وألقى الخطبة المعروفة بعرفات، كما أنّ الإمام الحسين ۷ قرأ دعاء يوم عرفة على سفح هذا الجبل، وتوجد هناك قبة باسم آدم ۷ تكره الصلاة عندها.

۴- الكهف: ۴۴.

۵- الأنعام: ۵۴.

۶- الأعراف: ۱۵۶.

ص: ۱۷

۴. يقع على جانب من أرض عرفات يماسّ الحرم جبلٌ يسمى ب- «نمرة» وفى تلك المنطقة مسجد يأخذ هذا الإسم أيضاً، إنّ معنى الحضور فى نمرة هو: يا الله! لا آمر بشيء إلّا أن أكون مؤتمراً به قبل ذلك، ولا أدع شيئاً إلّا وأكون قد حذرته من قبل وتجنبته.

لم ترد فى شروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يكون الآمر والناهى عادلًا طاهراً النفس، وإنّما المطلوب هناك هو العلم بالمعروف والمنكر، واحتمال التأثير فى الأمر والنهى؛ إلّا أنّه باطن ذلك يرجع وفقاً للأساس الذى يقوم عليه سرّ الوقوف فى (نمرة)؛ إنّ العدالة، أى أنّ على الآمر بالمعروف أن يأتمر بما يأمر به، والناهى عن المنكر أن ينزجر عما ينهى عنه.

۵- على الحاج عند حضوره فى وادى «نمرة» المعبّر عنه فى حديث الشبلى ب- «نمرات» أن يدرك أنّ هذه الأرض هى أرض شهادة ومعرفة وعرفان، أى كما أنّ الله تعالى وملائكته شاهدون، فإنّ هذه الأرض الواسعة هى أيضاً شاهدة على أعمال زوار بيت الله الحرام، وتعلم بأى نية أتى بها؟ وبأى دافع يرجع؟ بماذا تشهد؟

عرفات أرض الدعاء

يتضح دور الدعاء فى الوصول إلى الرحمة الإلهية الواسعة من خلال كلام الإمام الصادق (ع)، حيث قال: «الدعاء كهف الإجابة كما أنّ السحاب كهف المطر»؛ (۱) فكما أنّ السحاب مقرّ المطر، كذلك الدعاء مقرّ الإجابة وموطنها، وبعبارة أخرى: الإجابة تقع فى داخل الدعاء، تماماً كمايستقرّ المطر ويخزن فى الغمام.

إنّ حالات الحياة كلّها مناسبة للدعاء والتضرّع، إلّا أنّ فترة الحج الزاخرة المعطاءة والحضور فى مواقفه يمنع الدعاء هيبةً وعظمةً، ويقدم له تأثيراً إضافياً وافراً، فكما أنّ الدعاء من ضمير صاف مورد للقبول، وللإحرام وصوب الكعبة الحرّ الطاهر أثراً خلاقاً فى تصفية هذا الضمير، لذلك كان للتضرّع فى الحج والدعاء فى مواقفه أفضل الآثار وأسماها، من هنا كان لكل برنامج فى الحج قوانينه ونظمه الخاصة فى مجال الدعاء، وعمدة ذلك كلّه هو دعاء عرفة فى صحراء عرفات.

يوم عرفة هو يوم الدعاء والتضرّع، فصحيح أن صيام هذا اليوم مستحبّ إلّا أنه لو كان الصوم موجباً لحصول الضعف للإنسان بحيث لا يتمكن من الدعاء، فإنّ الدعاء يكون مقدماً على الصيام حينئذ. (۲) لقد نقلت لنا روايات كثيرة حول أعمال يوم عرفة وعند الوقوف فى عرفات، لاسيما فيما يخص كيفية الدعاء، حيث تتحدث بعض هذه المرويات عن خصوص أدعية ذلك اليوم فيما يتحدث بعضها الآخر عن الترغيب فى الدعاء للآخرين، حتّى أنّ بعض تلامذة أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) كان كلّ همّه فى هذا اليوم فى تلك الأرض التى تستجاب فيها الدعوات أن يدعو لغيره.

ينقل على بن إبراهيم فى هذا المجال عن والده إبراهيم بن هاشم أنه قال: رأيت عبدالله بن جندب فى الموقف، فلم أرَ موقفاً كان أحسن من موقفه، مازال مادّاً يديه إلى السماء، ودموعه تسيل على خديه حتّى تبلغ الأرض، فلما صدر الناس قلت له: يا أبا محمد ما رأيت موقفاً قط أحسن من موقفك، قال: والله ما

۱- الكافى ۴۷۱: ۲.

۲- بحارالأنوار ۱۲۳: ۹۴- ۱۲۴.

ص: ۱۸

دعوت إلّا لإخوانی، وذلک أنّ أبا الحسن موسی (ع) أخبرنی أنّ «من دعا لأخیه بظهر الغیب نودی من العرش ولک مائة ألف ضعف مثله»، فکرهت أن أدع مائة ألف مضمونة لواحدة لا أدری تستجاب أم لا. (۱) قرب الله من عباده

للحج مواقف ومناسک، کل واحدة منها تحمل خصوصیة لا تحویها التالیة، أو تحوی قدراً بسیطاً منها، من هنا وبقرینة الحدیث النبوی الشریف: «الحج عرفة» (۲)، لیس من البعید أن تظهر فی عرفات معرفة لا تتحقق فی أی مکان آخر، فالحج سبب لتعالی الإنسان، ونیله أعلی قمم عالم الإمکان، أی «الخلق العظیم» ببرکة هذه المعرفة الخاصة التی لا تتحقق إلّا فی عرفات.

فلیوم عرفة وأرض عرفات مقام خاص لیس میسّراً إلّا بأن یحقق الحاج خصائص الأزمنة والأمکنة الأخری فی الحج لیکون مهیئاً لإدراک الدعاء، وبذلک تتعلّق الروح بعزّ العرش الإلهی، فتصل إلی معدن العظیم وتصبح عظیمةً. (۳) إنّ لقرب الله تعالی من عباده مراتب ودرجات، حیث یمکن الوصول إلی المرحلة اللاحقة بطیّ ما قبلها، وخصوصیة ذلک منحه شعاعاً جدیداً من التضرّع، وانجذاباً مستحدثاً للدعاء، إنّ هذه المراتب بعضها أقرب من الآخر، وهی بناءاً علی الآیات القرانیة کالتالی:

۱. وقفاً للآیة الشریفة: وَ إِذا سَأَلَکَ عِبادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ (۴) إنّ القرب الإلهی بلغ أنّ الله تعالی فی هذه الآیة لم یقل لنبیه: فقل لهم، بل بادر هو إلی الجواب بشکل مباشر، مذکّراً بقربه من عباده.

۲. إنّ الله قریب من المحتضر المشرف علی الموت أکثر من قرب أقربائه ولکن الناس لاتری ذلک، قال تعالی: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْکُمْ وَ لکِنْ لا تُبْصِرُونَ. (۵) ۳. قال تعالی: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ (۶)، فهو أقرب من الإنسان من شریان حیاته.

۴. إنّ الله تعالی أقرب إلی الإنسان من نفسه؛ إن فهم هذه المرحلة فهماً صحیحاً وکذلک فهم الکلام التیّر لأمیرالمومنین (ع): «هو فی السماء علی غیر ممازجة، خارج منها علی غیر مباینة» (۷)، إنما یسهل ذلک فی

۱- الکافی ۵۰۸: ۲، و ۴۶۵: ۴.

۲- المحجة البیضاء ۲۰۴: ۲.

۳- مفاتیح الجنان، المناجاة الشعبانیة.

۴- البقرة: ۱۸۶.

۵- الواقعة: ۸۵.

۶- ق: ۱۶.

۷- بحار الأنوار ۲۷: ۴.

ص: ۱۹

ضوء قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. (۱)

على الحاج طيّ هذه المراحل الأربع ليبلغ نهايتها، وهذا ما لا يحصل إلّا للموحّدين الحقيقين الخالصين.

وخلاصة القول، إنّه لاريب فى القرب الإلهى، والحجاب الوحيد بين العبد ومولاه هو العبد نفسه وذنوبه، «ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه» (۲)، و «أنّ الراحل إليك قريب المسافة، وأنّك لاتحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك» (۳)، ولكى يتحرّر الإنسان من هذا الحجاب لابد له من السفر عن ذاته والرحيل، وعليه أن يهاجر عن رغباته ومراداته لكى يكون مصداقاً لقوله تعالى: وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً. (۴)وإذا استطاع الإنسان أن ينجو من رؤية الذات فإنّ مشاهدة الأسرار الإلهية، ونيل جنة اللقاء يصبح مسيراً مفتوحاً أمامه.

إنّ أيّام الحج ومناسكه لاسيما أرض عرفات هى أكبر فرصة للتحرّر من رؤية الذات، وللهجرة من بيت النفس، لقد بيّن القرآن الكريم هذه الهجرة فى المكانة بقوله: وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (۵)، فمن يهاجر الرجز والانحطاط، ويخرج من ضيق الطبيعة، ثم يواجه موتاً أمامه، فإنّ أجره سيكفله الله تعالى، قال سبحانه: وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً. (۶) مقاطع من دعاء عرفة للإمام الحسين (ع)

تختزن أدعية الحج الخاصة الكثير من البركات الزمانية والمكانية وغيرها، وأفضل مناجاة وتضرع تبيّن كذلك الأبعاد السياسية والعبادية للحج والزيارة هو دعاء عرفة، لسيد شهداء حيّ الشهود والشهادة الإمام الحسين بن على (ع)، فهو فى هذا الدعاء أعطى الأوامر بمواجهة الكفر، ومحاربة سبيل الطاغوت، والوقوف الشجاع أمام المجرمين، بتأسيس منهج مواجهتهم واسقاطهم، كما أنه من جهة أخرى دلّل على مدح الدولة الإسلامية وتقديرها، وظهور الولاية الإلهية، وعلى خط ثالث كشف عن التجلّى الوجودى للذات الإلهية الأقدس، وظهورها الشامل التام مع خفاء كل ما سواها فى ضوئها وشعاعها، وفهمه به، وإسقاط قيمة غيره، ومعرفة غيره به، لتكون ذاته الغنية عن أن يستشهد لها.

وهذه بعض ملامح ومؤشرات هذا الدعاء:

۱- الأنفال: ۲۴.

۲- بحار الأنوار ۳۲۷: ۳.

۳- مفاتيح الجنان، دعاء أبى حمزة الثمالى.

۴- النساء: ۱۰۰.

۵- المدثر: ۵.

۶- النساء: ۱۰۰.

ص: ۲۰

فی مقطع من هذا الدعاء یتحدّث عن القدرة الإلهیة فیقول: «وهو للدعوات سامع، وللکربات دافع، وللدرجات رافع، وللجبابرة قامع».

وفی موضع آخر یتحدث الدعاء عن عنایة الله تعالی بدولته، والعیش فی کنفها، والنجاة من الکفر وحکّامه، إنّه یخاطب الله تعالی فیقول: «... لم تخرجنی لرأفتک بی ولطفک لی وإحسانک إلیّ فی دولة أئمة الکفر الذین نقضوا عهدک وکذبوا رسلک، لکنک أخرجتنی للذی سبق لی من الهدی الذی له یسّرتنی وفیه أنشأتنی».

لقد بیّنت فی بعض مقاطع هذا الدعاء الشریف أعلی مراتب التوحید، ففی بعضها جری الحدیث بشکل واضح وصریح، بأنّ فهم الله والوصول إلیه عبر آثاره وآیاته کبلوغ الشمس فی جوّ صاف ونیّر عبر ضوء الشمعة الضعیف، لأنّ الذات الإلهیة الأقدس هی أظهر من کل ظاهر وأنور من کل نور، فلم تغب قطّ ولاتغیب أبداً، حتّی تحتاج إلی من یدل علیها، والعارف لایری قبله سواه ثم یری بعده آثاره.

لقد جاء فی بعض المقاطع الأخیرة لهذا الدعاء ما یلی: «إلهی تردّدی فی الآثار یوجب بعد المزار، فاجمعنی علیک بخدمة توصلنی إلیک، کیف یستدل علیک بما هو فی وجوده مفتقر إلیک؟ أیکون لغیرک من الظهور ما لیس لک حتّی یکون هو المظهر لک؟ متّی غبت حتّی تحتاج إلی دلیل یدل علیک؟ ومتّی بعدت حتّی تکون الآثار هی التی توصل إلیک؟ عمیت (۱) عین لا تراک علیها رقیباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّک نصیباً ...». (۲) إنّ الإمام الحسین (ع) یخاطب هنا ربّه: إلهی! وإن کان العالم کلّه آیات توحیدک وعلاماته لکن لاترجع إلی هذه العلامات، فإنّک إن أرجعتنی إلی العلامات الآفاقیة أو الأنفسیة کی أصل عبرها إلیک فسوف یطول الطریق، أظهر لی نفسک، فإنّ هذه الآثار عاجزة عن أن تجلیک بصورة ناصعة تامّة، حتّی أرض عرفات ومکّة ومواقف الحج التی قلت فیها:

فِیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ. (۳) لا تملک ظهوراً یُظهرک ویجلیک.

إلهی! أنت اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ (۴)، فأنت أوضح من أی علامة وأقرب إلیّ منها، فلماذا تحیلنی علیها؟ ربی! إنّ الاستدلال یکون لبلوغ الغائب فمتی کنت غائباً حتّی ألتجئ إلیه؟! فأنت بنفسک قلت: أ وَ لَمْ یَکْفِ بِرَبِّکَ أَنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۵)، فأنت غیر محتاج إلی دلیل حتّی أستعین بالآیات فأصل إلیک، فاظهر علی قلبی بالشهود بلاواسطة حتّی أراک.

من المناسب أن یکون هذا الدعاء لبّاً لکل العبادات، فالعبادة لیست سوی ما یحقق مجالًا لظهور المعبود لا غیر، فلا یطلب بها سواه، ولا یقصد من ورائها إلّا معرفته بنفسه.

۱- أخطأ بعض المترجمین لهذا الدعاء عن العربیة ففسّروا «عمیت» و «خسرت» بالدعاء علی هذه العین والصفقة، مع أنهما إخبار لا إنشاء تنبئان عن أمر غیر مشهود.

۲- مفاتیح الجنان، دعاء عرفة للإمام الحسین ۷.

۳- آل عمران: ۹۷.

۴- النور: ۳۵.

۵- فصلت: ۵۳.

ص: ۲۱

لقد منح هذا الدعاء الحكماء الإسلاميين المتألهين، برهان الصديقين وعلّمهم إياه، ودفع العرفاء لشهوده، وحذّر العباد وأتعظ السالكين، حتّى يضعوا أقدامهم فى الوادى الأيمن، ويطأوا الطريق لبلوغ عين الهدف، فإنّ الوصول إلى الله من الله، يعنى نيل المقصود من المقصد.

حضور إمام الزمان (ع) فى الحج

يحضر بقيهٔ الله الحجهٔ بن الحسن (ع) كل عام مراسم الحج، لاسيما فى عرفات ومنى، وفى هذا يقول الإمام الصادق (ع): «يفقد الناس إمامهم، يشهد الموسم فيراهم ولا يرونه» (۱)، ويقول النائب الخاص لإمام الزمان (ع)، محمد بن عثمان العمرى؛: «والله إنّ صاحب هذا الأمر ليحضر الموسم كل سنهٔ، يرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه». (۲) إنّ الكثير ممّن ترى على يديه وتلمّذ يكون حاضراً فى الموسم، ويطلعون بعنايته الخاصّهٔ على ملكوت الأفراد.

الأمر الجدير بالذكر هنا، أنّه ليس المقصود أنّ حلّ مشكلات الحجاج، أو أىّ عمل خارق للعادهٔ، وكرامهٔ تقع فى أيام الحج وفى أرض منى وعرفات، فلابد أن تكون لليد المباركهٔ لإمام الزمان (ع) دور مباشر فيها، فقد يتيه عجوز أو غريب عن منزله أو يظلّ بلا زاد ولا راحلهٔ وسط الطريق، فيعينه ويرشده ولىّ من الأولياء الإلهيين الذين تربوا فى مدرسهٔ ولايته (ع).

إنّ التشرف والحضور المباشر فى المحضر النورانى لإمام الزمان- أرواحنافداه- يحتاج لخواص ولياقات لازمهٔ، من هنا لا يوفق إلّا الأوحدى من الموحدين كى يحضر إليه الوجود المبارك للحجهٔ (ع)، نعم عنايته (ع) شاملهٔ للأولياء والصالحين والشهداء الذين ربّاهم، وهم يقومون بحلّ مشكلات الآخرين بأمر منه (ع).

الوقوف فى المشعرالحرام

يجب على الحاج- بأمر من الله تعالى- أن يخرج بعد غروب الشمس فى التاسع من ذىالحجهٔ من أرض عرفات، ويتجه نحو المشعرالحرام، قال سبحانه: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (۳)، ويقضى ليلهٔ هناك.

إنّ الوقوف فى المشعر من أركان الحج كالوقوف بعرفات تماماً، وهنا يشتغل الحجاج فى بعض هذا الليل بجمع الجمار لرمى الجمرات بها فيما بعد.

۱- الكافى ۳۳۷: ۱- ۳۳۸.

۲- من لا يحضره الفقيه ۵۲۰: ۲.

۳- البقرهٔ: ۱۹۸.

ص: ۲۲

المشعر الحرام يقع فى الحرم وهو أوّل مدخل يؤتى الحرم منه (۱)، فمن يعرف فى يوم عرفة وأرض عرفات العلوم والمعارف الإلهية ويتعبّد بالآداب الدينية الخاصّة، يليق به أن يرد الحرم وأن يبين عند مدخله فيجمع الجمار كى يرمى بها فى اليوم العاشر جمرات منى والشيطان.

إنّ سرّ الوقوف فى المشعرالحرام والمبيت فيه أن يذكّر الحاج قلبه بشعار التقوى ويجعل عنوان قلبه الخوف والتقوى، (۲) فيعرف بها، وشعار كل قوم هو المعرّف لهم، وعليه فالتقوى مع وجودها فى تمام مناسك الحج، إلّا أنّ تجلّيها الخاص يكون عند الوقوف فى المشعرالحرام ويظهر مشهوداً للواقفين على الأسرار.

عندما يقف الحاج فى المزدلفة، ويجمع الحصيات، إنما يأخذ القوة ويتسلّح لمحاربة الشيطان، ويهبّ مواجهاً لأى عصيان، ويحلق رأسه فى محضر الطاعات.

وعندما تطلع الشمس وينتهى المبيت فى المشعرالحرام، يتجه الحاج إلى منى فيدخلها، وهنا يستحبّ له عند حركته إليها أن يسير برفق وحدود، و لايتمايل يميناً ولا شمالًا، ويطوى المسافة الفاصلة بين المشعر ومنى فى المسير المحدّد، وسرّ هذا الحكم أن يتعلّم الحاج الحركة على الصراط المستقيم، فلايميل إلى الشرق ولا إلى الغرب؛ لأنّ اليمين واليسار انحراف، والسبيل الوسط هو الصراط المستقيم. «اليمين والشمال مضلّة، والطريق الوسطى هى الجادّة». (۳) الإفاضة إلى منى والمبيت فيها

يتوجّه الحجاج إلى منى بعد طلوع الشمس من العاشر من ذى الحجة، عقب مضيهم الليلة السابقة فى سفرهم من عرفات إلى المشعر والوقوف فيه، وذلك لكى يؤدى أعمال منى الخاصّة.

وهنا يتحدث الإمام السجّاد (ع) مع الشبلى فيقول له: «وصلت منى، ورميت الجمرة، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصليت فى مسجد الخيف، ورجعت إلى مكة، وطفت طواف الإفاضة؟...»

يحبّ الإنسان الخلود، من هنا يأمل فى تهيئة ما يظلّ معه دائماً، فالذى يفكر فى جمع المال يرتكب خطأ، ويكون فى واقع الحال قد ترك تهيئة نفسه ولم يجمع سوى الوزر والوبال عليه، أما ذاك الساعى فى الإنتاج، والقانع فى المصرف والاستهلاك، والناجح فى توفير الحلال مما يملكه، أى إنه عزيز الإنتاج قليل الاستهلاك، لايقل ولايمل، ويحل مشاكل الآخرين طلباً لرضا الله تعالى.. إنّ مثل هذا الشخص يرسل رأس ماله مسبقاً إلى القيامة والديار الأبدية، وبالموت يبلغ ماله ويصل إليه.

وخلاصة القول: إنّ الفريق الأول لديهم أمل مذموم، أما الفريق الثانى فعنده التمنى الممدوح، ومنى هى أرض نيل الأمانى الصادقة، لا تلك الكاذبة، و الآمال الباطلة، والمُنى الفاسده.

لقد سأل الإمام السجاد الشبلى فقال له: «أخرجت إلى منى؟ قال: نعم. قال: نويت أنك آمنت الناس من لسانك وقلبك ويدك؟ قال: لا. قال: فماخرجت إلى منى.»

۱- الكافى ۲۲۴: ۴؛ وانظر المصدر السابق: ۴۶.

۲- أنظر: حديث الشبلى المتقدم.

۳- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۶، الفقرات: ۷- ۸.

ص: ۲۳

وعليه، فعلى الناس أن ترتاح بخاطرها من لسان الحاج ويديه وقلبه، بمعنى أنّ الحاج لا يذهب بماء وجه أحد، لا بنحو الجدّ ولا بنحو الهزل تحت مسميات الطرفة والنكتة السافرة، الملفوظة أو المكتوبة، ليس ارتياح الناس فى لسان الحاج ويديه، بل من قلبه أيضاً حيث لاينال بالسوء أحداً، فالضرر القلبى والأذية القلبية هى أن يختزن الصدر حقداً على أحد أو يحسده ويضمر له السوء.

تصفية المناسك من العادات الجاهلية

لقد شرّع الله تعالى لعرفات، والمشعر ومنى أحكاماً، ولكل حكم من هذه الأحكام حِكَمٌ مبيّنة، كالأمر بالتعظيم، وذكر اسم الله، و تذكّره وشكره على نعمة الهداية الإلهية. (۱) ومن أرفع رسالات الحج نشر العقائد التوحيدية، فإلى اليوم مازال هناك الملايين من الناس فى أرجاء العالم يعبدون الأوثان، نعم إنّ عبادة الأوثان اليوم لم تعد مذهباً ومدرسة عريقة راسخة، فتطوّر العلم سحب البساط من تحت الأصنام وعبادتها، لكن إذا لم يجر نشر العقائد التوحيدية وبسطها فى أرجاء المعمورة، فإنّ الخطر سيظل قائماً فى ضلالة الملايين من الناس بإضلال من الآخرين، فيقعون فى الإلحاد واللادينية، فبدل أن ينتقلوا من الديانة الباطلة إلى الديانة الفضلى، ينتقلونا منها إلى اللادينية!!

لقد جرت سنّة الجاهلية على أنه بعد الفراغ من الحج يجتمع الناس فى منى، ويتفاخرون بقوتهم وأعرافهم وأنسابهم، فيذكرون أصولهم المعرفية وآباءهم بالشعر والنثر، معتمدين فى ذلك على القيم الجاهلية، ككثره عدة أفراد القبيلة وعدتها، وقدرتها على الحرب والغارة.

أما نظام الحج فى الإسلام، فقد قضى علىهذا النظام الجاهلى المهترئ واستبدله ببيان نظام إلهى قيمى هدى الناس إليه، وأمر بعد إتمام المناسك فى منى بذكر الله كثيراً، وطلب المغفرة منه، وإرادة الحسنات وقد جاء فى إحدى الروايات:

قال رجل لعلىبن‌الحسين (عليهما السلام): يا ابن رسول الله! إنّا إذا وقفنا بعرفات و منى وذكرنا الله ومجّدناه وصلّينا على محمد وآله الطيبين الطاهرين ذكرنا آباءنا أيضاً بمآثرهم ومناقبهم وشريف أعمالهم نريد بذلك قضاء حقوقهم.

فقال على بن الحسين (ع): «أولا- أنبئكم بما هو أبلغ فى قضاء الحقوق من ذلك؟» فقالوا: بلى يا ابن رسول الله. قال (ع): «أفضل من ذلك وأولى أن تجدوا على أنفسكم ذكر توحيد الله والشهادة، وذكر محمد رسول الله والشهادة له بأنه سيدالنبيين، وذكر علىّ ولىّ الله والشهادة بأنه سيد الوصيين، وذكر الأئمة الطاهرين من آل محمد الطيبين بأنهم عباد الله المخلصين، وبأنّ الله عزّوجلّ إذا كان عشية عرفة وضحوة يوم منى باهى كرام ملائكته بالواقفين بعرفات ومنى، وقال لهم: هؤلاء عبادى وإمائى حضرونى ههنا من البلاد السحيقة البعيدة شعثاً غبراً، قد فارقوا شهواتهم وبلادهم وأوطانهم وأخدانهم ابتغاء مرضائى ألا فانظروا إلى قلوبهم وما فيها، فقد قويت أبصاركم ياملائكتى على الاطلاع عليها». قال: «فتطلع الملائكة على قلوبهم فيقولون يا ربنا اطلعنا عليها، وبعضهم سود مدلهمة يرتفع عنها كدخان جهنم. فيقول الله: الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (۲)

۱- البقرة: ۱۹۸- ۲۰۱.

۲- الكهف: ۱۰۴.

ص: ۲۴

تلك قلوب خاوية من الخيرات، خالية من الطاعات، مصرّة على الموذيات المحرمات؛ تعتقد تعظيم من أهنّاه، وتصغير من فخّمناه وبجّلناه؛ لئن وافونى كذلك لأشدّدن عذابهم ولأطلينّ حسابهم. تلك قلوب اعتقدت أن محمداً رسول الله (ص) كذب علىالله أو غلط عن الله فى تقليده أخاه ووصيّه إقامة أود عباد الله، والقيام بسياساتهم، حتى يروا الأمن فى إقامة الدين فى إنقاذ الهالكين، ونعيم الجاهلين، وتنبيه الغافلين، الذين بئس المطايا إلى جهنم مطاياهم. ثم يقول الله عزّوجلّ: يا ملائكتى! انظروا، فينظرون فيقولون: ربنا وقد اطلعنا على قلوب هؤلاء الآخرين وهى بيض مضيئة، يرتفع عنها الأنوار إلى السماوات و الحجب، وتخرقها إلى أن تستقرّ عند ساق عرشك يارحمان. يقول الله عزّوجلّ: أولئك السعداء الذين تقبل الله أعمالهم، وشكر سعيهم فى الحياة الدنيا، فإنهم قد أحسنوا فيها صنعاً. تلك قلوب حاوية للخيرات، مشتملة على الطاعات، مدمنة على المنجيات المشرفات. تعتقد تعظيم من عظّمناه وإهانة من أرذلناه. لئن وافونى كذلك لأثقلنّ من جهة الحسنات موازينهم ولأخفّفنّ من جهة السيئات موازينهم، ولأعظمنّ أنوارهم، ولأجعلنّ فى دار كرامتى ومستقر رحمتى محلّهم وقرارهم. تلك قلوب اعتقدت أنّ محمداً رسول الله (ص) هو الصادق فى كل أقواله، المحقّ فى كل أفعاله، الشريف فى كل خلاله، المبرز بالفضل فى جميع خصاله، وأنه قد أصاب فى نصبه أميرالمؤمنين علياً إماماً، وعَلَماً على دين الله واضحاً، واتخذوا أميرالمؤمنين إمام هدى وواقياً من الردى، الحقّ ما دعا إليه، والصواب والحكمة مادلّ عليه، والسعيد من وصل حبله بحبله، والشقىّ الهالك من خرج من جملة المؤمنين به والمطيعين له ...».

يقول أنس بن مالك، من ذلك عن الرسول الأكرم (ص) أنه قال: «إنّ الله تعالى يباهى بأهل عرفات الملائكة، يقول: يا ملائكتى! انظروا إلى عبادى شعثاً غبراً أقبلوا، يضربون إلىّ من كلّ فجّ عميق، فأشهدكم أنّى قد أجبت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مُسيأهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألونى غير التبعات التى بينهم. فإذا أفاض القوم إلى جَمْع ووقفوا وعادوا فى الرغبة والطلب إلى الله، يقول: يا ملائكتى! عبادى وقفوا وعادوا من الرغبة والطلب، فأشهدكم أنى قد أجبت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مسيأهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألنى، وكفلت عنهم بالتعبات التى بينهم». (۱) وبناءاً عليه، من المناسب لزائرى بيت الله الحرام عند المبيت بمنى، التباحث حول الأصول والعقائد؛ فإنّ ليالى منى ليالى درس، وليست وقت إقامة حفلات الأنس والمسامرات. وهنا يتم الحديث عن التوحيد والرسالة والولاية وأمثال ذلك، فينال الحاج فضيلةً علمية ومعنوية، ويفى حقّ آبائه وأجداده بشكل أفضل؛ لأنّ نداءهم له بأنّ كل خير نزل علينا فإنما هو بتوفيق وإمداد إلهى، فهو خير حامد وخير محمود، فبدل التفاخر بفضائلنا، علينا أن نحمده، ونثنى على الأنبياء والأولياء الإلهيين (عليهم السلام) الذين كانوا واسطة فى الفيض بيننا وبينه.

الحج فيّاض بإسم الله وذكره

۱- مستدرک الوسائل ۴۲: ۱۰؛ مجمع البيان ۷- ۱۲۹: ۸.

ص: ۲۵

نظراً لما يمتاز به الحج من ذكر خاص يقل مثيله فى سائر العبادات، فإنه يغدو أساساً لنيل الحاج شهود أمورٍ لا يشهدها غيره، فالحج وإن كان بنفسه مذكّراً بالله سبحانه، إلّا أنّ الذاهب إلى الحج يمنح فى بعض الأوقات حالةً ذكريةً تنسيه غير الله ولا يعيره بها اهتماماً.

ذكر الله هو لبّ الحج وروحه، كما أنّ نسيان الله وآياته باعث على عدم القدرة على رؤية شهود أسرار مناسك الحج، وهو عمى سوف يظهر فى يوم القيامة، تماماً كما قال تعالى:

وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى* قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً* قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (۱) فالحج الذى يذكّر بالله تعالى، يرى الحاج ما لايراه غيره ويكون عاجزين عنه ومحرومين منه، ولعلّه لهذا السبب جعل الله الحاج حرماً، ولم يجز إحلاله من إحرامه، إنّ الحاج نفسه شعيرة من شعائر الله، (۲) وما لم يرتكب ذنباً يظل بنفسه نورانياً .. «الحاج لا يزال عليه نور الحج مالم يَلُمَّ بذنب». (۳) تفاوت مراتب الحجّاج

ينقسم الحجاج الحاضرون فى منى- وفقاً للآية الشريفة فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً (۴) ومايليها من آية- إلى فريقين:

۱. من يذهب للحج للسياحة، والتجارة، والشهرة، وأمثال ذلك، فمنطق هؤلاء ومطلوبهم هو الدنيا، أ كانت حلالًا أم حراماً، وليس حسناتها، من هنا فهم لايقولون: رَبَّنا آتِنا فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وهؤلاء ليس لهم فى الآخرة حظّ ولا نصيب، لأنّ منتهى أفق رؤيتهم لم يكن سوى نشأه الطبيعة، قال تعالى: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِى الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (۵) ۲. من يذهب للحج ويريد عن الله حسنات الدنيا والآخرة، وهؤلاء هم من يعطيهم الله، قال سبحانه: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ* أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ. (۶) فمن حسنات الدنيا، المالُ الحلال، والأرحام، والأقارب المؤمنون، وأهل الفضل، القيام بالخدمات الاجتماعية، مجالس الأنس الإلهى، تعليم الكتاب والحكمة، التزكية، صلة الرحم وغير ذلك.

والدنيا بدون هذه الأمور ليس فيها حسنة حتى تطلب من الله.

۱- طه: ۱۲۴- ۱۲۶.

۲- المائدة: ۲.

۳- وسائل الشيعة ۶۸: ۸، ۳۲۸.

۴- البقرة: ۲۰۰.

۵- البقرة: ۲۰۰.

۶- البقرة: ۲۰۱- ۲۰۲.

ص: ۲۶

إنّ أعلى الحسنات وأعلاها مصداقاً، هو أجر رسالة النبى الأكرم (ص)، أى تولّى الأولياء الإلهيين واتّباع العترة الطاهرين، قال تعالى: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً (۱) رمى الجمرات

تجذب النباتات والحيوانات والإنسان- كلٌّ على طريقته- كلَّ مايلائمه كما تدفع عنها كلّ ما لاينسجم معه، والجذب والدفع على‌مستوى الطبيعة وعلى مستوى الأفراد العاديين تارةً تظهر بصورة الشهوة، والغضب؛ وأخرى على صورة المحبّة والعداوة؛ وثالثة بصورة الإرادة والكراهة ..

أمّا فى المؤمنين فتظهر الصورة بشكل أرقّ، وهى التولّى والتبرى، فالحج الذى يبلغ مرحلة التولّى الحقيقى والتبرى الصحيح، يتجلّى جذبه و تولّيه فى المبيت بمنى فى ذكر الله تعالى، كما يظهر دفعه و تبرّيه فى مناسك أيامها.

وليكن القول- مع الأخذ بنظر الاعتبار- قوله تعالى حول ذبح الأضاحى: لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ. (۲)

إنّ بيان القرآن حول مجلى التبرّى- وهو رمى الجمرات- هو أنّ الحجارة لا ترجم الشيطان ولا تطرده، وإنما الذى يدفعه هو الانزجار الباطنى والداخلى لكم، فهذا هو الذى يجعل شياطين الجنّ والإنس تفرّ، ويجعلك محمياً من كل شيطنة داخلية وخارجية.

ولابد من الالتفات فى مسألة رمى الجمرات إلى أنّ تلك الجمرات ليست شياطين، ولا ذلك الرمى للحجارة رمياً للشيطان، لأنّ رمى الجمرات كان أمراً مرسوماً فى الجاهلية، كما أنّ بعض شياطين الإنس اليوم يمارسون رمى الجمرات هذا، فمن البديهى أنّ الشيطان لايطرد برميةٍ فيها سبعة أحجار، وإنما السبيل الوحيد لطرده والبقاء فى مأمن من ضرره هو الاستعاذة العملية، والتحصّن بالحصن الإلهى، قال تعالى: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ. (۳) إنّ رمى الجمرات بالحجارة ما هو إلّا تعبير رمزى وإشارى إلى رمى الشيطان الداخلى والخارجى، وطرد شياطين الجن والإنس، فإذا كان هناك شخص هو بنفسه شيطاناً إنسياً، فإنه لن ينال شرف التبرى، والرمى الحقيقى ولا لياقتهما، تماماً كما إذا كان الشيطان قريناً لشخص، (۴) فإنه لن يتمكن من رمى قرينه، أى شيطانه.

۱- الشورى: ۲۳.

۲- الحج: ۳۷.

۳- الأعراف: ۲۰۰.

۴- الزخرف: ۳۶؛ النساء: ۳۸.

ص: ۲۷

إشارة: جرت سنّة العرب وعادتهم على أنه إذا غضبوا من شخص غضباً استثنائياً، فإنهم يرجمونه فى حياته ومماته، كما حصل مع أبى رغالة، قائد جيش أبرهة، فقد مات قبل الوصول إلى مكة، فعمد الناس إلى رجم قبره، وكذلك جرير الذى كان منافساً للفرزدق، نجده يقول:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبى رغال. (۱)

ذبح الأضاحى

يجب على الحجاج بعد رمى جمرة العقبة، وقبل حلق رؤوسهم، أو التقصير، ذبح بقرة أو غنم أو نحرجمل أضحية يوم العيد، قال تعالى: وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ ... فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْىِ (۲).

إنّ هذه السنّة الإلهية الخاصّة فى الحج توجب تقرّباً خاصاً قلّما نجده فى أىّ عبادة أخرى.

وتوضيح ذلك أنّ الذبح أو النحر، لم يسلما فى الجاهلية من لوث الشرك، بل كانا كالتلبية، (۳) وصلاة المشركين، (۴) ممزوجين بالشرك، فطريقتهم أنهم بعد الذبح أو النحر كانوا يلطخون الكعبة بدم الأضحية، ويعلّقون قسماً من لحمها على الكعبة حتى يقبلها الله تعالى! (۵) أما الإسلام، فقد جعل للأضحية حرمة خاصة، بحيث لا يجوز إحلالها، قال تعالى: لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْىَ وَ لَا الْقَلائِدَ (۶) ولإبعاد سنّة الجاهلية، وبياناً للتقرّب الناتج عن تقديم الأضحية، ربما سميت الأضحية أضحيةً، قال تعالى: لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ. (۷) لأنّ هذه الآية الشريفة طهرت الكعبة من سنن الجاهلية التى أشرنا إليها، كما طردت التوهم القائل: «بما أنّ الله لايحتاج للعالم وللناس، فلا يجب النحر والذبح على الحاج!» وذلك أنها شرّعت أصل التضحية رغم أنّ الله لايحتاج إلى لحومها، فالذى يصل إلى الله تعالى روح الفعل ولبّ العمل، أى التقوى، لا اللحم ولا الدم.

ومن حيث إنّ التقوى نعت وصفة خاصة تتحد مع المنعوت، فلافرق وجودىّ بين التقوى، ونفس المتقى المتحد معها، وعليه فإذا بلغت التقوى أوجها وكمالها، ووصلت- بالمعنى المعقول- إلى الله تعالى، فهذا

۱- دائرة معارف القرن العشرين ۴۶۵: ۹.

۲- البقرة: ۱۹۶.

۳- الكافى ۵۴۲: ۴.

۴- الأنفال: ۳۵.

۵- بحارالأنوار ۲۷۵: ۶۷.

۶- المائدة: ۲.

۷- الحج: ۳۷.

ص: ۲۸

معناه أنّ الحاج الـذى تكون أضـحيته خالصـة لله تعالى، يصل بنفسه إلى الله كما تصل تقواه إليه تعالى، لأنّ تقواه ليست شـيئاً غيره فى عالم الوجود، ولعلّه لهذه التقوى الثمينة التى وعد بها فى النحر، أطلق على يوم النحر يوم «الحج الأكبر». (۱) إنّ هذه التقوى ونيل نفس المتقى لله تعالى، هما الهـدف الرفيع الـذى يكون الحج وآدابه وسـننه المتعالية مظهراً له، وقد سـبق الإشارة لذلك عند حديثنا عن سـرّ الحج وثمراته، فليراجع.

وقفات حول التضحية و أسرارها

يمكن انطلاقاً مما تقدّمت الإشارة إليه، الحديث عن بعض النقاط ذات الصلة، وهى:

۱. إنّ الحكمـة من التضـحية هى تقرّب المضـحّى وتعـاليه مع تقواه نحو الله تعـالى، فمـا يصـل إلى الله إنما هو روح العمل وباطنه، قال تعـالى: لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ. (۲) ۲. وعليه، إنما تقبل الأضحية إذا كانت التقوى معها، وكان روح ذبحها أو نحرها هى التقوى، وفقاً للآيـة الشـريفة: إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. (۳) لايقبـل أى عمل بلا تقوى، كما أنه لو كان العمل مع التقوى لكن عـامله لم يراع تقوى الله فى غير هـذا العمـل، فإنّ هـذا العمل وإن قبل منه، لكن لايرتفع إلى الله كما ينبغى، لأنّ الله تعالى إنما يقبل العمل من العامل الذى تكون كل شؤونه- سواء فى هذا العمل أم فى غيره- قائمة على التقوى ومنتظمةً وفقها.

۲. كل عمل يقع بقصد القربة فهو أضحية، حيث ورد فى بعض الأحاديث «إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام». (۴) ۳. سرّ تقديم الأضـحية أنّ الحاج والمضحّى يتمسّكان بحقيقة الورع، ويقطع رقبة الشيطان ويقتله، (۵) وعليه فمجرّد ذبح البقرة، أو الماعز، أو نحر الجمل، ثم تركها دون تأمل فى سر هذا العمل، لايحقق أساس تعالى الحاج وتساميه.

۴. يقول الإمام الباقر (ع): «إنّ الله عزوجل يحب إطعام الطعام وإراقة الدماء». (۶) و من الممكن أن تكون الحكمة من ذلك فى ضمن حكمة اسـتفادة الجوعى والمحرومين، وانتفاعهم من لحم الأضـحية، رغم أنه فى هذا الزمان لايسـتفاد بشكل صحيح ومناسب من هذه السنّة الإلهية، و النظام الجامع و المفيد.

۱- التوبة: ۳؛ وسائل الشيعة ۸۶: ۱۰- ۸۸؛ و انظر المباحث السابقة.

۲- الحج: ۳۷.

۳- المائدة: ۲۷.

۴- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۹۹، الفقرة: ۷.

۵- أنظر حديث الشبلى المتقدم.

۶- وسائل الشيعة ۳۷۴: ۱۶، وفى صفحة: ۵۳۶ نقلت الرواية عن الإمام الصادق ۷ أيضاً.

ص: ۲۹

فی حدیث آخر نشاهد فیه الاهتمام بذبح القرابین والأضاحی؛ یقول الإمام الصادق (ع): «إنّ رسول الله (ص) ساق فی حجته مائة بدنة، فنحر نیفاً وستین، ثم أعطی علیّاً فنحر نیفاً وثلاثین، فلما قدم النبی (ص) مکة فطاف وسعی، نزل علیه جبرئیل ...». (۱) وقد نقل هذا الحدیث بشکل آخر أیضاً.

۵. إنّ هذه الآیة الشریفة: لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الأَنْعامِ (۲) اعتبرت ذکر الله سبحانه هدفاً إلی جانب المنافع الصوریة والمعنویة للأمة الاسلامیة، وجعلت بدل ذکر اسم القربان، ذکر اسم الله تعالی، وذلک حتی یعلم أنّ الهدف من التضحیة هو تسمیة الله سبحانه، لا مجرد الذبح والنحر، فبدل أن یقول: لیضحّوا، قال: أن یذکروا اسم الله أن رزقهم من الأنعام الحلال کالأغنام، بحیث تبدأ التضحیة باسم الله ویذکر الله أیضاً علی تمام النعم التی قدّمها للناس جمیعاً علی‌امتداد حیاتهم.

۶. لم یذهب سیدالشهداء الإمام الحسین (ع) إلی منی عام ۶۰ ه-، إلّا أنه قدّم أضاحی کثیرة وثمینة، کما قدّم نفسه الشریفة فداء، لکی تبقی مکة ومنی؛ من هنا عرّف الإمام السجاد (ع) نفسه فی الشام بقوله: «أنا ابن مکة ومنی، أنا ابن مروة والصفا». (۳) وعلیه، فمن یقدّم نفسه فداء لله تعالی، فإنه یأخذ یرث من منی وعرفات، لأنّ الأرض قال الله وهو یورثها لمن یرید؛ قال تعالی: إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ یُورِثُها مَنْ یَشاءُ. (۴) کما أنّ أرض الکمال تعود إلیه، ویمکنه أن یورثها من یشاء، وعلی هذا الأساس فإنّ کل شهداء وسالکی طریق الإمام هم وراث عرفات، والمشعر، ومنی، وأسرارها.

حلق شعر الرأس

لشعر الرأس تأثیر کبیر علی الجمال الظاهری للإنسان، ولاسیما الشباب، من هنا یندر أن نجد من یحلق شعر رأسه تماماً، وقد ورد أنّ من یحلق رأس غیره عن إجبار ویسلبه هذا الجمال، فإنّ علیه دیةً واجبة.

ومع ذلک، یجب علی الحاج أن یقطع قلبه عن هذا الجمال الظاهری والصوری الذی یظنه أمراً ذا قیمة، ویقوم بأمر من الوحی الإلهی، بنثره أمام أقدام الجمیل المحض، وطلباً لرضاه.

لقد بلغت صعوبة هذه القضیة مبلغاً بین العرب، أنّ ابن أبی العوجاء- بعد خسارته فی المناظرة التی جرت بینه وبین الإمام الصادق (ع)- سئل عنه، کیف وجدت الإمام الصادق (ع) فی المناظرة؟ فأجاب مشیراً إلی الحجاج فقال: «... هو ابن من حلق رؤوس من ترون!». (۵)

۱- المصدر السابق ۱۶۸: ۸.

۲- الحج: ۲۸.

۳- بحارالأنوار ۱۶۱: ۴۵، وقد تقدّم منا توضیح مفصّل نسبیاً حول علاقة الحج بالولایة فیما مضی من أبحاث فلیراجع.

۴- الأعراف: ۱۲۸.

۵- بحارالأنوار ۲۱۰: ۱۰.

ص: ۳۰

إنّ حلق شعر الرأس فی منی إشارة إلی التطهّر من تمام التلوثات الأخلاقیه، والتنطف من صدأ الروح، والخروج من ثقل الذنوب وظلمتها. (۱) ولعلّه لذلک یدعو الحاج ربّه، فیقول عند الحلق: «أللهم أعطنی بکل شعرة نوراً یوم القیامة». (۲) استحباب دفن شعر الحاج فی منی

من وجب علیه فی الحج الحلق أو التقصیر، لزمه- إضافة إلی مراعاة ترتیب الأعمال یوم العاشر من ذی الحجة، أی رمی جمرة العقبة، ثم ذبح الهدی، ثم الحلق أو التقصیر- أن یقوم بهذا کله فی أرض منی، ولیس له الحق أن یحلق أو یقصّر عمداً خارج منی، لکنه لو نسی وکان عوده إلی منی عسیراً، أجزاه الحلق أو التقصیر خارجها.

إنّ أرض منی أکثر الأمکنة مناسبةً لدفن شعر الحاج، لیس فقط من باب عدم سلامة إخراج الشعر من منی عند الحلق فیها، بل حتی لو حلق خارج منی لزمه العود إلیها لدفن الشعر، أو إرساله کی یدفن هناک.

یقول الإمام الصادق (ع): «إنّ المؤمن إذا حلق رأسه بمنی ثم دفنه، جاء یوم القیامة وکل شعرة لها لسان طلق تلبی باسم صاحبه». (۳) فعندما یقال إنّ شعری یشهد بالتوحید، فإنّ هذا القول مأخوذ من الروایات. (۴) نهایة الحج، الدخول والخروج الصادق

کما کان الله تعالی مبدأ عالم الوجود و منتهاه هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ، (۵) کذلک مبدأ انطلاق کل الموجودات من الله وخاتمتها وأعمالها بالرجوع إلیه إِنَّا لِلهِ وَ إِنَّا إِلَیْهِ راجِعُونَ، (۶) أَلا إِلَی اللهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ. (۷) بناءاً علیه، لزم أن یبدأ کل موحّد عمله وأی عمل، باسم الله تعالی، و تکون خاتمة عمله ذکره سبحانه، ولا یشرع بعمل دون اسم الله، ولا یخرج من أی عمل دون ذکر الله، إنّ معنی اسم الله، و ذکره فی بدایة ونهایة أی عمل، هو حضور الاعتقاد التوحیدی فی بنیة عمله، والانتباه إلی الحضور الإلهی فی أعماله ومستویاتها.

۱- أنظر حدیث الشبلی المتقدم سابقاً.

۲- وسائل الشیعة ۱۹۰: ۱۰.

۳- وسائل الشیعة ۱۸۴: ۱۰.

۴- بحارالأنوار ۱۳۹: ۴۵، و ۲۰۹: ۹۴.

۵- الحدید: ۳.

۶- البقرة: ۱۵۶.

۷- الشوری: ۵۳.

ص: ۳۱

ومن أهم هـذه الأمور الحـج؛ لأنّ بـدايته والدخول فيه يكون بالإحرام والتلبية، وعلى أساس التوحيد وصدق النية، كما أنّ الخروج منه، وإتمام الحج، ووداع الكعبة، يقوم على أساس التوحيد وصدق الإرادة. (۱) من هنا يقول الإمام الرضا (ع) عند وداع الكعبة: «أللهم إنى أنقلب على أن لاـ إله إلّا أنت»؛ (۲) أى إنى يـا إلهى أنهى عملى، وأعود مجـدداً أن مكـة على أساس التوحيـد ونفى مختلف أشـكال الطواغيت.

وعلى هـذا المحور العام يقول الإمام الباقر (ع) فى حـديثه عن الدخول فى الكعبة، وهو المصداق الكامل فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ، (۳) يقول (ع): «الـدخول فيهـا دخول فى رحمـة الله، والخروج منهـا خروج من الـذنوب». (۴) ومن آداب وداع الكعبـة الدعاء والتضـرّع لله سبحـانه؛ يقول الإمـام الصـادق (ع): «أللهم اقلبنى مفلحـاً منجحـاً مسـتجاباً لى بأفضـل مايرجع به أحـد من وفـدك من المغفرة والبركة والرضوان والعافيـة مما يسـعنى أن أطلب ..». (۵) ومن الآـداب الأـخرى، أن يضع الحاج أو الزائر يـده على الكعبـة عنـد آخر لقاء معها ويقول: «المسكين على بابك، فتصدّق عليه بالجنّة». (۶) الحج المقبول

يقول الرسول الأـكرم (ص) فى بيانه لمعيار الحـج المقبول: «من علامـة قبول الحـج، إذا رجع الرجل عما كان عليه من المعاصـى، هـذا علامـة قبول الحـج، وإن رجع من الحـج، ثم انهمك فيما كان عليه من زنا، أو خيانة، أو معصـية، فقد ردّ عليه حجّه». (۷) و «آية قبول الحـج ترك ما كان عليه العبـد مقيماً من الذنوب». (۸) إنّ هذا ما يشـير إلى سـرّ آخر فى الحج، لأنّ أسـرار العبادات تظهر فى القيامة، وهى اليوم الـذى تظهر فيه بواطن الأفراد وأعمالهم. (۹) وفى ذلك اليوم لايرى الإنسان نتائـج عمله فحسب، بل أسـباب ردّها أو قبولها أيضاً.

وبناءاً عليه، فمن تمكّن فى الـدنيا أن يفهم قبول حجّه أو نكوله، فقـد بلغ زاويـةً من زوايا أسـرار الحـج، وتلقائياً سوف يـدرس أسـباب القبول أو الردّ حينئذٍ.

۱- الإسراء: ۸۰.

۲- وسائل الشيعة ۲۳۲: ۱۰.

۳- البقرة: ۱۱۵.

۴- وسائل الشيعة ۳۷۰: ۹.

۵- المصدر السابق ۲۳۱: ۱۰- ۲۳۳.

۶- المصدر السابق.

۷- مستدرک الوسائل ۱۶۵: ۱۰- ۱۶۶.

۸- المصدر السابق: ۱۶۶.

۹- الطارق: ۹.

ص: ۳۲

إنّ المعيار الذى قدّمه كلام رسول الله (ص) حول علامات الحج المقبول، يتحقق فى سائر العبادات أيضاً، تماماً كما يقول الله تعالى حول الصلاة: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ، (۱) فحقيقة الصلاة لها أثر تكوينى فى المصلّى، بحيث تؤدى إلى إيجاد تحوّلات وتعديلات فى دوافعه، و إراداته، ورغباته، وقراراته، وعزمه و ... فهو بالنسبة إلى الخير عازم ومصمم، وبالنسبة إلى الشرّ كاره ومستقذر يختار الابتعاد عنه.

إنّ الأحاديث المتقدّمة تبيّن لنا أنّ روح الحج وحقيقته أمر تكوينى، و هى التى تحول دون عزم الحاج أو إرادته مالا يليق ولا ينبغى.

وخلاصة القول: الحاج يتطهّر بالقيام بأعمال الحج من كل ألوان التلوّث، ومادام لا يلوّث بذنب أو قذاره فهو نورانى، كما يقول الإمام الصادق (ع): «الحاج لا يزال عليه نور الحج ما لم يلمَّ بذنب». (۲) إنّ مشاهدة هذه النورانية تجعل الحاج آملًا بقبول حجّه من الله تعالى.

ارشادات النبى (ص) فى حجة الوداع

وختاماً يعلّمنا كلمات نورانية لخاتم النبيين (ص) فى حجةالوداع، حول نظام الحج وأسراره. (۳) خاتم الأنبياء (ص) إنسان كامل يتحلّى بالكمالات الظاهرة، والمقامات المعنوية، من هنا قال فى تعليمه أحكام الحج الفقهية والعملية: «خذوا عنى مناسككم»؛ (۴) تماماً كما قال حول تعليم أحكام الصلاة: «صلّوا كما رأيتمونى أصلّى». (۵) تحدث رسول الله (ص) حول تعليم أسرار الحج وبيان بعض زواياه فى حجةالوداع، و ذكر بعض التوجيهات، ومنها:

۱. تهذيب النفس وتزكية الروح فى المحاور الثلاثة: التوحيد، الارتباط بالإمام، والاتحاد والاتفاق وحفظ الانسجام العام بين المؤمنين، قال (ص): «ثلاث لايغل عليهنّ قلب امْرِءٍ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم». (۶) وعليه، فالحاج يعبد الله سبحانه، مع إخلاص العمل الكامل الذى لاتشوبه شائبة فى الدين، وينصح أئمته وقادته، ويريد الخير لهم، ويلزم المجتمع الإسلامية.

۱- العنكبوت: ۴۵.

۲- وسائل الشيعة ۶۸: ۸، ۳۲۸.

۳- حج رسول الله ۹ فى حياته ۲۱ مرة، كانت واحدة منها فقط بعد الهجرة، ورغم أنه فى ذىالقعدة من العام السادس والسابع والثامن بعد الهجرة قد اعتمر، عمرة الحديبية فى العام السادس، وعمرة القضاء فى العام السابع كما اشتهرت التسمية، إلّا أنه ۹ بعد الهجرة لم تتسنّ له فريضة الحج إلّا مرة واحدة فى العام العاشر للهجرة، وهى المعروفة بحجة الوداع، وأحياناً تسمى حجةالإسلام وحجة البلاغ، وقد تحدّثت النصوص الحديثية عن هذه الحجة، واعتبرت أساساً لأعمال الحج عند المسلمين. أنظر الكافى ۲۴۴ : ۴ - ۲۵۲؛ وبحارالأنوار ۳۷۸: ۲۱- ۴۰۷.

۴- عوالى اللئالى ۲۱۵: ۱.

۵- المصدر السابق: ۱۹۷.

۶- الكافى ۴۰۳: ۱ - ۴۰۴، والجملة الأخيرة جاءت فى تاريخ اليعقوبى ۱۰۹: ۲، على الشكل التالى: «والنصيحة لأئمة الحق واللزوم لجماعة المؤمنين» وقد جاءت هذه الخطبة فى حجةالوداع فى مسجد الخيف فى منى.

ص: ۳۳

۲. إقامة الأمن على مختلف الصعد، وحفظ أموال الناس ودمائها من الاعتداء، قال (ص): «فإن الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم ... واتقوا الله، و لاتبخسوا الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها». (۱) وعليه، فعلى الحاج أن يكون أميناً على أعراض الناس وأسرارها، فإنّ قلوب الأحرار كنوز الأسرار.

۳. حفظ مبدأ المساواة الشخصية والعرقية، قال (ص): «الناس فى الإسلام سواء ... لافُضّل عربيٌّ على عجمى ولا عجمى على عربى إلّا بتقوى الله»، فالحاج قاصد لمساواة الخلق، و لايرى نفسه خيراً منهم، ولا قومه خيراً من الآخرين، بل يساوى بين الناس والأمم والشعوب.

۴. تطهير المجتمع الإسلامى وتصفيته عن العادات الجاهلية فى قضايا المال والدم والبغض والحقد والضغينة، بمعنى أنّ الدماء التى كانت تراق فى الجاهلية على قانون الانتقام والثأر والأحقاد قد انتهت، وتهاوى الربا الذى يمثل امتصاصاً اقتصادياً لدماء الناس، قال (ص): «كل دم كان فى الجاهلية موضوع تحت قدمى ... وكل رباً كان فى الجاهلية موضوع تحت قدمى، و أول رباً أضعه ربا العباس بن عبدالمطلب».

۵. رعاية حقوق المرأة، حسن التعامل معها، ومجازاتهن بالعدل، قال (ص): «أوصيكم بالنساء خيراً ... ولكم عليهنّ حق، ولهنّ عليكم حق، كسوتهنّ، ورزقهنّ بالمعروف».

وعليه، فالحاج ناظر مراقب لمراعاة الآيات القرآنية الشريفة: وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً (۲)، هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ (۳)، و وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ. (۴) ۶. احترام حقوق العمال والعبيد، ورفع حاجاتهم فى المأكل، والمشرب، والملبس، مثلكم؛ «فأوصيكم بمن ملكت أيمانكم، فأطعموهم مما تأكلون، و ألبسوهم مما تلبسون».

فالحاج يحبّ العاملين عنده، و لايرى نفسه أرفع منهم، بل يجلس معهم على سفرة واحدة، ويلبسهم مما يلبس.

(ع). مراعاة أصول الأخوة، والفضائل الأخلاقية مع الأخوة فى الدين، والمحافظة على مكانتهم، و ماء وجههم، وعلى أموالهم، ودمائهم؛ قال (ص): «إنّ المسلم أخو المسلم، لا يغشّه، ولا يخونه، ولا يغتابه، ولا يحلّ له دمه، و لاشىء من ماله، الّا بطيبة نفسه».

إنّ الحاج يراعى مع أخيه المسلم قواعد الأخوة الدينية، فهو طاهر و لايقصد إلّا ما هو طاهر نقى.

۸. تكريم القرآن، وأهل بيت النبوة والإمامة، وكسب الإلهام منهما، و عدم الانفصال عنهما: «إنى قد خلّفت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتى أهل بيتى».

فالحاج يتمسك بحبل الله، ومن تمسّك بهذا الحبل نال الهداية. (۵)

۱- تاريخ اليعقوبى ۱۰۹: ۲- ۱۱۲، إنّ ما سننقله بعد الآن من كلمات، هو جزء من خطبة أخرى للرسول ۹ فى حجة الوداع، وما ذكرناه أعلاه ذكره اليعقوبى فى الخطبة التى ألقيت عند بئر زمزم، وقد جاءت هذه الخطبة عينها بنص مختصر، وبعض الاختلاف فى العبارات بوصفها خطبة للنبى فى عرفات أو منى، فى مصادر أخرى. أنظر: الكافى ۲۷۳: ۷- ۲۷۵؛ وبحارالأنوار ۳۸۰: ۲۱، ۴۰۵، و ۱۱۳: ۳۷، و ۳۴۹: ۷۳.

۲- الروم: ۲۱.

۳- البقرة: ۱۸۷.

۴- البقرة: ۲۲۸.

۵- آل عمران: ۱۰۱.

ص: ۳۴

۹. أن يعتبر الجميع مسؤولين أمام القانون الإلهى، ويدافع عن أحكام الإسلام، ويبلّغ ما رآه فى مشهد الحج، وزيارة الكعبة لغيره، قال (ص): «إنكم مسؤولون، فليبلّغ الشاهد منكم الغائب».

فالحاج فقيه لمن لم يحضر من المسلمين المشاهد والمواقف، ولم يدركوا الحرمين، وما فيهما من لقاءات وتجمّعات.

۱۰. طرح ولايهٔ أميرالمؤمنين علىبن أبىطالب (ع) وتعريف الأمهٔ بإمامها، واعتبار إطاعته كطاعهٔ النبى (ص)، وفى نهايهٔ المطاف إيجاد حياهٔ إسلاميهٔ معقولهٔ، والنجاهٔ من حياهٔ الجاهليهٔ.

عندما رجع الرسول (ص) إلى المدينهٔ، قال فى غديرخم: «من كنت مولاه فعلىّ مولاه، أللهم وال من والاه، وعاد من عاداه». (۱) فبوصول الإمام على (ع) إلى هذا المقام، تمت النعمهٔ وكمل الدين. (۲) إتمام الحج والعمرهٔ بالزيارهٔ

ثمهٔ فى «إتمام الحج والعمرهٔ» المأمور به فى الآيهٔ الشريفهٔ وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَهَ لِلهِ (۳) أبحاث فقهيهٔ حول دلالتها على تحصيل الأجزاء والشرائط، وتجنب الموانع، كما جاء فى بعض الروايات أنّ تشرّف الحاج بزيارهٔ الإمام المعصوم (ع) هو من مصاديق إتمام الحج.

ومن الطبيعى أنه ليس المراد من الزيارهٔ المدعوّ إليها فى الحج هو زيارهٔ القبور فقط، وإن كانت هذه الزيارهٔ من حقوق الولايهٔ، وإنما المراد لقاء القائد الإسلامى، والوعى بمراتب الولايهٔ، وعرض النصرهٔ عليه، تماماً كما أنّ الهدف من الحضور إلى قبره هو السلام عليه، والدعاء والتضرّع بمحضر الله المتعال سبحانه.

وهذه بعض الروايات الواردهٔ فى هذا المجال:

۱. يقول الإمام الباقر (ع): «إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا ويخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم». (۴)

۲. يقول الإمام الباقر (ع): «تمام الحج لقاء الإمام». (۵) أى أنه المصداق البارز لإتمام الحج، فالحج بدون لقاء الإمام غير تام.

۱- تاريخ اليعقوبى ۱۱۲: ۲، والكافى ۲۹۵: ۱.

۲- المائدهٔ: ۳.

۳- البقرهٔ: ۱۹۶. والإتمام تارهٔ يكون بلحاظ الامتداد الزمانى، مثل الإتمام المأموربه فى قوله‌تعالى: ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ البقرهٔ: ۱۸۷، وأخرى بلحاظ رعايهٔ تمام الشروط والقيام بتمام الأجزاء وتجنب تمام الموانع المانعهٔ عن الفعل المأموربه، وهذا مثل قوله‌تعالى: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَهَ لِلهِ، وعلى هذا الأساس فإتمام الحج هو الإحرام فى المواقيت المعينهٔ وسائل الشيعهٔ ۲۳۴: ۸، ۲۴۱- ۲۴۳، وقد اعتبر لقاء الإمام المعصوم ۷ من المصاديق الباطنيهٔ لإتمام الحج، كما اعتبرت مراعاهٔ التقوى الإلهيهٔ وتجنب اللغو واللهو من مصاديقه أيضاً، وفى هذا يقول الإمام الصادق ۷: «إتمامها أن لارفث ولافسوق ولاجدال فى الحج» وسائل الشيعهٔ ۱۱۰: ۹ وهذا معنى أنّ الآيهٔ اللاحقهٔ لهذه الآيهٔ هى المبينهٔ للمراد من الإتمام، كما قال ۷ فى روايهٔ أخرى حول ذلك: «إذا أحرمت فعليك بتقوى الله وذكر الله كثيراً وقلّهٔ الكلام إلّا بخير، فإنّ من تمام الحج والعمرهٔ أن يحفظ المرء لسانه إلّا من خير». الكافى ۳۳۸: ۴.

۴- الكافى ۵۴۹: ۴.

۵- المصدر السابق.

ص: ۳۵

۳. ويفسّر الإمام الصادق (ع) ظاهر الآية الشريفة: (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ). (۱) بتقصير شعر الشارب، وقصّ الأظفار وأمثال ذلك، لكنه يذكر أن باطنها (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ)، هو لقاء الإمام، كما أنّ (وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) هو القيام بمناسك الحج. (۲) فعلى أساس هذا الحديث يكون ظاهر الآية إصلاح البدن، أما باطنها فإصلاح الباطن بلقاء الإمام (ع).

فضيلة التشرّف بزيارة المدينة بعد الحج

يستفيد الحاج لأداء مناسك الحج والعمرة عن طريق المدينة إلى مكة، أنه يكسب فضيلة الإحرام من مسجد الشجرة، وهو المكان الذى أحرم منه رسول‌الله (ص)، أما الذين يتوجهون إلى المدينه بعد الحج، فإنهم يكسبون فضيلة أخرى وردت فى الروايات، فقد سئل الإمام الباقر (ع) عن جعل مكة أو المدينة بدء سفر الحج؟ فقال: «إبدء بمكة واختم بالمدينة، فإنه أفضل»، (۳) وفى حديث آخر قال (ع): «ابدؤوا بمكة واختموا بنا». (۴) طبقاً لبعض الروايات، (۵) وللكثير من المنقولات الآتية من المشاهدات فى زمن الغيبة، إنّ حضور إمام الزمان (أرواحنا فداه) فى موسم الحج ومراسمه كل عام أمر مسلّم، لكن حيث إنّ التشرّف بلقائه (ع) لايكون إلّا نصيب الأوحدى من الناس، لذا ورد فى روايات متعدّدة، الأمر بزيارة قبور أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام)، وعرض مظاهر الأدب والمحبّة بين أيديهم وفى محضرهم. (۶) الزيارة حضور فى مقام الإنسان الكامل

لأهل بيت العصمة والطهارة:- من حيث كونهم الإنسان الكامل ومظهر الإسم الأعظم الإلهى- مزايا وجودية خاصة تستدعى حقوقاً واستحقاقات خاصّة أيضاً.

وللتعرّف على وظائف الآخرين تجاه هذه الذوات المقدّسة، من اللازم الإشارة إلى بعض خصائصهم حتى يتسنى العلم بواجب الآخرين تجاههم، أى العلم بمقامهم.

۱. أهل بيت الوحى: هم الجامعون للكلام التكوينى والتدوينى، والواجدون لكتاب الحقيقة والشريعة، الشاملون لنشأتى الحقيقة والاعتبار ويقصد بجامعيتهم العلمية والعينية أنهم حائزون على كل كمال ممكن بلانقص، وأنّ كل ما عندهم مصون من العيب، وكل ما عندهم فى مرحلة الحدوث فهو عندهم فى مرحلة البقاء أيضاً.

۱- الحج: ۲۹.

۲- الكافى ۵۴۹: ۴.

۳- المصدر السابق.

۴- المصدر السابق.

۵- الكافى ۳۳۷: ۱؛ من لايحضره الفقيه ۵۲۰: ۲.

۶- وسائل الشيعة ۲۵۱: ۱۰- ۴۵۵.

ص: ۳۶

۲. لاسبیل لمعرفة الإنسان الکامل إلّا بصیرورة الإنسان کاملًا، وعلیه، فلا یمکن إدراک کنه ذواتهم النوریة لغیرهم، لا بالعلم الحضوری والمعرفة العرفانیة الشهودیة، ولا بالعلم الحصولی والمعرفة الحکمیة الفلسفیة، هم الکاملون و مظهرو الله الذی قیل فیه: «لا یدرکه بُعد الهمم ولا ـ یناله غوص الفطن». (۱) وبعد اتضاح أنّ إدراک مقام الإنسان الکامل غیر مقدور لغیره، نأتی للحدیث عن وظیفة الآخرین تجاهه، فوظیفة المجتمع الإنسانی أن یدرک بعقله حقانیة أهل بیت العصمة (علیهم السلام)، وبقلبه محبتهم، ویحیی بجسمه وروحه ذکرهم و إسمهم، کالعطشان الذی یبلغ الکوثر الزلال، فیبرّد کبده الحرّی به، ویقرّ عینه، ویبعث الحیاة فی قواه المتهالکة، فیبعث النشاط فی نفسه، ویرطب فمه الجاف «وبینکم عترة نبیکم وهم أزمة الحق وأعلام الدین وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهیم العطاش». (۲) ویمکن شرح وظائف المجتمع الإنسانی بکلمات الإمام الهادی (ع) النیرة فی الزیارة الجامعة الکبیرة حیث یقول: «أشرقت الأرض بنورکم وفاز الفائزون بولایتکم، بکم یسلک إلی الرضوان، وعلی من جحد ولایتکم غضب الرحمن». (۳) ۳. الإنسان الکامل خلیفة الله، والمظهر التام لبسیط الحقیقة، وهو الآیة الکبری ل-: لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ (۴) من هنا لا یکون فی کل عصر أکثر من خلیفة مطلق واحد، وهو شخص واحد جامع لکافة الشؤون الکمالیة.

۴. جاء عن رسول الله (ص): «نحن أهل بیتٍ لا یقاس بنا أحد». (۵) وهو ما ذکره أمیرالمؤمنین (ع) بعبارة أخری حیث قال: «لایقاس بآل محمد (ص) من هذه الأمة أحد، ولا یُسَوّی بهم من جرت نعمتهم علیه أبداً؛ هم أساس الدین وعماد الیقین. إلیهم یفیء الغالی، وبهم یُلحق التالی، ولهم خصائص حق الولایة، وفیهم الوصیة والوراثة». (۶) أی لا ـ یمکن أن یقارن أو یقاس إنسان عادی بأهل بیت العصمة والطهارة (علیهم السلام)؛ لأنّ الخلفاء الواقعیین والإنسان الکامل یقاسون ببعضهم، ولیس بسائر الناس.

إنّ أهل بیت الوحی (علیهم السلام) هم مجاری النعم وأولیاؤها، ولا یقاس المتنعِّم أبداً مع مجاری النعمة وأولیائها، إنّ هذه الذوات النورانیة هی مظهر للأسماء الحسنی الإلهیة، والذات الإلهیة الأقدس لاتقاسّ بأی شخص آخر ... «ولایدرک بالحواس، ولا یقاس بالناس ...». (۷)

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۱، الفقرة: ۱- ۲.

۲- المصدر السابق، الخطبة: ۸۷، الفقرة: ۱۴- ۱۵.

۳- مفاتیح الجنان.

۴- الشوری: ۱۱.

۵- بحارالأنوار ۴۴: ۶۵.

۶- نهج البلاغة، الخطبة: ۲، الفقرة: ۱۲- ۱۴.

۷- المصدر السابق، الخطبة: ۱۸۲، الفقرة ۱۴- ۱۵.

ص: ۳۷

وعليه، فلا يقاس أهل بيت العصمة و الطهارة بأحد أبداً، و هم بمثابة ليلة القدر فى الزمان، والكعبة فى المكان.

۵. من أفضل وسائل التقرّب إلى الله، مما أمر به و بابتغائه و الاعتصام به، هو ذكر مناقب آل طه وياسين، والشعور بالسرور فى مواليدهم، والاحساس بالهمم والألم فى ذكرى مصائبهم، لأنّ الارتباط العقلى والعاطفة بهذه الذوات النورية- وهى إنسان كامل- يعدّ أساساً للانتفاع بمعارف القرآن، والاستفادة بسنّة المعصومين (عليهم السلام)، تماماً كما يتوفر التعهّد الإلهى فى ظلّ الارتباط بخليفة الله تعالى.

يقول الإمام على بن موسى الرضا (ع): «إنّ لكل إمام عهداً فى عنق أوليائه وشيعته، وإنّ من تمام الوفاء بالعهد وحُسن الأداء زيارة قبورهم؛ فمن زارهم رغبةً فى زيارتهم، وتصديقاً بما رغبوا فيه، كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة». (۱) الزيارة مظهر المحبة

الزيارة هى حضور المحبة فى محضر المحبوب، وابراز المودّة والمحبّة لقادة الدين هو إظهار للتواضع أمام الدين وأعلام الإيمان والدين، وذلك:

أولًا: ليس الدين سوى المحبة. (۲) ثانياً: حب محبوب الله هو حبٌّ لله تعالى، والزيارة مظهر من مظاهر المحبة.

يضاف إلى ذلك، من يحبّ مظهر المحبة الإلهية الكاملة وحبيب الله تعالى، أى رسول الله (ص)، فهو يطيعه، وإطاعة محور المحبة الإلهية هذا، يدفع الإنسان للتسامى، ومحبة الله تعالى له؛ قال سبحانه: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ (۳) وهناك روايات كثيرة حول محبة النبى (ص) وعترته الطاهرين (عليهم السلام) نكتفى هنا بنقل أنموذجين منها:

۱. يقول أنس بن مالك: جاء رجل من أهل البادية- وكان يعجبنا أن يأتى الرجل من أهل البادية يسأل النبى (ص)- فقال: يا رسول الله! متى قيام الساعة؟ فحضرت الصلاة، فلما قضى صلاته، قال (ص): «أين السائل عن الساعة؟» قال: أنا يا رسول الله، قال: «من أعددت لها؟» قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل: صلاة ولا صوم، إلّا أنى أحبّ الله ورسوله، فقال له النبى (ص): «المرء مع من أحبّ»، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشىء أشدّ من فرحهم هذا». (۴) ۲. وفى حديث آخر على حدّ سلسلة الذهب، يقول أميرالمؤمنين الإمام على (ع): «جاء رجل من الأنصار إلى النبى (ص) فقال: يا رسول الله! ما أستطيع فراقك، وإنى لأدخل منزلى فأذكرك فأترك ضيعتى، وأقبل حتى أنظر

۱- الكافى ۵۶۷: ۴.

۲- بحارالأنوار ۹۴: ۲۷- ۹۵.

۳- آل عمران: ۳۱.

۴- بحارالأنوار ۱۳: ۱۷.

ص: ۳۸

إليك حباً لك، فـذكرت إذا كان يوم القيامة، و أدخلت الجنة، فرفعت فى أعلى علّيين، فكيف لى بك يا نبى الله؟ فنزل: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِکَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِکَ رَفِيقاً (۱) فدعا النبى (ص) الرجل فقرأها عليه وبشره بذلک». (۲) الجدير بالذكر- كما أشرنا مطلع هذا الفصل- أنّ زيارة قبور أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) مظهر للمحبة، وجانب من وظائف المؤمنين فى حقّ هذه الأسرة، ومن الطبيعى أنّ المؤمنين ينتفعون بهذا العمل ويستفيدون منه، قال سبحانه: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى، (۳) (قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ). (۴) أدب الحضور

بيّن الله سبحانه أنّ من شرط الدخول على النبى (ص) أخذ الإذن منه والدعوة، قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ... إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ... (۵) وينهى الله تعالى المتشرّفين بمحضر رسول الله (ص) عن أعمال وأقوال وأفكار تؤذى النبى (ص): وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ (۶) لأنّ مجلسه (ص) مجلس علم وحكمة وليس محفلًا للّهو والأنس، وسوف يأتى مزيد توضيح لهذه الآية إن شاء الله.

لقد دعا القرآن الكريم المؤمنين إلى مراعاة أدب الحضور عند النبى الأكرم (ص) إنه يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ، (۷) وهذه التصرفات تستدعى إحباط الأعمال ومحوها: وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۸) فى المقابل، يعد مراعاة قواعد الأدب هذه علامةً على التقوى القلبى، والغفران الإلهى، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِکَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۹) أما من لا يراعى الأدب معه (ص)، ويتكلمون معه بصوت مرتفع، فهو ممن لاعقل لهم: إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَکَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۱۰)

۱- النساء: ۶۹.

۲- بحارالأنوار ۱۸۸: ۸.

۳- الشورى: ۲۳.

۴- سبأ: ۴۷.

۵- الأحزاب: ۵۳.

۶- الأحزاب: ۵۳.

۷- الحجرات: ۲.

۸- الحجرات: ۲.

۹- الحجرات: ۳.

۱۰- الحجرات: ۴.

ص: ۳۹

وعلى أساس هذه الآيات، وآيات أخرى مثل: إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً* لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ (۱) يكون تجليل النبى (ص) بوصفه شعاراً إسلامياً، وظيفةً حيةً تستمر فى حياته وبعد وفاته، لأنّ مقام الرسالة حى على الدوام، فاليوم عندما يتشرف الزوار بزيارة حرمه المطهر، يلزمهم أيضاً مراعاة أدب الحضور.

الجدير بالذكر أنّ ما قلناه حول مراعاة حرمة وأدب اللقاء بمحضر رسول‌الله (ص) ومرقده وحرمه، يجرى أيضاً فى حقّ خلفائه المعصومين وذريته الطّيّبين، على ما له (ص) من كرامة خاصة وحرمة.

ضيافة النبى (ص)

ثمة آيات فى القرآن الكريم تبيّن آداب التشرّف بالحضور عند رسول‌الله (ص)، وكيفية مناداته، والتحدّث إليه وأمثال ذلك، إنّ مراعاة آداب التشرف، والحضور هذه، لها دور فاعل فى الاستفادة من المواهب والعنايات الخاصّة.

يستفاد من الآية الشريفة: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ...). (۲) عدة أمور:

أولًا: يسمح للمؤمنين فقط بضيافة الرسول الأكرم (ص)؛ لأنّ الخطاب هنا كان موجهاً إلى أهل الإيمان.

ثانياً: يجب أن يكون هذا الحضور عن استئذان مسبق من قبل الضيف أو الزائر، بأن يكون بإذن من المضيف أو دعوة، لهذا جاء: إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ... وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ...، وفى هذه الحالة سيكون الإطعام إطعام النبوى، قال سبحانه: فَإِذا طَعِمْتُمْ ... إنّ هذا الإطعام كما يمكن أن يكون ظاهرياً ومادياً، كذلك يمكن أن يكون باطنياً ومعنوياً، أى من غذاء الروح لا الجسد، تماماً كما يقول الإمام الصادق فى ذيل قوله تعالى: فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (۳): «علمه الذى يأخذه عمّن يأخذه». (۴) إنّ الله يتحدث عن شروط الاستفادة من التغذية العلمية والمعنوية للرسول الأكرم (ص): فى محضر النبى لاتجلسوا للمؤانسة، و لاتتحدثوا بكلام فاقد لأى نوع من المعرفة والحكمة، إنّ مجلس النبى مجلس علم وحكمة وليس محفلًا للإنسان، والتلهّى وتمضية الوقت، فإذا أتيتم لكسب المعرفة ونيل الكمالات فلاتتغوّصوا بما يؤذى النبى (ص) .. وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ (۵)

۱- الفتح: ۸- ۹.

۲- الأحزاب: ۵۳.

۳- عبس: ۲۴.

۴- الكافى ۴۹: ۱.

۵- الأحزاب: ۵۳.

ص: ۴۰

إنّ الأكل السيّء، والتخمة، والاستئناس، والمؤانسة، ومجالس الأنس فى الفنادق، ومنازل المسافرين ... ذلك كلّه مانع عن الإحساس بلذة المناجاة والزيارة فى المدينة المنورة، ففى الرواية أنه أتى أبوحجيفة النبى (ص) وهو يتجش، فقال (ص): «اكفف جشاءك، فإنّ أكثر الناس فى الدنيا شَبْعاً أكثرهم جوعاً يوم القيامة». (۱) لابد من الالتفات إلى أنّ الباب والحائط وأمثالهما ليست حاجباً أو مانعاً عن الحضور، وإلّا لم يقل الزائر: «أللهم إنى ... أعلم أنّ رسولك وخلفاءك (عليهم السلام) أحياء عندك يرزقون، يرون مقامى ويسمعون كلامى ويردون سلامى ...». (۲) و «وأشهد أنك تسمع الكلام وتردّ الجواب». (۳) لقد حددّ الله تعالى الغذاء المعدّ لضيوف الرسالة، ومنه صلاة الليل، وهى صلاة خاصة لرسول الله (ص) قال تعالى: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (۴) إنّ الضيوف الحقيقيين للرسول الأكرم (ص) لا يمكن أن يبقوا محرومين من إحياء الليل، فإنّ ضيافة النبى (ص) التهجّد، أما التهجّد فى الليل مع السَّبَح الطويل فى النهار والذى يسلب الإنسان مجال التهجّد فى الليل، فهو أمر غير متناغم ولا منسجم.

إنّ الزوار الحقيقيين ليسوا فقط ضيوفاً بل ورّاث للرسول (ص)، وسهم الورثة ونصيبهم أرفع وأفضل وأكثر من حظ الضيوف، إنه ليبلغ حدّ صلاة الله وملائكته عليهم، قال سبحانه: هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ (۵) وعليه، فإنّ حاصل ضيافة الرسول الأكرم (ص) هو صلوات الله وملائكته على الزوّار الحقيقيين، ونتيجة هذا السلام وهذه التحية الإلهية صيرورتهم نورانيين، والإنسان النورانى لايلحظ ولايرتبط بالظلمة وبالماديات فاقدة القيمة والاعتبار، إنه لايتعلّق بظواهر الدنيا الخادعة؛ فقد قال رسول الله (ص): «ليست الدنيا من محمد ولامن آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة، ما أسقى فيها كافراً شربة ماء». (۶) بيوت الحقّ الرفيعة

يقول الله تعالى- وهو مؤدب أولياءه-: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ. (۷) إنّ البيت فى هذه الآية وبعض الآيات الأخرى لايقتصر على المسكن المتعارف، بل قد يراد عنه بيت النبوة والولاية

۱- بحارالأنوار ۳۳۲: ۶۳.

۲- مفاتيح الجنان، إذن الدخول إلى الحرم والمشاهد المشرفة للأئمة:.

۳- المصدر السابق، زيارة الإمام الحسين ۷ فى النصف من رجب.

۴- الإسراء: ۷۹.

۵- الأحزاب: ۴۳.

۶- بحارالأنوار ۲۰: ۴۳.

۷- الأحزاب: ۵۳.

ص: ۴۱

وأمثالهما، كما قال النبى نوح (ع): رَبِّ اغْفِرْ لِى وَ لِوالِدَىَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً (۱) من ناحية أخرى، لا تقف مصاديق البيوت الواردة فى الآية الشريفة: فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ (۲) عند المساجد وأمثالها، بل تتعدى لمشاهد المعصومين (عليهم السلام)، كما أنه- بالاستعانة مما قدمناه- تشمل مقام الرسالة والولاية والإمامة أيضاً.

ويؤيد ماذكرناه حديث جاء فيه أنّ قتادة جاء إلى الإمام الباقر (ع): ... والله لقد جلست بين يدى الفقهاء وقدام ابن عباس، فما اضطرب قلبى قدام أحد منهم ما اضطرب قد امك. فقال له ابوجعفر (ع): «أتدرى أين أنت؟ أنت بين يدى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ..». (۳) فمقام الرسالة والولاية والإمامة بيت الله الرفيع؛ على هذا، من المناسب للزائرين أن لايدخلوا إلى حرم أئمة البقيع (عليهم السلام) بأحذيتهم، فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (۴) وليس من التجليل لهذه الذوات النورانية أن يرمى الزائر نفسه على القبر، بل من الأدب والاحترام أن يكسب إذن الدخول أولًا عند ما يرد البقيع، ثم يدخله حافياً وبهدوء وترو، وبكل مظاهر التواضع، وعندما تجرى علىلسانه أسماء الحسن بن على المجتبى وعلى بن الحسين السجاد، ومحمد بن على الباقر، وجعفر بن محمد الصادق (عليهم السلام) أو يرى قبورهم يشعر باللذة، ويمكنه أن يقول: «فما أحلى أسماءكم ...». (۵) وما أحلى أثركم وما أشدّ جاذبية قبوركم.

وفى هذه الحال وهذا المقام، إذا أحسّ الإنسان فى نفسه بتغيّر حالته، فعليه أن يعلم بأنّ هؤلاء الأئمة المعصومين (عليهم السلام) قد تركوا- بإذن الله تعالى- أثراً، إن نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* عَلى قَلْبِكَ. (۶) أخذ يتحدّث إلى قلوب الزائرين، إذا شعر الزائر بتغير حاله، فليعلم أنّ هذه الذوات النورانية تتحدث معه، وفى غير هذه الحالة ستكون زيارته بدون روح، ومثل هذه الزيارة وإن لم تعدم الثواب، ألّا أنهّا كعدمها على المستوى الباطنى، وعليه أن يتضرّع إلى الله تعالى كى لايظلّ محروماً من نيل هذا الفيض العظيم.

إنّ قساوة القلب، وجمود العين الناشئين من الميل إلى الدنيا، لايسمحان للإنسان بالإحساس بنور الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، وبسماع كلماتهم، بأذن القلب والروح.

۱- نوح: ۲۸.

۲- النور: ۳۶.

۳- الكافى ۲۵۶: ۶.

۴- طه: ۱۲.

۵- مفاتيح الجنان، الزيارة الجامعة الكبيرة.

۶- الشعراء: ۱۹۳- ۱۹۴.

ص: ۴۲

كيف نحافظ على مكاسب الحج؟

هذا سؤال هام يتساءله الحجاج بعد أداء مناسك الحج.

وفيما يلى الإجابة عن هذا السؤال، إن شاء الله تعالى.

ضيافتان من الله تعالى لعباده

لله تعالى ضيافتان لعباده فى دورة السنة:

الضيافة الأولى فى شهر رمضان.

والضيافة الثانية فى شهر ذى الحجة.

الضيافة الأولى بالصيام.

والضيافة الثانية بالحج.

و ناهيك بهما ضيافتان كريمتان من ربّ العالمين لعباده! و قد ورد التصريح بهاتين الضيافتين فى المصادر الإسلامية بصيغ مختلفة.

فعن ضيافة شهر رمضان، روى الصدوق بسند معتبر عن الرضا (ع) عن آبائه:، عن أميرالمؤمنين (ع) أنّ رسول الله ۹ خطبنا ذات يوم (و فى بعض الروايات فى آخر جمعة من شهر شعبان)، فقال:

«أيها الناس قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالى، وساعاته أفضل الساعات، هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله».

و أمّا عن ضيافة الحج، فقد وردت طائفتان من الأحاديث تصرّح أولاهما بأنّ الحجاج (وفد) الله تعالى، وقد وفدوا إلى الله؛ وتصرح ثانيتهما أنّ الحجاج ضيوف الرحمن.

أمّا عن الطائفة الأولى، فقد روى عن رسول الله (ص): «وفد الله ثلاثةٌ: الغازى، والمعتمر، والحاج». (۱) و عن أميرالمؤمنين (ع): «الحاج والمعتمر وفد الله، وحق على الله أن يكرم وفده، ويحبوه بالمغفره...». (۲) و عن الإمام الحسن (ع): «ثلاثة فى جوار الله تعالى ... رجل خرج حاجاً أو معتمراً، لايخرج الّا لله تعالى، فهو من وفد الله تعالى حتى يرجع إلى أهله». (۳) و عن الإمام زين العابدين على بن الحسين (ع) فى رسالة الحقوق: «وحقّ الحج أن تعلم أنّه وفادة إلى ربّك، وفرار إليه من ذنوبك، وفيه قبول توبتك، وقضاء الفرض الذى أوجبه الله عليك». (۴) وعن الصادق (ع): «الحاج والمعتمر وفد الله، إن سألوه أعطاهم، وإن دعوه أجابهم وإن شفعوا شفعهم، وإن سكتوا ابتدأهم...». (۵)

۱- مستدرک الوسائل ۴۱: ۸، ح ۲۵؛ سنن النسائى ۱۱۳: ۵.

۲- تحف العقول: ۱۲۳؛ الحج والعمرة فى الكتاب والسنة: ۱۵۹- ۱۶۰.

۳- المصدر السابق.

۴- المصدر السابق؛ الفقيه ۶۲۰: ۲.

۵- المصدر السابق؛ الكافى ۲۵۵: ۴ ح ۱۴.

ص: ۴۳

وأمّا عن الطائفة الثانية (ضيافة الله)، فقد روى: «ممّا أوحى الله عزّوجلّ أنا الله ذو بكة، أهله جيرتى، وزوارها وفدى وأضيافى، أعمره بأهل السماء وأهل الأرض، يأتونه أفواجاً شعثاً غبراً، يعجون بالتكبير والتلبية، فمن اعتمره لايريد غيره فقد زارنى، وهو وفد لى، ونزل بى، وحق لى أن أتحفه بكراماتى». (۱) و عن خالد بن ربعى: أنّ أميرالمؤمنين (ع) دخل مكة فى بعض حوائجه فوجد أعرابياً متعلّقا بأستار الكعبة، وهو يقول: يا صاحب البيت، البيت بيتك، والضيف ضيفك، ولكل ضيف من مضيفه قرى، فاجعل قراى منك الليلة المغفرة؛ فقال أميرالمؤمنين (ع) لأصحابه: «أما تسمعون كلام الأعرابى؟ قالوا: نعم. قال: الله أكرم من أن يرد ضيفه». (۲) و عن الإمام الصادق (ع): «إنّ ضيف الله عزّ وجلّ رجل حج واعتمر، فهو ضيف الله حتى يرجع إلى منزله». (۳) و فى الدعاء بعرفة: (أنا ضيفك فاجعل قراى الجنة).

تخصيص شهر رمضان وذى‌الحجة بالضيافة الإلهية

و عباد الله على مائدة رحمة الله فى كلّ وقت من فصول السنة وشهورها وأيامها، ولايَشُذّ أحد من الحضور على مائدة رحمة الله من صالحين وفاسقين ومسلمين وملحدين.

كُلًا نمدُّ هَؤلَاءِ وهَؤلَاءِ مِنْ عَطَاءِ ربِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ ربِّكَ محظُوراً. (۴) ولكنّ الضيافة الإلهية فى هذين الشهرين، شهر رمضان، وشهر ذى الحجة، لحجاج بيت الله خصوصية و ميزة لاتوجد فى غيرهما من حيث العطاء والتكريم الإلهى.

إنّ الضيافة فى هذين الشهرين ليست من قبيل ضيافة الأجسام، وإنما هى من ضيافة القلوب، والمائدة الإلهية المعدّة لضيوف الرحمن فى هذين الشهرين مائدة رحمة وشفاء، وغذاء للقلوب ... وأعظم الموائد الإلهية فى حياة الإنسان بعد نعمة الوجود موائد العقول، وموائد القلوب.

ومصائب الإنسان فى نضوب القلوب والأرواح والنفوس أعظم من معاناته فى فقر غذاء الأجسام، وشحه نتيجة سوء التوزيع لموارد الأرض على عباد الله.

وكلّ منها معاناة وعذاب للإنسان، مهما كان الفقر والعجز، سواء كان فى غذاء الأجسام، أم العقول، أم القلوب.

ولكن مصيبة الإنسان العظمى هو فى نضوب الروافد، التى تروى القلوب وتحييها وتنعشها أعظم من مصيبته فى العجز الاقتصادى والعلمى، وإن كان كلّ من ذلك مصيبة فى حياة الإنسان.

۱- المصدر السابق؛ الخرائج والجرائح ۸۰: ۱.

۲- المصدر السابق؛ أمالى الصدوق: ۵۳۳ ح ۱۱.

۳- المصدر السابق؛ الخصال: ۱۲۷.

۴- الإسراء: ۳۰.

ص: ۴۴

وهـذه المائـدة التى أعدّها الرحمن تعالى لعباده فى شـهر رمضان وذى‌الحجة من نوع موائد القلوب، تحفل بما يحُيى القلوب، ويفعّلها، وينشّـطها ويهبها البصيرة، والنور، والهدايـة، واليقين بالله، والإقبال على الله بالـذكر والـدعاء، والشوق إلى الله، والأنس بذكر الله، وحبّ الله، وحبّ أوليـائه، ومقت أعـدائه، وأعـداء أوليـائه، وترقيق القلوب للإنابـة، والإخبـات والخشوع لله، ومخافـة الله، ورجـاء الله، والتوبـة، والزهـد عن الـدنيا وحطامهـا، وقصـر الأمل فيها، والإقبال على الصـلاة، والإنفاق، وطول السـجود، والبكاء بين يـدى الله، وما لاأستطيع إحصاءه من مواهب الله لعباده فى هذه الضيافة الربانية التى يستضيف الله فيها عباده مرتين فى السنّة.

ومن عجب أنّ الجوع والعطش والكفّ عن الأهواء والشـهوات، والكـدح والبـذل والجهـد والتعبّد فى هاتين الضـيافتين هو السبيل إلى استنزال هذه المواهب العظيمة المباركة من خزائن رحمة الله.

و لله خَزائن السـماواتِ والأرض. (۱) وإنْ مِنْ شَـىْءٍ إلَّا عِنْـدَنَا خَزائِنُهُ وَمَا نُنزلُهُ إلَّا بِقَدَرٍ مَعْلوُمٍ. (۲) ولكلّ امرئ من المسـلمين أن يأخذ من هذه الرحمة الهابطة ما يسـعه وعاء نفسه وقلبه، فإنّ الرحمة الهابطة فى شهر رمضان وشهر ذى الحجة فى الحج ليس لها حدود ... و كلّ منا يأخذ من هذه الرحمة ما يسعه وعاؤه.

المقارنة بين الضيافتين

و بين هـاتين الضـيافتين شـبه كبير وفروق تظهر بالمقارنـة؛ فهمـا معـاً دورتان تمكنان الإنسان من ضـبط النفس والأهواء والشـهوات، و ربيعان للذكر والقرآن والدعاء، ومنزلان من منازل رحمة الله فى وعاء الزمان، ولكلّ منهما قمة:

* قمّـة شـهر رمضان، ليلـة القـدر فى وعاء الزمان، وهى وإن كانت مجهولـةً، غير أنّ إحرازها ضـمن محتملات ليالى القدر ليس بالأمر الصعب.

* و قمّة الحج يوم عرفة بعد الزوال، وفى وادى عرفة فى وعاء الزمان والمكان.

و من لم يـدرك عرفـة فى الحـج المنـدوب، وتعرّف فى الحائر الحسـينى يـدرك ثواب عرفـة إن شاء الله، كما ورد ذلك فى نصوص كثيرة.

و من الفروق البارزة بين هاتين الضـيافتين، أنّ ضـيافة الحج الواجبة مرة واحدة فى العمر، وضـيافة الصـيام فى شهر رمضان فى كل سنة شهر كامل، ولعلّ السرّ فى ذلك- والله أعلم-: أنّ التعبئة النفسية التى

۱- المنافقون: ۷.

۲- الحجر: ۲۱.

ص: ۴۵

يكتسبها الصائم فى صيام شهر رمضان تكفيه لسنة واحدة، وأما التعبئة النفسية التى يكتسبها الإنسان فى الحج، فإنّها تكفيه لرحلة العمر كلّه، إذا حافظ عليها صاحبها، وحرص عليها.

و فيما يلى أذكر نصين نجدهما فى المصادر الروائية المعتبرة فى قيمة كلّ من هاتين الضيافتين، من دون تعليق:

قيمة الضيافة الرمضانية:

ذكرنا قبل قليل شطراً من رواية الصدوق عن الإمام الرضا (ع) عن آبائه (عليهم السلام) عن أميرالمؤمنين (ع) عن رسول‌الله (ص) فى فضل شهر رمضان، وها نحن نذكر شطراً آخر من الرواية؛ والرواية طويلة نذكر منها قدر الحاجة.

«شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب، فاسألوا الله ربّكم بنيّات صادقة، وقلوب طاهرة، أن يوفقكم لصيامه، وتلاوة كتابه، فإنّ الشقى من حرم من غفران الله فى هذا الشهر العظيم».

قيمة الضيافة فى الحج

ورد فى فضل الحج أحاديث كثيرة عن رسول‌الله (ص) لايسعنا أن نذكرها جميعاً أو نذكر شطراً مناسباً منها، وإنّما نقتصر على رواية واحدة عن رسول‌الله (ص) أوردها ثقة الإسلام الكلينى فى الكافى، والشيخ الصدوق فى ثواب الأعمال:

عن الصادق (ع): «لما أفاض رسول‌الله ۹ تلقاه أعرابى فى الأبطح، فقال: يا رسول الله! إنّى خرجت أريد الحج- فعاقنى عائق- وأنا رجل كثير المال، فمرنى أصنع فى مالى ما أبلغ ما بلغ الحاج. فالتفت رسول‌الله ۹ إلى أبى قبيس، فقال: لو أنّ أبا قبيس لك زنته ذهبة حمراء، أنفقته فى سبيل الله ما بلغت ما بلغ الحاج». (۱) و الحج الذى فات هذا الرجل حج مندوب بالتأكيد؛ لأنّ الفريضة الواجبة لايمكن تعويضها بالإنفاق ... ولا شك أنّ الحج الواجب أعظم منزلة وقيمة، ومع ذلك يقول له رسول الله (ص): «لو أنّ أبا قبيس ...» وناهيك بذلك فى قيمة الحج وفضله!

المكاسب الخمسة فى الحج

إنّ أعظم ما يكسبه الحاج فى الحج (التقوى) و (الكدح) و (البذل) و (الذكر) و (الحضور فى منازل رحمة الله الزمانية والمكانية) وهى الأجنحة الخمسة التى يعرج بها العبد من الأنا والهوى إلى الله، وهو المعراج الأعظم فى حياة الإنسان فى الدنيا؛ ففى إحرام العمرة والحج يكفّ المعتمر والحاج نفسه عن طائفة من محرمات الإحرام طيلة فترة الإحرام، فى إحرام العمرة والحج، ومن أهمّها محرمات الغريزة الجنسية (التى تعود إلى عامل

۱- الكافى ۲۵۸: ۴، ثواب الأعمال: ۴۸.

ص: ۴۶

الهوى) ومحرمات الزى والجدال (التى تعود إلى عامل الأنا) والمحرمات الأخرى التى تمكّن الإنسان من التقشف، ومكافحة عامل حبّ الراحة والعافية، وهذه هى القيمة الأولى للحج، وهى (التقوى) و (كفّ النفس).

والقيمة الثانية للحج (الكدح)، ولاشك أنّ (الكدح) إذا كان لله وفى سبيل الله، يحمل قيمة كبيرة؛ وفى العمرة والحج كدح شديد وكثير، من الطواف والسعى والوقوفين والإفاضة والرمى وغيرها، و لاشك أنّ التشريع الإسلامى أخذ حالة (الكدح) بنظر الاعتبار فى العمرة وبصورة خاصة فى الحج، ولانعرف فى التشريعات الإسلامية عبادة تتطلب كدحاً أكثر من الحج إلّا (الجهاد) و هذه هى القيمة الثانية للحج.

والقيمة الثالثة للحج (البذل) ففى الحج بذل عظيم للأموال، كما فيه كدح كثير للأجسام؛ فإنّ نفقات الحج نفقات عالية تتطلب الاستطاعة المالية... ولا نشك أنّ البذل والإنفاق قد أخذ أيضاً بنظر الاعتبار فى تشريع الحج، كما لوحظ عنصر (الكدح والإرهاق).

و القيمة الرابعة للحج: (الذكر) فإنّ الحج يتضمّن ذكراً كثيراً لله، يرافق أعمال الحج، من التلبية إلى الإفاضة إلى البيت الحرام، ومنه إلى عرفة والمزدلفة.

وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ. (۱) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً. (۲) كما أنّ عامة أعمال الحج، والالتزام بترك محرمات الإحرام من الذكر العام، والذكر العام هو المقسم العام للذكر، ومنه يتفرع الذكر الخاص وهو الذكر باللسان.

روى الصدوق فى معانى الأخبار عن حسين البزاز، قال: قال أبوعبدالله (ع): «ألا أحدثك بأشدّ ما فرض الله على خلقه؟ قلت: بلى. قال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله فى كلّ موطن؛ أما إنّى لاأقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله فى موطن إذا هجمت على طاعة أو معصية». (۳) و هذا هو قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ. (۴) وهذا هو الذكر العام، وهو أن يتذكر العبد ربه عندما يقدم على طاعة، أو يقدم على معصية، فيتذكر الله تعالى فيكفّ عنها.

و فى المحاسن عن الصادق (ع) فى الحديث القدسى: «قال الله تعالى: يابن آدم أذكرنى فى نفسك، أذكرك فى نفسى، ابن آدم أذكرنى فى خلاء، أذكرك فى خلاء، أذكرنى فى ملاء أذكرك فى ملاء خير من ملائك». (۵)

۱- البقرة: ۲۰۳.

۲- البقرة: ۲۰۰.

۳- معانى الأخبار: ۱۹۲؛ وسائل الشيعة ۲۵۵: ۱۵.

۴- الأعراف: ۲۰۱.

۵- المحاسن ۳۹: ۱.

ص: ۴۷

وأعمال الحج ومحرماته تتضمّن الذكر العام بهذا المعنى... وما من عمل يؤديه الحاج، أو محرّم يكفّ عنه الحاج، إلّا وهو يتضمّن ذكر الله.

وهـذا الـذكر فى مقابل الغفلـة عن ذكر الله، وغياب النفس عنه، وكلّما تتطلب الطاعـة كدحاً أكثر، وكلّما يتطلب الكفّ عن المحرمات جهداً نفسياً أكثر، يتضمن الطاعة والكفّ ذكراً أكثر وأعظم لله تعالى، وهذا هو القيمة الرابعة للحج.

منازل الرحمة الزمانية والمكانية فى الحج

والقيمة الخامسة للحج، حضور العبد فى منازل رحمة الله الزمانية والمكانية فى الحج، وهو أعظم هذه القيم جميعاً... وهى كثيرة.

منهـا: مواقيت الإحرام والتلبيـة، ومنهـا: البيت الحرام، والطواف، والسـعى، والوقوفان، ومنى، والرمى، والنحر... وأعظمها الوقوف بوادى عرفة، بعد الزوال من يوم التاسع من ذى الحجة، فى أعظم جمهور لضيوف الرحمن على وجه الأرض كلها فى دورة السنة.

وهـذا إجمال لابـدّ له من تفصـيل وتوضـيح، فأقول: إنّ المنازل الزمانيـة والمكانيـة لشـعائر الحـج، من منازل الرحمـة... وهـذان منزلان للرحمة.

المنازل الزمانية مثل يوم عرفة، وليالى التشريق، وعيد الأضحى.

و المنازل المكانية مثل المواقيت، والبيت الحرام، والحطيم، والمسعى، والصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ومنى.

و يضاف إلى هـذين المنزلين، المناسك التى يؤدّيها الحاج، فهى فى حـدّ ذاتها من منازل رحمـة الله، مثل التلبيـة، والإحرام، والطواف، والسعى، والوقوفين، والبيتوتة بمنى، والرمى، والنحر. وهذا هو المنزل الثالث من منازل الرحمة فى الحج.

و المنزل الرابع، الاجتماع العظيم للمؤمنين فى الزمان الواحد، والمكان الواحد.

والـذين يعرفون رقـائق أحكام هـذا الـدين، يعلمون جيّداً أنّ الله تعالى يحبّ اجتماع المؤمنين فى عبادته وطاعته. وتجمّع المؤمنين فى الذكر والدعاء والعبادة وتلاوة القرآن، أقرب إلى الله وإلى رضوانه ورحمته من الأداء الفردى للعبادات.

وقد يكون المجمع الذى يجمع المسلمين فى العبادة الزمان، كما فى صيام شهر رمضان، فإنّ شهر رمضان يجمع الملايين من المسلمين فى العبادة والطاعة من أقاليم شتّى من العالم.

وقـد يكون المجمع الـذى يجمع المسـلمين فى العبـادة والطاعـة المكـان، كمـا فى العمرة، فـإنّ الحرم الشـريف، والبيت الحرام، يجمع عشرات الملايين من المسلمين للعمرة، ولكن فى أوقات مختلفة، وأشهر عديدة من السنّة.

ص: ۴۸

وقد يجمع المسلمين، مكان واحد، وزمان واحد، لأداء الشعيرة العبادية ... و لانعرف لذلك شاهداً من العبادات غير (الحج).

فإنّ الحج يجمع فى كلّ عام عامّة المسلمين المستطيعين للحج فى مكان واحد، وزمان واحد؛ لأداء فريضة الحج ... وهذا من أعظم منازل الرحمة فى حياة الإنسان، و لايشبهه منزل آخر من منازل الرحمة فى حياة الناس، إلّا القتال فى سبيل الله تعالى.

وبذلك تجتمع منازل عديدة للرحمة فى الحج من حيث المواقع المكانية، والزمانية، والمناسك، والشعائر، و الاجتماع المليونى فى مكان واحد وزمان واحد، ... وقمّة ذلك فى وادى عرفة، يوم عرفة.

فإنّ الرحمة الإلهية تصبّ على وادى عرفة، يوم عرفة من غير حساب، وتنزل على ضيوف الرحمن فى سائر شعائر الحج.

وليس فى مقدور الإنسان أن يحصى البركات الربانية التى تنزل على ضيوف الرحمن من جانب الرحمن، فى هذه المنازل التى أعدّها الله تعالى لضيوفه.

فى هذه المنازل تنزل على الحجاج مواهب عظيمة من رحمة الله، تمنحهم البصيرة، والهدى، والنور، والإقبال على الله، والجدّ، والاهتمام، والعزم، واليقين، وحبّ الله، وحبّ أوليائه، وبغض أعداء الله، وأعداء أوليائه، والزهد فى الدنيا وحطامها، والإقبال على الآخرة ونعيمها، وما لا أحصيه من مواهب الله تعالى فى منازل رحمته فى الحج.

باقة الحديث

وإليكم باقة من الحديث الشريف فى منازل الرحمة فى الحج، أرجو أن ينفعنا الله بها.

منزلة الحاج عند الله فى الجنة

ورد فى منزلة الحاج عند الله فى الجنة، إذا أحسن الحج، وأداه لوجه الله، خالصاً فى النّية، وحج من نفقة طيبة محلّلة: أنّ الله تعالى ينزله فى الجنة بجوار النبيين، والشهداء، والصديقين، وحسن أولئك رفيقاً، وناهيك بهذه المنزلة الرفيعة منزلة فى الجنة!

عن أبى عبدالله الصادق (ع) قال: «لما حج موسى (ع)، نزل عليه جبرئيل (ع) فقال له موسى (ع): يا جبرئيل! مالمن حج هذا البيت بنيّة صادقة ونفقة طيّبة؟ فأوحى الله تعالى إليه قل له: أجعله فى الرفيق الأعلى مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً». (۱)

۱- من لايحضره الفقيه ۲: ۲۳۶.

ص: ۴۹

فی ضمان الله

و الحاج فی ضـمان الله تعالی، منذ أن یخرج من بیته، إلی أن یعود إلی بیته، یضـمن له سـعیه ونیّته، أتمّ الحج أو عرض له عارض منعه من إتمام الحج، أو مات فهو مضمون السعی والجهد والعزم.

عن رسول الله (ص): «الحاج فی ضـمان الله عزّوجلّ مقبلًا ومدبراً، فإن أصابه فی سـفره تعب، أو نصب، غفر له بذلک سـیئاته..». (۱) و عن الإمـام الصادق (ع): «الحاج والمعتمر فی ضـمان الله». (۲) و عن الإمـام الصـادق (ع): «ضـمان الحاج المؤمن علی الله، إن مات فی سفره أدخلـه الجنـهٔ، وإن ردّه إلی أهلـه لم یکتب علیه ذنب». (۳) و عن رسول‌الله (ص): «من مـات محرمـاً حشـر ملبیاً». (۴) و عن ابن عبـاس: أنّ رجلًا أوقصـته راحلته، وهو محرم فمات، فقال رسول‌الله (ص): «إغسـلوه بماء وسـدر، وکفنوه فی ثوبیه، ولاتخمروا رأسه، و لاوجهه، فإنه یبعث یوم القیامهٔ ملبیاً». (۵) و عن رسول الله (ص): «من مات فی هذا الوجه (طریق الحج) من حاجّ أو معتمر، لم یعرض، ولم یحاسب، وقیل له: ادخل الجنهٔ». (۶) ثواب الحج الجنهٔ

استفاضت الروایات وفیها الصحاح والحسان، أنّ ثواب الحج الجنهٔ، و لن یکون ثوابه دون الجنّهٔ.

عن رسول‌الله (ص): «لیس للحجـهٔ المبرورهٔ ثواب إلّا الجنـهٔ». (۷) و عن رسول‌الله (ص): «العمرهٔ إلی العمرهٔ کفـارهٔ مـا بینهمـا، والحجهٔ المتقبلهٔ ثوابها الجنهٔ». (۸) و عن رسول‌الله (ص): «ما سـبّح الحاج من تسبیحـهٔ ولاهلّل من تهلیلهٔ ولا کبّر من تکبیرهٔ إلّا بشـر بها (الجنهٔ) تبشیرهٔ». (۹)

۱- کنز العمال ۱۴: ۵، ح ۱۱۸۴۰؛ الحج والعمرهٔ فی الکتاب والسنهٔ: ۱۶۱.

۲- المصدر السابق؛ الکافی ۲۵۶: ۲.

۳- المصدر السابق؛ بحار الأنوار ۴۹: ۹۶.

۴- المصدر السابق؛ کنز العمال ۸: ۵

۵- المصدر السابق؛ مستدرک الوسائل ۱۷۷: ۲.

۶- المصدر السابق؛ الغدیر ۳۳۲: ۵؛ کنز العمال ۱۵: ۵، ح ۱۱۸۴۸.

۷- المصدر السابق؛ کنزالعمال ۱۱۳: ۵، ح ۱۲۲۸۶.

۸- المصدر السابق؛ مستدرک الوسائل ۳۷: ۸.

۹- المصدر السابق؛ الدر المنثور ۲۱۰: ۱.

ص: ۵۰

أفضل الأعمال بعد الجهاد

وليس بعد توحيد الله والجهاد، عمل أفضل من الحج.

سئل رسول الله (ص): أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد فی سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور». (۱) و عن الإمام الصادق (ع): «ما سبيل من سبل الله أفضل من الحج، إلّا رجل يخرج بسيفه فيجاهد فی سبيل الله حتی يستشهد». (۲) الدعاء المستجاب للحجاج

وقد أكرم الله تعالی الحجاج بالدعاء المستجاب، فليسأل ما يشاء، ولايُقَتِّر فی السؤال، فإنّ المسؤول كريم، ومن أقبح اللؤم إذا كان المسؤول كريماً أن يكون السائل بخيلًا شحيحاً، مُقَتِّراً، فی السؤال.

عن رسول‌الله (ص): «الحجاج والعمار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم». (۳) نور الحج

ويترك الحج بصيرة فی القلوب، ونوراً ظاهراً علی الوجوه، هو نور الإيمان، والطاعة، والتقوی، والذكر، ولا يزال هذا النور علی وجوه الحجاج، ما لم يذنبوا ... فإذا أذنبوا ذهب الله بنورهم.

عن الإمام الصادق (ع): «الحاج لايزال عليه نور الحج ما لم يلم بذنب». (۴) خير الدنيا والآخرة

وللحج بركات عظيمة للحجاج فی دنياه وآخرته.

عن رسول‌الله (ص): «من أراد الدنيا والآخرة، فليؤمّ هذا البيت، فما أتاه عبد يسأل الله دنيا إلّا أعطاه منها، و لايسأله آخرة إلّا ادّخر له منها». (۵)

۱- المصدر السابق؛ الدرالمنثور ۲۴۴: ۱.

۲- المصدر السابق؛ مستدرک الوسائل ۱۰: ۸.

۳- الحج والعمرة فی الكتاب والسنة: ۱۶۲؛ الدر المنثور ۱۰: ۱.

۴- الكافی ۲۵۵: ۴.

۵- بحارالأنوار ۵۰: ۹۶.

ص: ۵۱

غفران الذنوب

ولعلّ من أعظم بركات الحج ما تواترت به الروايات، وفيها الروايات الصحيحة: أنّ الله يغفر للحجاج ذنوبهم جميعاً، فإذا عادوا إلى بيوتهم وبلادهم، عادوا كهيئتهم يوم ولدتهم أمهاتهم، قد تحرّروا وتخلّصوا من ذنوبهم جميعاً.

روى المحدث الحرّ العاملى فى موسوعته القيّمة- وسائل الشيعة- عن محمد بن على بن الحسين، قال: روى أنّ «من أعظم الناس ذنباً، من وقف بعرفات، ثمّ ظنّ إنّ الله لم يغفر له». (۱) و روى سفيان بن عيينة عن الإمام الصادق (ع)، قال: «سأل رجل أبى بعد منصرفه من الموقف، فقال: أترى يجيب الله هذا الخلق كلّه؟ فقال أبى: ما وقف بهذا الموقف أحد إلّا غفر الله له، مؤمناً كان أو كافراً، إلّا أنّهم فى مغفرتهم على ثلاث منازل: مؤمن قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر وأعتقه من النّار.. ومنهم من غفر الله ما تقدّم من ذنبه، وقيل له: أحسن فيما بقى من عمرك.. وكافر وقف بهذا الموقف لزينة الحياة الدنيا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه إن تاب من الشرك فيما بقى من عمره..». (۲) و سأل الإمام الصادق (ع) رجل فى المسجد الحرام: مَنْ أعظم الناس وزراً؟ فقال: «من يقف بهذين الموقفين: عرفة والمزدلفة، وسعى بين هذين الجبلين، ثمّ طاف بهذا البيت، وصلّى خلف مقام إبراهيم، ثمّ قال فى نفسه، وظنّ أنّ الله لم يغفر له، فهو من أعظم النّاس وزراً». (۳) عن أبى حمزة الثمالى: قال رجل لعلى بن الحسين (ع): تركت الجهاد وخشونته، ولزمت الحج ولينته؟ قال: وكان متكئاً فجلس، وقال: «ويحك أما بلغك ما قال رسول الله (ص) فى حجة الوداع؟ إنّه لما وقف بعرفة، وهمّت الشمس أن تغيب، فقال رسول‌الله (ص): يا بلال! قل للنّاس فلينصتوا، فلمّا انصتوا، قال: إنّ ربّكم تَطَوّلَ عليكم فى هذا اليوم، وغفر لمحسنكم، وتشفع محسنكم فى مسيئكم، فأفيضوا مغفوراً لكم». (۴) يرجع الحاج كهيئته يوم ولدته أمّه

و قد يكون من أعظم بركات الحج أيضاً، ما تواترت به الروايات، وفيها الروايات الصحيحة: أنّ الله يغفر للحجاج ذنوبهم، حتى إذا عادوا إلى بلادهم، وبيوتهم، رجعوا كهيئتهم يوم ولدتهم أمهاتهم.

عن رسول الله ۹: «حُجّوا، فإنّ الحج يغسل الذنوب، كما يغسل الماء، الدَرَن». (۵) عن رسول الله ۹: «من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمّه». (۶)

۱- وسائل الشيعة ۵۴۷: ۱۳، ح ۱۸۴۰۷.

۲- وسائل الشيعة ۲۱: ۱۰- ۲۲، الباب ۳۸ ح ۸.

۳- المصدر السابق، ح ۵.

۴- الكافى ۲۵۸: ۴.

۵- الحج والعمرة فى الكتاب والسنة: ۱۶۲؛ كنزالعمال ۱۰: ۵ ح ۱۱۸۲۱.

۶- المصدر السابق: ۱۶۳؛ كنز العمال ۷: ۵. ح ۱۱۸۰۸.

ص: ۵۲

و عنه (ص): «من خرج حاجاً يريد وجه الله، فقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وشُفّع فيمن دعا له». (۱) و عنه (ص): «معاشرالناس! ما وقف بالموقف مؤمن إلّا غفر الله له ما سلف من ذنبه إلى وقته ذلك، فإذا انقضت حجته استؤنف عمله». (۲) و عن الإمام الباقر (ع): «من أمّ هذا البيت حاجاً أو معتمراً مبرأ من الكبر، رجع من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمّه». (۳) و عن الإمام الصادق (ع): «من حج يريد به الله، لايريد به رياء ولاسمعة، غفر الله له البتة». (۴) و عن الإمام الصادق (ع): «إنّ العبد ليخرج من بيته، فيعطى قسماً، حتّى إذا أتى المسجد الحرام طاف طواف الفريضة، ثمّ عدل إلى مقام إبراهيم فصلّى ركعتين، فيأتيه ملك فيقوم عن يساره، فإذا انصرف ضرب بيده على كتفيه فيقول: يا هذا، أما ما مضى فقد غفر لك، وأما ما يستقبل فجد». (۵) الرواتب الثلاثة فى العبادات

و يكفى أن نقول فى حجم هذه المواهب والبركات: إنّ المخزون الذى يختزنه العبد فى رحلة الحج يكفيه لرحلة العمر كلّها، إذا حرص وحافظ عليها.

ولابدّ من توضيح لهذه الكلمة، فنقول: إنّ العبادات على نوعين:

النوع الأول: عبادات مرتبات على عمود الزمان بفواصل زمانية متفاوتة كالصلاة وصيام شهر رمضان.

النوع الثانى: عبادات مجعولة حسب الحاجة والضرورة كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد، وإغاثة المؤمنين ونجدتهم.

والنوع الثانى من العبادات، تفرضها الحاجة الموضوعية فى واقع حياة النّاس.

أمّا النوع الأول من العبادات، فهى التى يحتاجها الإنسان فى حركته التكاملية إلى الله ... ولذلك فإنّ الله تعالى يفرضها على النّاس فى كلّ الظروف، مثل الصلاة، والصوم، والحج، وهى التى نقصدها من (الرواتب)، وهى العبادات التى يحتاجها الإنسان لتكامله النفسى، والروحى، والعقلى، بغضّ النظر عن أية ظروف موضوعية وفى كلّ الظروف، وهى على أقسام حسب حاجة الإنسان إليها.

فمن الرواتب ما يحتاجه الإنسان فى كلّ يوم عدّة مرات، وهى الصلاة، فهى حاجة مستمرّة متصلة يحتاجها الإنسان فى نموّه وتكامله وحركته إلى الله ... وإذا انقطع الإنسان عنها توقف نموّه وتكامله؛ وتوقّف الإنسان عن حركة التكامل، بمعنى التراجع، و لايسعنا الآن شرح هذه النقطة.

۱- المصدر السابق؛ حلية الأولياء ۲۳۵: ۷.

۲- المصدر السابق؛ عن روضة الواعظين.

۳- المصدر السابق: ۱۶۴؛ الكافى ۲۵۲: ۴.

۴- المصدر السابق: ۱۶۴؛ وسائل الشيعة ۷۶: ۸.

۵- المصدر السابق؛ الكافى ۲۵۷: ۴.

ص: ۵۳

و من الرواتب ما يحتاجه الإنسان كلّ سنة مرّة، وهو صيام شهر رمضان فى كلّ عام، فإنّ هذه الفريضة الرتيبة تتكرر على الإنسان فى كلّ عام مرّة واحدة، شهراً كاملًا.

و من الرواتب ما يحتاجه الإنسان فى العمر مرة واحدة- بالضرورة- وماعدا ذلك يخرج عن دائرة الضرورة، ويدخل فى دائرة الندب، وهو الحج؛ فإنّ الحج يجب على المرء مرة واحدة فى العمر.

و معنى ذلك أنّ الخزين النفسى الذى يكتسبه الحاج فى رحلة الحج يكفى لرحلة العمر كله، إذا حافظ عليه الحاج، ولم يهدره، وأنّ التعبئة الروحية والنفسية والسلوكية الّتى يكتسبها الحاج فى هذه الرحلة، تعبئة عالية تكفى لرحلة العمر كلّها، إذا حافظ عليها الحاج، وحرص على تنميتها.

كيف يتناقص خزين الحج فى ساحة الحياة؟

إذن البحث عن الوسائل التى تمكّن الحاج من المحافظة على المكاسب التى اكتسبها فى الحج، من المسائل الضرورية التى لابدّ أن يعرفها الحاج بعد العودة من الحج.

ومن الضرورى أن نتساءل، ونعرف كيف يحافظ الحاج على هذه الذخيرة الغالية التى اكتسبها فى الحج، عند ما يعود إلى بلده، وداره، وأسرته، ويعود إلى السوق، وينزل إلى الشارع، ويختلط بالنّاس، ويعاشرهم، ويدخل فيما يدخل فيه النّاس من شؤون دنياهم؟

فما أكثر الذين أهدروا هذه الثروة العظيمة التى اكتسبوها فى الحج، فى أقل من شهر، بعد أن عادوا إلى بلدهم، وأهلهم، وعشائرهم، وتجارتهم، وأعمالهم التى يمارسونها، لإدارة معيشتهم فى الدنيا، وعلاقاتهم الاجتماعية.

و الشيطان إذا فشل فى إفشال مشروع الحج فى تكامل الحاج، وتعبئته النفسية العالية التى تبلغ ذروتها فى (عرفة)، فإنه يتحوّل إلى الدور الثانى فى إحباط مكاسب الحج عندما يعود الحاج إلى حياته المألوفة فى (البيت) و (الشارع) و (السوق)، وهى المراكز الثلاثة لحضور النّاس فى الحياة الدنيا.

و نقصد بالبيت، الحياة العائلية التى هى أحد أركان حياة الإنسان، ونقصد بالشارع، العلاقات الاجتماعية (العلاقات العامة)، ونقصد بالسوق، العمل الذى يدر معيشة الإنسان فى السوق، أو فى الحقل، أو فى المصنع، أو فى دوائر الدولة، فى البر أو البحر.

و لهذه المراكز الثلاثة دور كبير فى استهلاك الخزين النفسى الذى يختزنه الحاج فى الحج، وإحباط الحالة التعبوية النفسية العالية، التى يكتسبها فى هذه الرحلة.

إنّ الشيطان يبذل جهداً كبيراً لتسريب خزين الحج، فى تعامل الحاج فى البيت، والسوق، والشارع، مع أهله، ومن خلال تجارته، وعلاقاته الاجتماعية؛ تماماً كما تتسرّب الحرارة عند ما تكون فى وسط بارد فاقد للحرارة، فى الأجسام الصلبة، وفى السوائل والغازات، ما لم يحفظ الحرارة جدار عازل، يحفظ الحرارة من التسرّب.

ص: ۵۴

و لايتصور أحدٌ أننا ندعو إلى أن يعتزل الحاج بيته، وتجارته، وعلاقاته الاجتماعية، عند ما يعود من الحج، فليس هذا من دين الله فى شيء ... بل العكس هو الصحيح ... فإنّ الحياة العائلية، والعمل، والتجارة، والعلاقات الاجتماعية، مما يدعو إليه الإسلام دعوة حثيثة.

و إنّما الذى ندعو إليه بشكل دقيق، هو أن نعرف كيف يحافظ المرء على خزين الحج، وتعبئته النفسية العالية فى وسط المراكز الثلاثة التى عددناها آنفاً، دون أن يعتزلها، أو يقاطعها؟ فإنّ هذه المقاطعة والاعتزال، ليس من دين الله إطلاقاً.

كيف نحافظ على مكاسب الحج؟

و الآن نطرح الاجابة عن هذا السؤال، فى دراسة موجزة إن شاء الله، فأقول:

إنّ أهمّ العوامل الواقية التى تحفظ الإنسان، وتحفظ له ما اكتسبه فى الحج من التسرّب والاستهلاك فى ساحات الحياة الثلاثة، هى التقوى والذكر، وإليك تفصيل ذلك.

۱. التقوى

التقوى هو اللباس العازل الذى يحفظ الإنسان من العوامل الموضوعية فى البيئة والوسط، من الفتن والمغريات، ومن العوامل النفسية، داخل النفس، من الشهوات والأهواء، ومن دور الشيطان فى إثاره الأهواء والشهوات تجاه الفتن والمغريات، وتجميل الفتن والمغريات للأهواء والشهوات، وهذا هو الدور الرئيسى للشيطان فى إغواء الإنسان وتسقيطه، وهو دور الوساطة بين الأهواء والفتن، (دور السمسار).

و التقوى هو اللباس العازل الذى يحفظ الإنسان من ثلاثية الابتلاء (الأهواء- الفتن- الشيطان) دون أن يعتزل الإنسان حياته العائلية، وعلاقاته الاجتماعية، وعمله، وتجارته، وحركته الاقتصادية.

وما من عامل يقوى على حماية الإنسان من ثلاثية الابتلاء مثل (التقوى). و التقوى هو ضبط النفس عند الحدود الّتى حدّدها الله تعالى لعباده.

و قد أفاد الحج الحجاج ضبط النفس بدرجة عالية، وبمقاييس واسعة وكبيرة فى محرمات الإحرام، منذ لحظة التلبية إلى أن يخرج من حالة الإحرام.

و إذا كان الحاج قد تحلّل من محرمات الإحرام بعد السعى، وطواف النساء والوداع، فإنّ خزين التقوى وضبط النفس الذى اكتسبه الحاج فى هذه الدورة المكثفة يبقى معه.

و التقوى خير ما يحفظ الحاج بعد عودته من الحج، و يحفظ له ما اكتسبه فى الحج من معرفة الله، وحالة القرب إلى الله، والبصيرة، وشفافية القلب، وقوة النفس، والعزم فى طاعة الله، والإخلاص لله، والإخبات إليه، وذكر الله، وحالات الأنس بذكر الله، والشوق إلى لقاء الله، وحبّ الله، وما لا أحصيه من مكاسب الحج العظيمة.

فإنّ الإنسان ما لم يتلوّث بالذنوب والمعاصى، والانشغال بالدنيا عن ذكرالله تبقى له هذه المواهب، ولا يفسدها شيء مثل (الذنوب) و (الانشغال بالدنيا عن ذكر الله).

ص: ۵۵

و التقوى تحفظ الإنسان من الذنوب، وهو الشطر الأول من الطريق الصعب.

والشطر الثانى من هذا الطريق هو ذكر الله الذى يحفظ الإنسان من أن تلهيه الدنيا عن ذكر الله، وهو قوله تعالى: وَاذْكُرْ ربَّك إذَا نَسِيتَ؛ (۱) وسوف نتحدث عنه إن شاء الله، فيما يأتى من هذا الحديث.

فإذا التزم التقوى، تحفظ له التقوى شطراً كبيراً من المواهب التى اكتسبها فى الحج.

مراقبة التقوى

و التقوى، كما يقول الله تعالى: لباس وَ لباسُ التقوىَ ذلكَ خَيرٌ، و كما يحفظ اللباس صاحبه من الحرّ، والبرد، ومن الأذى، وعيون الناس، ويستر له عوراته و سوءآته، كذلك التقوى تحفظ الإنسان من ثلاثية الابتلاء (الفتن والمغريات- الأهواء والشهوات- الشياطين).

و تحفظ له عورات نفسه و سوءآته، فإنّ للنفس الإنسانية عورات، كما للجسم، وتستر التقوى عورات النفس، كما يستر اللباس عورات الجسم.

و لكن، كما يحفظ اللباس صاحبه، كذلك يحفظه صاحبه من الوساخة والتمزق؛ و هذا هو الدور المتبادل بين الإنسان واللباس، فى الحفظ والصيانة.

كذلك العلاقة بين (الإنسان) و (التقوى)، فإنّ (التقوى) تحفظ صاحبها من الانحراف، والسقوط، والذنوب، والمعاصى، وهو دور وقائى عظيم لامندوحة للإنسان عنه فى سلامة الروح والنفس والعقل.

... و فى المقابل يجب على الإنسان أن يراقب عامل (التقوى) فى نفسه وسلوكه، لئلا يضعف أو يختل ... ولكى تؤدى التقوى دورها فى المحافظة على الإنسان، لابدّ للإنسان أن يراقب التقوى، ويحافظ عليها، ومن دون ذلك لاتسلم له التقوى.

يقول أميرالمؤمنين على بن أبى طالب (ع)، فى هذا الدور المتبادل بين الإنسان والتقوى: «ألا فصونوها وتصوّنوا بها». (۲) وهى كلمة دقيقة وعميقة ... فلكى يصون الإنسان نفسه بالتقوى، لابدّ أن يصون التقوى ويراقبها.

أهمّ آليات مراقبة التقوى:

۱. المحاسبة، والمراقبة المتصلة.

۲. الوعظ والتذكير.

۳. ذكر الله، وذكر الموت.

۴. مرافقة الصالحين ومجالستهم، وحضور مجالسهم.

۱- الكهف: ۲۴.

۲- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۹۱.

ص: ۵۶

۲. الذكر

العامل الآخر للمحافظة على مكاسب الحج، ذكر الله تعالى ضمن برنامج منظم ... وهذا الذكر يشمل نوافل الصلاة، وبشكل خاصّ النوافل الليلية (صلاة الليل) وقراءة القرآن، والدعاء، والأوراد، والأذكار الواردة فى الليل والنهار، ولو خلال فترة العمل، والالتزام بتعقيبات الصلاة، والاهتمام بحضور الجماعة، والتعهد بالأدعية الواردة ليلة الجمعة، ويوم الجمعة، وسائر أيّام الله فى السنة.

إنّ الالتزام بهذه الأبواب من الذكر، يفتح منافذ القلب على الله تعالى، ويبعث فيه النور، والبصيرة، والشفافية، ويقرب الإنسان إلى الله، ويمنح الإنسان اليقين، والعزم، والقوة فى طاعة الله، والأنس إلى ذكر الله، والشوق إلى لقاء الله، وحبّ الله، والإنابة إلى الله، والخشية والرجاء من الله، وما لا أحصيه من المواهب التى جعلها الله فى الذكر.

و من أعظم هذه المواهب، أنّ ذكر الله يحفظ الإنسان من أن تشغله الدنيا أوتلهيه عن الله... وهذا هو الشطر الثانى من الطريق الصعب الذى ذكرناه آنفاً فى السعى إلى الله، فإنّ أعظم حجابين يحجبان العبد عن الله تعالى، هو الذنوب والمعاصى أولًا، و التعلّق بالدنيا ثانياً.

ولمكافحة هذين العاملين قلنا:

إنّ (التقوى) هو الشطر الأول من الطريق الصعب، يحفظ الإنسان من الذنوب والمعاصى الحاجبة عن الله؛ و (الذكر) هو الشطر الثانى من هذا الطريق، يحفظ صاحبه عن الدنيا ودورها المغرى فى إلهاء الإنسان، وانشغاله عن الله.

المداومة

و لايؤتى الذكر ثماره فى حياة الإنسان، ما لم يواصله الإنسان زمناً طويلًا فى حساب العمر.

فقد روى عن أميرالمؤمنين (ع): «قليل مدوم عليه خير من كثير مملول منه». (۱) إنّ بركات الذكر لاتظهر مرة واحدة، كما هو الحال فى أغلب سنن الله تعالى فى الكون، وإنما تظهر بصورة تدريجية. و لكى يكتسب الإنسان بركات الذكر، لابدّ له من مواصلة الذكر ومداومته.

المراقبة والمداومة

و الغاية هنا من التأكيد على (مراقبة) التقوى و (مداومة) الذكر، هى أن يتحوّل كل من التقوى والذكر فى حياة الإنسان إلى ملكة راسخة ثابتة؛ فما لم تتحول التقوى ويتحول الذكر فى حياة الإنسان إلى ملكتين راسختين فى النفس ثابتتين، فهما معرضان لأخطار وتهديدات كثيرة من جانب ثلاثية الابتلاء التى شرحناها من قبل.

۱- وسائل الشيعة ۱۱۸: ۱ ح ۱۰.

ص: ۵۷

فإذا تحولا- بالمراقبة والمداومة إلى حالة ثابتة وراسخة فى النفس، واستحكما فى النفس، فلا- يخاف عليهما عندئذ من تحديات (الأهواء) و (الفتن) و (الشياطين) ويتحوّل كل من التقوى والذكر عندئذ من حالة رجراجة غير ثابتة، إلى ملكة ثابتة وراسخة فى النفس ... وعندئذ تثبت مكاسب الحج فى نفس الإنسان.

***

ص: ۵۸

التزاحم بين الحج والفرائض الآخرى (۲)

۴- تزاحم الحج والنذر

تحرير المسألة:

لو نذر أو عاهد بما يزاحم أداء الحج فى سنة واحدة، أو فى سنوات، كمن نذر أنيزور الإمام الحسين (ع) فى يوم عرفة من كل سنةثم تحققت عنده الاستطاعة للحج، فأيهما يؤدى؟ فإن أدى زيارة الإمام الحسين كما هو مضمون نذره فلابدّ أنيترك حجة الإسلام طيلة عمره؛ وإن أتى بحجة الإسلام، فلابدّ له من ترك العمل بالمنذور.

أو كمن نذر أنيصرف مقداراً من المال للزيارة أو التعزية أو نحو ذلك، بحيث لو صرف المال فيما نذر لزالت الاستطاعة، فهل يجب عليه الحج أم لا؟ وكذا يمكن أنتحصل الاستطاعة قبل النذر، فما هى وظيفة المكلف وفق الرأى الفقهى؟

تاريخ المسألة و صورها:

لايخفى أنّهذه المسألة قد طرحت فى كلمات الفقهاء القدامى فى الحج الندبى، ثم لما اشتغل صاحب الجواهر- كما حكى المشايخ- بتأليف كتاب الجواهر، أحسّ أنإتمام المشروع رهن صبّ الجهود على التأليف، وعدم الاشتغال بشىء آخرلسنتين؛ ولذلك نذر أنيزور الحسين (ع) فى كلّ عرفة حذراً من تعلق وجوب الحج عليه إذا استطاع، كى لايواجه المشروع بمخاطر قبل إنجازه فى حياته، فصار ذلك سبباً لطرح هذه المسألة، (۱) بين المتأخرين مفصلًا.

وبذلك تنحصر المسألة فى أربع صور:

الأولى: لو نذر المستطيع حجة الإسلام مقيداً بكونها فى سنة الاستطاعة.

الثانية: لو نذر غير المستطيع حجة الإسلام مقيداً بكونها فى سنة خاصة ثم استطاع فى نفس السنة.

الثالثة: لو نذر غير المستطيع غير حجة الإسلام فى سنة خاصة أو فى عامة السنوات ثم حصلت الاستطاعة.

الرابعة: لو نذر المستطيع غير حجة الإسلام مقيداً بكونها فى سنة الاستطاعة.

إنّالصورتين الأوليين خارجتانعن محل البحث، وهو تزاحم الحج والنذر؛ لأنّه إذا نذر حجة الإسلام قبل الاستطاعة أو بعد الاستطاعة انعقد النذر، وكلاالحالتين تتداخلانفى النتيجة؛ لأنّه قام بامتثال ما نذر و هو الحج الواجب للمستطيع، ولايمكن فرض التزاحم بين الحج والنذر.

بقيت الصورتان الثالثة والرابعةللدراسة والبحث والنقد تفصيلًا، نبدأ على حسب الترتيب:

الصورة الثالثة:

و هى أنّه لو نذر غير المستطيع غير حجة الإسلام فى سنة خاصة، أو فى عامة السنوات، ثم حصلت الاستطاعة، هل يجب عليه حجة الإسلام أو يجب إتيانالمنذور؟ وأيّهما يقدم؟

۱- السبحانى، جعفر، كتاب الحج ۱۸۰: ۱.

ص: ۵۹

كلمات الفقهاء:

قال الشهيد فى الدروس: فلو نذر الحج ثم استطاع، صرف ذلك إلى النذر، فإنأهمل واستمرت الاستطاعة إلى القابل، وجبت حجة الإسلام أيضاً، وظاهر الأصحاب تقديم حجة الإسلام مطلقاً، وصرف الاستطاعة بعد النذر إليها، إلاأنيُعيّن سنة للنذر، فيصرف الاستطاعة فيها إلى حج النذر. (۱) وقال الشهيد الثانى فى المسالك: ولو نذره (الحج) قبل حصول الاستطاعة، ثم حصلت قبل الفعل، قدّمت حجة الإسلام مع الإطلاق أو التقييد بمدة تزيد عن سنة، بحيث يمكن فعله بعد ذلك أو بسنة متأخرة عن عام الاستطاعة، ومع تعيّنه بتلك السنة يقدم النذر؛ لعدم تحقق الاستطاعة فى تلك السنة المعيّنة. (۲) وقال سبطه فى المدارك: ولو اتفق حصول الاستطاعة قبل الإتيانبالحج المنذور، قُدّمت حجة الإسلام إنكانالنذر مطلقاً أو مقيداً بما يزيد عن تلك السنة أو مغايرها؛ لأنوجوبها على الفور بخلاف المنذورة على هذا الوجه، وإلاقُدّم النذر؛ لعدم تحقق الاستطاعة فى تلك السنة؛ لأنّالمانع الشرعى كالمانع العقلى، وعلى هذا فيراعى فى وجوب حج الإسلام بقاء الاستطاعة إلى السنة الثانية. (۳) وقال صاحب الجواهر: ولو كاننذره حال عدم الاستطاعة، وجب الإتيانبالنذر مع القدرة، وإنلمتحصل الاستطاعة الشرعية، كما فى غيره من الواجبات، إذ هى شرط فى وجوب حج الإسلام للدليل دون غيره. (۴) وقال السيد اليزدى فى العروة الوثقى: إذا نذر قبل حصول الاستطاعة أنيزور الحسين (ع) فى كل عرفة، ثم حصلت، لميجب عليه الحج .. وكذا إذا كانعليه واجب مطلق فورى قبل حصول الاستطاعة، ولميمكن الجمع بينه وبين الحج، ثم حصلت الاستطاعة، وإنلميكن ذلك الواجب أهم من الحج؛ لأنّالعذر الشرعى كالعقلى فى المنع فى الوجوب؛ وأمّا لو حصلت الاستطاعة أولًا، ثم حصل واجب فورى آخر، لايمكن الجمع بينه وبين الحج، يكون من باب المزاحمة، فيقدم الأهم منهما. (۵) وقال الإمام الخمينى: لو نذر قبل حصول الاستطاعة زيارة أبى عبدالله الحسين (ع) مثلًافى كل عرفة، فاستطاع، يجب عليه الحج بلاإشكال، وكذا الحال لو نذر أو عاهد مثلًابما يضاد الحج. (۶) فتحصّل من كلمات الفقهاء أنّهاهنا قولين:

أحدهما: تقديم النذر على الحج، كما ذهب إليه الشهيد الأول فى الدروس، والشهيد الثانى فى مسالك الأفهام، وهكذا صاحب المدارك والجواهر والسيد اليزدى فى العروة الوثقى.

ثانيهما: تقديم الحج على النذر، كما ذهب إليه بعض الفقهاء أخيراً.

۱- الشهيدالأول، محمد، الدروس ۲۷۴: ۱.

۲- الشهيدالثانى، زين الدين، المسالك ۱۵۷: ۲.

۳- العاملى، محمد، مدارك الأحكام ۹۹: ۷- ۱۰۰.

۴- النجفى، محمد حسن، جواهر الكلام ۳۴۷: ۱۷.

۵- السيد اليزدى، محمدكاظم، العروة الوثقى ۲: الفصل الثانى من كتاب الحج، المسألة ۳۲.

۶- الإمام الخمينى، تحرير الوسيلة، كتاب الحج، المسألة ۲۹ من شرائط وجوب حجةالإسلام.

ص: ۶۰

أدلة القولين:

القول الأول: تقديم النذر على الحج

استُدل على القول بتقديم النذر على الحج بأمور:

الأمر الأول: أنّالإتيانبالنذر قبل حصول الاستطاعة أمر واجب، وهو يعتبر عذراً، ومع تحقق العذر لاتتحقق الاستطاعة؛ لأنّالمانع الشرعى كالمانع العقلى يمنع عن تعلق وجوب الحج به.

ودليل اعتبار العذر هو صحيحة الحلبى، عن أبى عبدالله (ع)، قال: «إذا قدر الرجل على ما يحج به ثم دفع ذلك، وليس له شغل يعذره به، فقد ترك شريعة من شرائع الإسلام». (۱) هذا الحديث يفيد بأنّه لو كانله عذر يعذره الله تعالى عليه فى ترك الحج، لم‌يترك شريعة من شرائع الإسلام، ومعلوم أنّالوفاء بالنذر فى وقته شرّعه الله تعالى، وألزم المكلف بما ألزم به نفسه، و اعتبره عذراً ومانعاً عن تعلق وجوب الحج به فى ذلك الوقت، كما لو وجدنا ماءاً غصبياً فى مثل قوله تعالى: فَلم‌تَجِدُوا ماءً فَتَيَمّمُوا صَعِيداً طَيِّباً. (۲) حيث إنّفقدانالماء عذرٌ عقلى، ومانع عن تعلق وجوب الوضوء به، ووجدانه أيضاً بوصف الغصبية عذر شرعى لايجوز التوضّؤ به، فهنا العذر الشرعى كالعذر العقلى مانع عن تعلق الوجوب به، وهذا هو المذكور فى أكثر كلمات الفقهاء. (۳) بعبارة أخرى: محصّل الاستدلال أنّه يعتبر فى الاستطاعة إضافةً إلى صحة البدن وتخلية السرب، الاستطاعة المالية والزمانية، وعدم مزاحمتها لواجب آخر، ومع المزاحمة ترتفع الاستطاعة المعتبرة فى وجوب الحج.

ويلاحظ عليه، أنّالرواية إنّما تعرض لترك الحج بلاعذر وتندّد به، وتعتبره تركاً لشريعة من شرائع الإسلام؛ وأمّا كون الوفاء بالنذر مثلًاعذراً، فهذا أوّل الكلام، فلابدّ من إثباته من خارج، كما ثبت العذر فى موارد الحرج والضرر الزائدين على مايقتضيه الحج، و لم يثبت كون الوفاء بالنذر عذراً، و بعبارة أوضح، أنّالرواية لم‌تبيّن الصغرى، ولم‌تعرّف العذر بما هو عذرٌ. (۴) و أمّا الماء المغصوب، فإنّالشارع اعتبره عذراً و لم‌يجوّز التوضؤ به، هذا بحث صغروى فى اعتبار الوفاء بالنذر عذراً.

وأمّا البحث فى الاستدلال على أنّعدم المزاحمة بواجب آخر، هل يعتبر من الاستطاعة أم لا؟

إنّا فصّلنا الكلام فى الاستطاعة وتحقيق معناها، بأنّالمراد من الاستطاعة الواردة فى الآية الشريفة والنصوص المفسرة لها، هى استطاعة عرفية على ما هو المختار، وهى تتمثل فى توفر الزاد والراحلة، وصحة

۱- الوسائل ۸: الباب ۶ من أبواب وجوب الحج، ح ۳.

۲- النساء: ۴۳.

۳- العروة الوثقى، المسألة ۳۲ من شرايط وجوب حجة الإسلام.

۴- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ۱۶۸: ۱، بتصرف.

ص: ۶۱

البدن، وتخلية السرب؛ وأمّا العذر الشرعى و العقلى أو أىّ شىء آخر لايعتبر من الاستطاعة، وليس لعدم المزاحمة بواجب آخر شأنفى الاستطاعة.

الأمر الثانى: أنّرجحانالنذر- المشروط به صحة النذر- يجب أنيكون مع قطع النظر عن النذر، ومع مزاحمة النذر للاستطاعة؛ فإذا غُضّ النظر عن النذر، يكون المنذور غير راجح؛ لأنّمؤدّاه ترك الحج، وإنّما يكون المنذور راجحاً بتوسط النذر الرافع للاستطاعة، ومثل هذا الرجحانلايكفى فى صحة النذر، مثله يجرى فى وجوب حج الإسلام فى الفرض، فإنّالاستطاعة المعتبرة فى وجوب حج الإسلام يجب أنتكون حاصلة مع غضّ النظر عن وجوب الحج، وفى المقام إذا غُضّ النظر عن وجوب الحج ترتفع الاستطاعة بالنذر؛ وعلى هذا يكون الأخذ بأحد الحكمين رافعاً لموضوع الآخر، وترجيح الحج على وجوب الوفاء بالنذر بلامرجح، حتى بملاحظة كون وجوب الحج أهم؛ لأنّترجيح الأهم إنّما يكون فى المتزاحَمين الواجد كل منهما لملاكه، ويكون تزاحمهما فى مقام الامتثال، لافى المتواردين اللذين يكون كل منهما رافعاً لملاك الآخر، بل فيهما يتعيّن الرجوع إلى منشإ آخر للترجيح، وهو الأخذ بالسابق دون اللاحق تنزيلًاللعلل الشرعية منزلة العلل العقلية. (۱) وهذا غير تام؛ وذلك لأنّفيه:

أولًا: أنّالاستطاعة مع قطع النظر عن وجوب الحج متحققة، وهى عبارة عن استطاعة عرفية، والقدرة الشرعية لاتعتبر فيها بوجه.

أمّا الوفاء بالنذر فلايكون رافعاً لموضوع الاستطاعة أصلًا، إذ لم‌يثبت حينئذٍ رجحانه مع قطع النظر عن أمر النذر، بل ثبت مرجوحيته لاستلزامه تفويت الواجب، وعند ذلك لايكون المقام من قبيل المتواردين، بل ولامتزاحِمَين، فإنّالمتزاحِمَين عبارة عن الأمرين الواجدين للملاك فيقدم الأهم، وأمّا المقام فالملاك لأحد الأمرين دون الآخر. (۲) ثانياً: أنّتنزيل العلل الشرعية منزلة العلل العقلية فاقد للدليل بعد كون الحكم فى العلل العقلية مستنداً إلى العقل، وأمّا الدعوى أنّالحكم بالجمع بين الدليلين بالنحو المذكور إنّما هو العرف، فهى مدفوعة بعدم ثبوت حكم العرف بذلك كما لا يخفى. (۳) الأمر الثالث: كلّ من الحج والنذر، فيما نحن فيه، واجب لتمامية موضوعه.

أمّا الحج، فلكون موضوعه على ما هو التحقيق و المختار عبارة عن تحقق الاستطاعة العرفية، وهى تتمثل فى توفر الزاد والراحلة وصحة البدن وتخلية السرب وسعة الوقت، وهنا قد تتحقق جميع هذه الشرائط فى المفروض، ولم‌يُشترط فى وجوب الحج عدم مزاحمته لواجب آخر؛ فعلى هذا، فإنّالحج واجب بعد تحقق الشرائط، ولو كانمزاحماً لواجب آخر.

۱- الحكيم، محسن، مستمسك العروة ۱۰۲: ۱۰ بتصرف.

۲- السبحانى، جعفر، كتاب الحج، ۱۸۴: ۱.

۳- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ۱۷۲: ۱- ۱۷۳، بتصرف.

ص: ۶۲

وأمّا النذر، فلايشترط فى انعقاده إلّارجحان‌متعلقه، والمراد به هو الرجحان‌بالإضافة إلى الترك، لابالنسبة إلى جميع الأضداد المتصورة له، وهو أيضاً قد تحقق فى المقام، ولم‌يدل دليل تعبّدى على كون عدم الاستطاعة أو عدم تقدمها من شرائط انعقاده، فلامجال لإنكار انعقاد النذر؛ فالأمران واجد ان للملاك مع ما لهما من الشرائط والرجحان، وبهذا ثبت التزاحم بين وجوب الحج والوفاء بالنذر.

أمّا الترجيح فهو بتقديم النذر على الحج، والوجه فيه ثبوت الكفارة والعقاب معاً فى مخالفة النذر، بخلاف ترك الحج؛ لأنّ‌فيه العقاب فقط دون الكفارة، لاسيما إذا كان‌النذر زيارة المرقد الشريف لأبى عبدالله الحسين (ع) فى يوم عرفة، فإنها أهم من الحج، لما ورد فيها من أنّ‌الله تبارك وتعالى ينظر إلى زوّار الحسين (ع) فى يوم عرفة قبل أن‌ينظر إلى الحجاج.

أمّا الاستدلال بثوت الكفارة والعقاب معاً فى مخالفة النذر، فعلى الرغم من أهمية النذر وتقدمه على الحج، فهو غير تام؛ وذلك:

أولًا: أنّ‌عدم ثبوت الكفارة قد يكون لأجل عظمة المعصية وشدتها، كما فى تكرار الصيد فى حال الإحرام، حيث إنّه لاكفارة فيه، لكنه سبحانه وتعالى هدّد بقوله: وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَ اللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقام. (۱) ويُستفاد منها أنّه لاينبغى تخفيف الفعل بالكفارة، بل يترتب عليه ردّ فعلٍ وانتقام من الله تبارك و تعالى.

ثانياً: أنّ‌كثرة الثواب لاتدل على الأهمية، فكم من عمل مستحب يكون أكثر ثواباً من الواجب؛ فلامجال أن‌ندّعى أن‌له أهمية بالنسبة إلى الواجب، كما وردت أحاديث فى فضيلة السلام وكثرة الثواب لبادئه دون مجيبه، مع أنّ‌الابتداء بالسلام مستحب وردّه واجب، والثواب متعاكس نسبة بينهما.

فتبيّن مما ذكرنا من الأدلة فى تقديم النذر على الحج، أنّه «يوجد دليل قاطع لترجيح النذر وتقديمه على الحج».

القول الثانى: تقديم الحج على النذر

استُدل للقول بتقديم الحج على النذر بأمرين:

الأمر الأول: الرجحان‌فى متعلق النذر.

يقدم الحج على النذر، لكون الحج تام الملاك دون النذر؛ وذلك لأنّ‌الوفاء بالنذر ليس واجباً ابتدائياً نظير الصلاة والصوم، وإنّما هو واجب إمضائى، بمعنى أنّه إلزام من الله تعالى بما التزم المكلف به على نفسه.

فإنّ‌الناذر يُلزم نفسه بشىء، والله تعالى يلزمه بالعمل به على نحو ما التزم به، فلابدّ من أن‌يكون العمل الملتزم به فى نفسه قابلًا‌للإضافة إلى الله تعالى، ومن هنا اعتبروا الرجحان‌فى متعلق النذر.

۱- المائدة: ۹۵.

ص: ۶۳

ثم لايكفى مجرد الرجحانفى نفسه، بل لابدّ من ملاحظة ما يلازمه من ترك واجب أو إتيانمحرم، حتى يصح إضافة العمل إليه تعالى؛ فزيارة الحسين (ع) مثلًاوإن كانت راجحةً فى نفسها، لكنها إذا كانت ملازمةً لترك واجب أو إتيانمحرم لايمكن الإضافة إليه تعالى؛ وهذا نظير نذر قراءة القرآنمن أول طلوع الفجر إلى ما بعد طلوع الشمس، أو نذر سجدة طويلة تستغرق جميع الوقت، بحيث تفوت عنه الصلاة المكتوبة، أو نذر صوم اليوم الذى يجيء مسافره فصادف يوم العيد، ولاريب فى انحلال النذر فى أمثال هذه الموارد.

ولازم ذلك، عدم كون المقام من باب التزاحم الذى يكون مورده الواجبين الفعليين، اللذين يشتمل كل منهما على ملاك ملزم، غاية الأمر عدم تمكن المكلف من الجمع بينهما فى مقام الامتثال؛ لأنّهذا يختص بما إذا كانالواجب ابتدائياً وأصلياً كالصلاة والإزالة؛ وأمّا إذا كانالواجب واجباً إمضائياً، فلايجرى فيه الترتّب؛ لأنّما التزم به المكلف إنمّا هو مطلقٌ مستلزم لترك الحج، وهذا غير قابل للإمضاء. (۱) وعلى هذا، فالنذر لايكون راجحاً، ولاينعقد هنا؛ وأمّا وجوب الحج، ففى مكانه من دون مزاحمة النذر.

وهنا موارد للنظر والنقد:

أولًا: لايخفى أنّه لو لم يكف مجرد الرجحانفى نفسه، ولابدّ من ملاحظة سائر الأُمور، فلازمه عدم انعقاد النذر فيما إذا تعلّق بما يستلزم تفويت ما هو أهم، كما إذا نذر أنيصلى فى مسجد محلته؛ لأنّه يستلزم تفويت الصلاة فى المسجد الجامع أو الحرم الشريف؛ وهذا مدفوع، لأنّالملاك فى صحة النذر أنيكون الفعل المنذور قابلًاللإضافة إليه تعالى، والمستحب المستلزم لترك مستحب آخر أهم صالح للإضافة إليه تعالى؛ نعم، لو نذر ترك الراجح، لاينعقد النذر، كما إذا نذر ترك زيارة الحسين (ع). (۲) ثانياً: أنّالقدر المتيقن من رجحانالمنذور كونه راجحاً بالذات حين النذر، والمفروض أنّه كذلك، والنهى التبعى عن المنذور (حيث إنّالأمر بالشيء- الحج- لايقتضى النهى عن ضده) لايوجب المرجوحية الذاتية، وإنّما هى مرجوحية عرضية، وهذه لاتجعل المحبوب مبغوضاً إلابالعرض، و تزاحمه مع واجب آخر لايسلب عنه الرجحانالذاتى، بل يجعلهما من مصاديق المتزاحِمَين، فيكون المرجع فيه هو مرجحات باب التزاحم.

إنّما أهمية الحج بالنسبة إلى النذر- لما ورد فى موقعية الحج بما يقال لتارك الحج: مت يهودياً أو نصرانياً- معلوم، و لايليق بالشبهة، فيقدم الحج على النذر.

ثالثاً: أنّذكر بعض الأمثلة للنذر ليس فى محله؛ لأنّعدم صحة النذر فيما إذا نذر قراءة القرآنمن أول طلوع الفجر إلى مطلع الشمس، أو السجدة الطويلة المستغرقة لوقت الصلاة فى التعارض الواضح بين

۱- السبحانى، جعفر، كتاب الحج عن معتمد العروة للخوئى ۱۴۸: ۱ بتلخيص.

۲- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ۱۷۴: ۱.

ص: ۶۴

النذر والواجب الثابت وجهاً بوجه، كأنه نذر ترك الصلاة المكتوبة، وأين هذا مما نحن فيه أنّه نذر ولم‌يكن مستطيعاً ثم استطاع؟! (۱)

الأمر الثانى: فى انصراف الأدلة

إنّ‌الحج بمقتضى قوله تعالى: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. (۲) واجب على كل مستطيع؛ ولا يجوز إفناء وقته المقرر له شرعاً، ولاإمضاء الشارع له، ولو جعله كذلك للزم منه تجويز إمكان‌ترك الحج رأساً لكل من يريد أن‌يفرّ من إتيان‌الحج طيلة عمره، بأن‌ينذر أن يقوم بعمل خاص فى يوم عرفة من مكان‌معين، بحيث ينافى حضوره بعرفات، كزيارة مرقد أبى عبدالله الحسين بن علىّ (ع) مثلًا، وهذا قطعى الانتفاء.

ويمكن هنا أن‌نذكر له نظيراً، كما ذكروا، كالأوقات المعينة شرعاً للصلاة، فلو نذر أن‌يقرأ القرآن‌من أول الدلوك إلى الغروب، أو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، لم‌ينعقد نذره، إمّا مطلقاً أو بمقدار الصلاة المفروضة؛ ولو كان‌نذره قبل تعلق الخطاب أو جعل الماء كله سبيلًاللشرب، بحيث ينافى الوضوء والغسل.

والحاصل، أنّ‌أدلة النذر و وجوب الوفاء به منصرفة إلى الأزمنة التى لو خلّيت وطبعها لايكون مانع عقلى أو شرعى، ولو بانفهامه من إطلاقه أو عموم الدليل، فلاتشمل المقام. (۳) وأمّا القول بتقدم العامل لتقدم سببه، فهو ممنوع؛ لأنّ‌الله تبارك وتعالى جعل وجوب الحج على المستطيع من أول تكليفه، بل قبله من زمن الصادع بالشرع، وإنّما تأخرت الاستطاعة عن النذر لالوجوبه على المستطيع، فالأصح فى هذه الصورة أنّ‌النذر لاينعقد بحصول الاستطاعة، لالعدم رجحان‌المتعلق، كما قد يُتوهم، بل لما ذكرنا من انصراف أدلة وجوب الوفاء بالنذر. (۴) الصورة الرابعة:

لو نذر المستطيع غير حجة الإسلام مقيداً بكونها فى سنة الاستطاعة، هل ينعقد هذا النذر أم لاينعقد؟

تحرير المسألة:

إنّ‌للمسألة أركاناً تليق بإجالة النظر فيها:

منها: صدورالنذر عن المستطيع بحيث تكون الاستطاعة قد تحققت بجميع شروطها، ثم يقوم بالنذر مع أنّه مستطيع يجب عليه الحج فوراً وفى هذه السنة.

۱- السبحانى، جعفر، كتاب الحج، ۱۸۶: ۱، بتلخيص وتصرف منا.

۲- آل عمران: ۹۷.

۳- الاشتهاردى، على پناه، مدارك العروة ۱۵۰: ۲۴. بتصرف منا.

۴- المصدر السابق: ۱۵۱. بتصرف.

ص: ۶۵

ومنها: تعلّق النـذر بغير حجـة الإسـلام، كالحـج الندبى أو زيارة أحد مراقد الأئمة المعصومين (عليهم السـلام)، أو القيام بالتدريس فى الحوزة العلمية، لاأن يتعلق بنفس حجةالإسـلام كما مضـى فى الصورتين الأوليين كأن يقول: لله علىّ أن أزور الحسين (ع) يوم عرفة، أو أحج حجاً ندبياً فى هذه السنة.

ومنها: تقييد النذر بسـنة الاستطاعة أو هذه السنة، التى قد وجب الحج عليه فيها لامطلقاً ولامقيداً بالسنة الثانية بعد الاستطاعة، كأن يقول: لله علىّ أن أحج غير حجة الإسلام فى هذه السنة.

بعد ملاحظة هذه الأركان والقيود فى الفرض نقول:

لو اختل ركن من الأركان المـذكورة، لخرجت المسألـة عن محل النزاع و المناقشـة؛ لأنّ النـذر مع فقـدان ركن من الأركان يقع صـحيحاً إجماعاً، لما فيه من تحقق صحة شرائط النذر، وعدم تحقق التزاحم بين النذر والحج.

الاستدلال على عدم انعقاد النذر

۱. إنّ الزمان الـذى يجب عليه الحـج فيه مختص بإتيان الحـج عن نفسه، والزمان ظرف خاص له، ولا يكون قابلًا لغير حجـة الإسـلام؛ هـذا نظير شـهر رمضـان فى عـدم قـابليته لتحقق صوم آخر؛ لأنّه مختص بصـيام شـهر رمضـان، فلابـدّ أن يقع فيه صومه، أو يكون متخلياً عن صومه عصـياناً، أو بعذر شـرعى، كما إذا كان على السفر مثلًا، (۱) فموسم الحج فى هذه السـنة، أى سـنة الاستطاعة، لايجوز أن يقع فيها إلّا حجة الاسلام؛ لأنّه واجب فورى، فلابدّ أن يتحقق فى أول أزمنة الإمكان.

فالـذى ينـذر أن يأتى حجاً غير حجـة الإسـلام، أو أن يزور الإمام الحسـين (ع) يوم عرفـة فى سـنة الاسـتطاعة، لاينعقـد نذره لاختصاص زمان الوفاء بالنذر بالحج الواجب من قبل.

ويلاحظ عليه:

أولًا: لايخفى أنّه قـد قام الـدليل فى شـهر رمضان على عـدم كونه قابلًا لصوم غيره، ولم يقم فى الحـج مثل ذلك الـدليل، ومجرد كون الوجوب فورياً، لايسـتلزم عـدم القابليـة و عـدم صـلاحية وقوع حـج آخر فى هذا الزمان، وإلايلزم أن يكون كذلك فى مسألة الصـلاة، وإزالة النجاسة من المسـجد، لأنّ المفروض فيها كون وجوب الإزالة فورياً، فالفورية أمر وعدم القابلية أمر آخر. (۲) فلو عصى المكلف وترك الإزالة وقام بالصلاة فى نفس الوقت، فصلاته تقع صحيحة على الترتب.

ثانياً: من ترك الصـيام فى شـهر رمضان عصـياناً أو بعذر شرعى فليقضه فى أيام أخر، لكن موسم الحج ليس كذلك، فمن ترك حجة الإسـلام فيه فى سنة الاستطاعة عصياناً، فليأته فى سنة أخرى أداءاً لاقضاءاً؛ لأنّ معنى الفورية يقتضى إتيان الحج فى أول أزمنة الإمكان، و لايقتضـى اختصاص الزمان له دون غيره؛ وهكذا لو كان مقتضـى الفورية فى مسألة الإزالة والصـلاة، للزم الفقهاء أن يفتوا بأنّ من ترك إزالة النجاسة من المسجد وقام بالصلاة فصلاته باطلة، مع أنّا نعلم أنّ الفقهاء أكثرهم أفتوا بصحة الصلاة،

۱- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ۴۱: ۱، و العبارة منا.

۲- المصدر السابق، بتصرف.

ص: ۶۶

فيستظهر من ذلك أنّمعنى الفورية فى إتيانالعمل يكون فى أول أزمنة الإمكانفقط، لاتخصيص الزمانله دون غيره.

فالنتيجة أنّالتنظير المذكور بين صوم شهر رمضانوحجة الإسلام غير تام.

٢. حينما يعلمالناذر أنّه مستطيع إلى الحج فى هذه السنة، مع أنالحج واجب فورى لايجوز تأخيره؛ إذن، فهو لايقدر أنيقوم بعمل آخر فى هذه السنة، من إتيانالحج ندباً أو نيابةً أو تبرّعاً عن الغير، أو زيارة الإمام الحسين (ع) يوم عرفة وفاءاً بالنذر؛ فلو نذر فنذره غير مشروع، ونذر فى معصية، ولاينعقد نذره؛ لفقدانالرجحانفى متعلق النذر، والمتفق عليه لزوم الرجحانفى متعلق النذر حين العمل والوفاء بالنذر، وذلك:

أولًا: لايعتبر فى صحة النذر وانعقاده من ناحية المتعلق سوى التمكن من الإتيانبه فى ظرف الوفاء والعمل، وكونه راجحاً فى نفسه وفى نظر الشارع، وفى طاعة الله تبارك وتعالى، و لايعتبر عدم استلزامه لترك واجب أو فعل حرام، (١) بخلاف ما صرح به بعض الأعلام، و اعتبره فى الرجحان، حيث قال: لايكفى مجرد الرجحانفى نفسه، بل لابدّ فى الصحة من إضافة العمل إليه تعالى مع ملاحظة سائر الملزومات والمستلزمات، كأنلايكون العمل مستلزماً لترك واجب أو إتيانمحرم، وإلّافلايكون قابلًاللإضافة إليه سبحانه. (٢) فإتيانالحج الندبى أو زيارة الإمام الحسين (ع) يوم عرفة راجح بالذات ولاشبهة فيه، وأمّا استلزامه ترك واجب أو فعل حرام لايسلب الرجحانالذاتى عنه، ولايجعله مرجوحاً تاماً، بل يوجب مرجوحيةً عرضيةً، وهذا لايخل بالنذر وانعقاده أبداً.

وأمّا نذر المستطيع الذى يكون غير مشروع، أو نذر معصية، فغير تام؛ لأنّالناذر يقصد إتيانعمل راجح فى الذات ومحبوب فى نفسه عند الشارع، ولايريد أنينذر ترك واجب (حجة الإسلام)، وإناستلزم النذر والوفاء به ترك ذلك الواجب.

أمّا إذا صدر النذر مستكملًاللشروط، وكانمتعلّق النذر راجحاً، و لايعتبر فيه عدم استلزامه ترك واجب أو فعل حرام، فليس هناك دليل على عدم انعقاد النذر.

وثانياً: لو زالت الاستطاعة قبل موسم الحج، سقط وجوب الحج عنه؛ لأنّبقاء الاستطاعة إلى المناسك كحدوثه ضرورى، و زوال الاستطاعة يكشف الستر من أنّه كانغير مستطيع فى الواقع والحقيقة، وحسب نفسه مستطيعاً ولميعرف الواقع، لكن النذر بعد الزوال واجب الوفاء به ولميسقط.

الاستدلال على انعقاد النذر

١. إذا درسنا الأدلة المقامة على عدم انعقاد النذر، ووجدناها سقيمة غير مناسبة للمقام، فنقول:

١- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ۴۷۴: ١.

٢- الخوئى، أبوالقاسم، معتمد العروة ١۴٨: ١.

ص: ۶۷

أولًا: لامانع لصدور النذر من المستطيع، ولالانعقاده بأس؛ لأنّالزمانغير مختص بالحج، بحيث لايمكن أنيقع فيه عمل آخر.

ثانياً: أنّاعتبار الرجحانالـذاتى فى متعلق النذر أيضاً تام، و لايعتبر فيه عدم استلزامه لترك واجب أو فعل حرام، كما مضى بيانه؛ فنذر المستطيع غير حجة الإسلام صحيح، وينعقد نذره بلاإشكال.

۲. أمّا بحسب الواقع الخارجى، فإذا نذر المستطيع، فإنّالاستطاعة إمّا تزول قبل العمل بالنذر أو لاتزول.

لامجال للإشكال فى الصحة والانعقاد فى صورة الزوال؛ لأنّه مع زوال الاستطاعة يُعلمعدم وجوب حجة الإسلام، وأنّالظرف قابل لوقوع غيرها فيه، وبالجملة فإنّشروط الصحة لانعقاد النذر كلها موجودة فى هذا الفرض، غاية الأمر عدم العلمبها، بل ربما كانمقتضى الاستصحاب خلافها، إلّاأنّه مع تحقق الزوال يُعلمبتحققها وبطلانالاستصحاب؛ فلو علمأنّه غير مستطيع، فلاينبغى المناقشة فى صحة النذر وانعقاده، (۱) وعلى الناذر أنيقوم بالعمل وفقاً لما نذر.

وأمّا صورة بقاء الاستطاعة وعدم زوالها إلى وقت الوفاء بالنذر، فلاإشكال فى انقعاد النذر، وإنحصل التزاحم بين النذر والحج، فنقول فى بيانهذه الصورة:

إنّالحج واجب مستقل، ولايعتبر فيه عدم استلزامه لترك واجب أو فعل حرام زائداً على الاستطاعة المفسرة فى النصوص، والمتمثلة فى الاستطاعات الأربع (توفر المال للزاد والراحلة، تخلية السرب، صحة البدن) كما أنّمتعلق النذر كالحج الندبى أو زيارة الإمام الحسين (ع) يوم عرفة راجح بالذات، ومقدور للناذر ولو فى ظرف وجوب حجة الإسلام و لايعتبر فيه- زائداً على التمكن من إتيانه ورجحانالمتعلق- عدم استلزامه لترك واجب أو فعل حرام؛ غاية الأمر، أنّدليل وجوب الوفاء بالنذر يكون مزاحماً لدليل وجوب حجة الإسلام، فالوفاء بالنذر واجب مهم، و إتيان حجةالإسلام بالنسبة إلى النذر واجب أهم؛ لأننا نعلم أنّ للحج موقعاً ممتازاً لايقاس به النذر.

ولما كانالمكلف لايقدر على امتثالهما فى زمانواحد، مع أنّكل واحد منهما تام الملاك، ومقتضى الامتثال تقديم الأهم على المهم على الترتب المعروف، وهو يقتضى أنيقوم المكلف بإتيانالحج أولًافى سنة الاستطاعة، ثم إتيانالمنذور فى السنة الثانية قضاءاً.

وعليه، لايقال: لو كانرفع التزاحم وتقديم الحج على النذر من باب الترتب، فيرد عليه إشكال مهم، وهو أنّفى التزاحم أمرين: أمر بالمهم و هو مثل أقم الصلاة؛ وأمر بالأهم، وهو مثل أزل النجاسة عن المسجد؛ فإذا لميقدر المكلف على امتثالهما فى زمانواحد، مع علمه بأنّالإزالة أهمّ من الصلاة ولكل منهما ملاك العمل والإمتثال، لكنّ الفورية مع الإزالة لأهميتها؛ فلابدّ من التصرف فى دليل المهم، كما لو قيل: أيّها المكلف إنعصيت الإزالة أو بنيت على ترك الإزالة، فأقم الصلاة.

وأمّا فيما نحن فيه، فلابدّ من ملاحظة صيغة النذر ومفاده، ومراد الناذر، فلو وجدنا أنّالنذر وصيغته لايرى فيها التعليق ولاالتقييد، فكيف يمكن أننلاحظ أمر المهم فى طول الأمر بالأهم؟!

لأنا نقول:

۱- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ۴۷۳: ۲- ۴۷۴ بتصرف.

ص: ۶۸

أولًا: أنّاللازم فی باب التزاحم ملاحظة نفس التکلیفین من جهة إمکانامتثالهما فی زمانواحد، وعدم قدرة المکلف علی الجمع بینهما، ولامجال لملاحظة المنشإ والموجب لثبوت التکلیف.

ثانیاً: أنّالتصرف فی دلیل الأمر بالمهم نابع من حکم العقل فی رفع التزاحم، فلو لم یکن فی صیغة النذر تعلیق ولاتقیید؛ وکذلک هو الواقع فی دلیل الأمر بالمهم فی أوامر الشارع؛ وأمّا حکم العقل فی الامتثال للأمرین (الإزالة وإقامة الصلاة)، فلعلاج التزاحم ورفعه.

*** ۵- تزاحم الحج و النکاح

تحریر المسألة:

إذا تزاحم الحج مع النکاح، وذلک إذا کانعند الإنسانأموالٌ تکفی إمّا لمصارف الحج فقط وإمّا لمصارف التزویج، بحیث لوحج لم یبق لمصارف النکاح مایکفیه، ولو تزوج بها لم‌یبق لمصارف الحج ما یکفیه، فأیّهما مقدم عند التزاحم؟

تصوروا للمسألة- بملاحظة القیود والحالات- أربعة فروض، هی:

الأول: لوحج وترک النکاح لایکون ترک النکاح موجباً للمشقة، و لاحدوث مرض، و لا الوقوع فی الزنا، لکنه یوجس من نفسه حاجة إلی النکاح.

الثانی: لو ترک النکاح لأوقع نفسه فی مشقة تبلغ حد الحرج.

الثالث: أنّترک النکاح یوجب حدوث مرض.

الرابع: لو علمأنّه لو ترک النکاح لوقع فی المحرمات من النظر إلی ما یحرم، أو ارتکاب عمل قبیح وفاحشة مبینة اختیاراً.

کلمات الفقهاء فی النکاح:

قال الشیخ الطوسی: إذا وجد الزاد والراحلة، ولزمه فرض الحج، ولازوجة له، بدأ بالحج دون النکاح، سواء خشی العنت أو لم‌یخش.

وقال الأوزاعی: إنخشی العنت فالنکاح أولی، وإنلم‌یخف العنت فالحج أولی.

و قال أصحاب الشافعی: لیس لنا فیها نص، غیر أنّالذی قاله الأوزاعی قریب. (۱) قال المحقق الحلی: ولو کانمعه قدر ما یحج به، فنازعته نفسه إلی النکاح، لم‌یجز صرفه فی النکاح، وإنشق ترکه. (۲) قال صاحب المدارک: ولو حصل له من ترک النکاح ضرر شدید لایتحمل مثله فی العادة، أو خشی منه حدوث مرض، أو الوقوع فی الزنا، قدّم النکاح کما صرح به العلامة فی المنتهی. (۳)

۱- الشیخ الطوسی، الخلاف ۲۴۸: ۲.

۲- المحقق الحلی، شرائع الإسلام ۱۶۵: ۱.

۳- العاملی، محمد، مدارک الأحکام ۴۴: ۷.

ص: ۶۹

قال البحرانی: لو کانذا مال تحصل به الاستطاعة، فنازعته نفسه إلی النکاح، لم یجز صرفه فی النکاح، وإنشق علیه وحصل له العنت، بل الواجب صرفه فی الحج. (١) قال صاحب الجواهر: فی محکی التحریر أما لو حصلت المشقة العظیمة، فالوجه عندی تقدم النکاح، ونحوه فی الدروس ومحکی المنتهی، بل فی المدارک عنه تقدیمه فی المشقة العظیمة، التی لاتتحمل مثلها فی العادة، وفی الخوف من حدوث مرض أو الوقوع فی الزنا، وهو جیّد. (٢) قال السید الیزدی فی العروة الوثقی: إذا کانعنده مقدار ما یکفیه للحج، ونازعته نفسه إلی النکاح، صرح جماعة بوجوب الحج وتقدیمه علی التزویج، بل قال بعضهم: وإنشق علیه ترک التزویج، والأقوی- وفاقاً لجماعة أخری- عدم وجوبه، مع کون ترک التزویج حرجاً علیه، أو موجباً لحدوث مرض، أو للوقوع فی الزنا و نحوه. (٣) قال الإمام الخمینی فی تحریر الوسیلة: لو کانعنده ما یکفیه للحج، ونازعته نفسه للنکاح، جاز صرفه فیه بشرط کونه ضروریاً بالنسبة إلیه، إمّا لکون ترکه مشقة علیه، أو موجباً لضرر، أو موجباً لخوف فی وقوع الحرام، أو ترکه نقصاً ومهانةً علیه. (۴) قال الشیخ السبحانی: والظاهر هو تقدیم النکاح عند الحاجة إلیه؛ لماعرفت من أنّالملاک فی الاستطاعة عدم الحاجة إلی ما یحتاج إلیه فی الحضر، فیقدم النکاح مطلقاً. (۵) فتلخص من کلمات الفقهاء، أنّالأقوال فی تزاحم الحج مع النکاح ثلاثة:

الأول: تقدیم الحج علی النکاح مطلقاً.

الثانی: تقدیم النکاح علی الحج مطلقاً.

الثالث: تفصیل بین تقدیم النکاح علی الحج إذا کانالنکاح بالنسبة إلیه ضروریاً، إمّا لکون ترکه مشقة وحرجاً علیه، أو موجباً لضرر وحدوث مرض، أو موجباً للخوف فی وقوع الحرام، أو کانترکه نقصاً ومهانةً علیه.

وأمّا إذا لم یکن النکاح بالنسبة إلیه ضروریاً، فالحج مقدم علی النکاح.

القول الأول: تقدیم الحج علی النکاح مطلقاً

استُدل لتقدیم الحج علی النکاح مطلقاً بأمرین:

١- البحرانی، یوسف، الحدائق الناضرة ١٠٧: ١۴.

٢- النجفی، جواهر الکلام ٢۶١: ١٧.

٣- السید الیزدی، محمدکاظم، العروة الوثقی، کتاب الحج، المسألة ١۴ من شرائط وجوب الحج.

۴- الإمام الخمینی، روح الله، تحریر الوسیلة، کتاب الحج، المسألة ١٧ من شرائط وجوب الحج.

۵- السبحانی، جعفر، کتاب الحج ١٢٢: ١.

ص: ۷۰

الأول: الحج فرض على‌الفور، والنكاح سنة ومستحب، والنكاح المستحب لايعارض الحج الواجب، فالحج مقدم على النكاح عند التزاحم.

الثانى: على بن إبراهيم، عن أبيه، عن صفوان بن يحيى، عن إسحاق بن عمار، عن أبى إبراهيم (ع) قال: «قلت له: رجل كان‌عليه حجة الإسلام فأراد أن‌يحج، فقيل له: تزوج ثم حج، فقال: إن‌تزوجت قبل أن‌أحج فغلامى حرّ، فتزوج قبل أن‌يحج فقال: أعتق غلامه ... والحج أحق من التزويج وأوجب عليه من التزويج ..». (۱) الثالث: اطلاق الآية الشريفة: (وَ لِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا).

تشمل واجد الزاد والراحلة مع الرغبة إلى النكاح، فعليه اتيان‌الحج؛ و أما المنازعة إلى النكاح لايخرجه عن الاستطاعة الشرعية.

لايخفى ما فى هذه الرواية من اختلاف المبنى، بحيث لو قلنا بالاستطاعة الشرعية، فهذا الاستدلال تام والحج مقدم على النكاح، وأمّا لو قلنا بالاستطاعة العرفية، لانعكست النتيجة بما تقتضيه الاستطاعة العرفية، كما سيأتى فى الاستدلال على القول المختار.

لايقال: قد يكون فى ترك النكاح مشقة عظيمة أو مظنة للوقوع فى الحرام.

وقاعدة لاحرج تخصِّص تقديم الحج بما إذا لو يوجب المشقة، فإذا حصلت المشقة العظيمة أو الشديدة، تقدم النكاح على الحج، وهذا مقتضى حكومة قاعدة العسر والحرج للأُصول كلها؛ لأنّه يمكن أن‌يقال:

إنّ‌المشقة العظيمة غير مانعة من وجوب الحج؛ لأنّ‌الحج أيضاً فيه مشقة عظيمة، فلا يمكن أن‌تعارضها مشقة عظيمة أخرى، وعلى فرض المعارضة يقدم وجوب الحج؛ لأهميته فى الإسلام، وكذا فيما إذا خاف الوقوع فى الحرام. (۲) فتحصّل:

أولًا: أنّ‌موقعية الحج أعلى فى الإسلام، وليس النكاح أن‌يعارض الحج.

ثانياً: أنّ‌قاعدة العسر والحرج لاتقدر أن‌تخصِّص فيما عرض على ترك النكاح مشقة عظيمة؛ لأنّ‌فى إتيان‌الحج أيضاً مشقة عظيمة، فالحج مقدّم على النكاح فى كل الحالات والموارد مطلقاً.

تذييل:

بناءاً على هذا القول: مَن أقدم على النكاح، مع ما فيه مصارف كثيرة، تبلغ الآلاف، ولم‌يقم بالحج قبل النكاح، فقد استقر عليه الحج، فلابدّ أن‌يحج ولو متسكعاً، واليوم هذا حال أكثر الناس إن‌لم‌يكن كلهم.

القول الثانى: تقديم النكاح على الحج مطلقاً

إنّ‌الآية الشريفة:

۱- الكافى ۴۵۵: ۷.

۲- تقريرات الحج، تقرير بحث السيد الگلپايگانى ۲۷: ۱.

ص: ۷۱

وَ لِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، تصرح بأنّالحج واجب مشروط بالاستطاعة، والاستطاعة يراد منها على ما هو محقق فى محله أنّها استطاعة عرفية، وهى تتحقق للإنسانإذا قام برفع حاجاته الاقتصادية والنفسية فى الحضر، والذى يوجس فى نفسه حاجة إلى الزواج مع توفر المال بقدر مصارف النكاح أو الحج فقط، فهو لايعتبر عند العرف مستطيعاً؛ لأنّه كالذى يريد السفر و لايستطيع تهيئة ما يحتاج إليه اقتصادياً أو نفسياً فى الحضر، فهذا لايستطيع السفر بحال من الأحوال؛ وكذا الحال فى مورد بحثنا، فهو مادام لم‌يتوفر عنده إضافةً إلى مصارف النكاح ما يكفيه للحج، فليس بمستطيع عرفاً؛ إذن، فالنكاح مقدم على الحج فى التزاحم مطلقاً.

بعبارة أخرى: أنّالقول بالاستطاعة الشرعية، وترجيح الحج على النكاح؛ لصدق الاستطاعة على من عنده القدرة المالية إما للحج أو للنكاح فقط، ثم إخراج موارد حصول المشقة أو مظنة الوقوع فى الحرام، ترجع إلى التخصيص وحكومة قاعدة العسر والحرج، لكنّ القول بالاستطاعة العرفية، وترجيح النكاح على الحج فى عامة الموارد، ترجع إلى التخصص؛ لأنّالنكاح يعتبر من الحاجات الطبيعية للإنسان، وهو من الحاجات الأولية ومقدم على الحج المشروط بالاستطاعة العرفية.

بناءاً على هذا، إذا تزاحم الحج مع النكاح تقدم النكاح على الحج فى عامة الموارد؛ لأنّالحاجة لها مراتب قد يكون تركها موجباً للمرض والحرج والمشقة، وقد يكون فى تركها مظنة الوقوع فى الحرام، وقد يكون عنده حاجة نفسية إلى النكاح من دون هذه الفروض، فالنكاح مقدم على الحج مطلقاً، و فى كل الفروض الأربعة المذكورة فى تقرير المسألة.

وبعض الفقهاء اعتبر الملاك فى استثناء ضروريات المعاش؛ الحاجة، وجعل منها فرسه أو سيارة ركوبه، وسائر ما يحتاج إليه بحسب حاله وزيّه وشرفه، ولم‌يعتبر الحاجة الفعلية النفسية والجنسية حاجة، حيث قال: لايجوز صرف المال فى النكاح دون الحج، إلّاإذا كانالتزويج بالنسبة إليه ضرورياً، إمّا لكون تركه مشقة عليه أو موجباً لضرر و .... (۱) وقد استشكل بعض الأعلام على تقديم النكاح على الحج قائلًا: إنّمجرد العلمبالوقوع فى الحرام اختياراً لايكون مجوزاً لترك الحج؛ لعدم استناده إلى الحج، بل إنّما يرتكبه بسوء الاختيار، واللازم عليه تركه، و لاينافى ذلك كونه مكلفاً بإتيانالحج.

وبعبارة أخرى: يلزم على المكلف أمران: ترك الزنا و إتيان الحج، ومجرد العلم بإتيان الزنا اختياراً لايوجب سقوط الحج، بل يجب عليه الحج كما يحرم عليه الزنا، ونظير المقام ما لو علمالحاج أنّه لو صرف ماله فى طريق الحج لسرق من أموال المسلمين ليتدارك ما صرفه من أمواله، و لايتوهم أحد سقوط الحج فى مثل ذلك... (۲) وفى هذا نظر:

۱- الإمام الخمينى، روح الله، تحرير الوسيلة ۱: كتاب الحج، مسألة ۱۵.

۲- الخوئى، أبوالقاسم، معتمد العروة ۱۰۸: ۱.

ص: ٧٢

أولًا: أنّالنكاح شُرّع لأجل صيانة النفس من الوقوع فى الحرام، حيث قال سبحانه: وَمِنْ آياتِهِ أنخَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها. (١) أى أنّالنكاح يوجب حصول السكينة للنفس، وهذا يدل على صيانة النفس بالإيماء والإشارة.

وقال سبحانه أيضاً:

وَأَنْكِحُوا الأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إنيَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ* وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لايَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ. (٢) هذه الآية تصرّح بأنّالنكاح يوجب صيانة النفس عن الوقوع فى الحرام، وهذا ما يسمى العفة، وهى تترتب على النكاح عادةً، وأمّا الذين لايجدون نكاحاً فليستعففوا وهو أمر على الأيامى فى حالة العزوبة، وعليه يختلف الجزاء إذا ارتكب الإنسانأمراً خلاف العفة بما يقتضى حاله، بحيث لو كانمتزوجاً فإنّالعقوبة تكون شديدة، كما روى أبو بصير عن أبى عبدالله (ع)، قال: «الرجم حدّ الله الأكبر، والجلد حدّ الله الأصغر، فإذا زنى الرجل المحصن رُجم، ولم يجلد». (٣) وأمّا إذا لميكن متزوجاً كانت العقوبة أخفّ بما يناسب عزوبته؛ لقوله تعالى: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ. (٤) ولرواية سماعة عن أبى عبدالله (ع)، قال: «الحر والحرة إذا زنيا جلد كل واحد منهما مأة جلدة، فأمّا المحصن والمحصنة فعليهما الرجم». (٥) إذن، فهنا حاجتان: إحداهما شرعية: وهى صرف المال فى الحج.

والأُخرى نفسية وطبيعية: وهى صرف المال فى النكاح، وهو متعين؛ لأنه يجب الحج بعد رفع حاجاته الأولية فى الحضر.

ثانياً: أنّالتنظير ليس فى محله؛ لأنّالسرقة ليست من لوازم صرف المال فى الحج، كما أنّترك النكاح لمن ليس عنده إلّاما يكفى أحدهما من الحج والنكاح، من لوازم الحج، بل السرقة حالة طارئة شخصية، فلامعنى لترك الحج خوفاً من الوقوع فى السرقة. (٦)

القول الثالث: هو القول بالتفصيل

استُدل على القول بالتفصيل (تقديم الحج على النكاح فى بعض الموارد) بالأدلة المذكورة فى القول الأول، أى تقديم الحج على النكاح بقول مطلق، إلاأنّهم ناقشوا فى تطبيق بعض الموارد؛ لشمول قاعدة

١- الروم: ٢١.

٢- النور: ٣٢- ٣٣.

٣- الوسائل ١٨: الباب الأول من أبواب حد الزنا، ح ١.

۴- النور: ٢.

۵- الوسائل ١٨: الباب الأول من أبواب حد الزنا، ح ٣.

۶- السبحانى، جعفر، كتاب الحج ١٢٣: ١، بتصرف وإيضاح.

ص: ۷۳

العسر والحرج والضرر أو عدم شمولها؛ لايخفى أنّالبحث فى القاعدة متفرع على أننتخذ فى مفاد الاستطاعة المبنى المشهور، وهو الاستطاعة الشرعية المتمثلة فى الزاد والراحلة؛ وأمّا لو قلنا بأنّالمراد من الاستطاعة هى الاستطاعة العرفية، فلاتصل النوبة إلى جرى القاعدة.

وبناءاً على الاستطاعة الشرعية نقول:

إنّقاعدة العسر والحرج والضرر؛ كل قاعدة منها تخرج مورداً من الموارد المذكورة إذا كانترك النكاح موجباً لحصول المشقة، أو حدوث مرض، أو مظنة الوقوع فى الحرام؛ فالحج مقدم على النكاح فى التزاحم إلّافيما تحكم القاعدة عليه بعد صدق الاستطاعة، بحيث إنّواجد الزاد والراحلة مع الحاجة إلى النكاح مستطيع يجب عليه الحج، لكن إذا كانإتيانالحج وترك النكاح سبباً للمشقة العظيمة تقدَّم النكاح، وقاعدة العسر والحرج تكون حاكمة هنا، وهكذا قاعدة لاضرر فيما إذا أوجب ترك النكاح حدوث مرض.

وأمّا ما قيل: من أنّجرى القاعدة على المقام غير صحيح؛ لأنّالقاعدة تنفى كل حكم حرجى إذا كانالمتعلق (وهو فى المقام الحج) حرجياً، وحيث إنّالحج لايكون حرجياً، بل هو مستلزم لأمر حرجى، فلامورد للقاعدة، بل إطلاقات أدلة وجوب الحج قابلة للتمسك والاستدلال، غير تامة؛ وذلك لأنّالبحث فى جرى القاعدة هاهنا يرجع إلى المبنى فى مفاد القاعدة، وعلى ما هو التحقيق، فإنّالقاعدة تنفى كل موضوع حرجى فى المأمور به، وكل حكم استلزم الحرج، وهو هنا تقديم الحج على النكاح مع ما فى تركه من مشقة عظيمة، وهو استلزام الحرج؛ فالقاعدة تنفى حكم وجوب الحج الذى يستلزم المشقة، فجرى القاعدة فى مورده. (۱) وما قيل أيضاً: إنّالمشقة العظيمة غير مانعة من وجوب الحج؛ لأنّالحج أيضاً فيه مشقة عظيمة، فلايمكن أنيعارضها مشقة عظيمة أخرى، هو قول غير تام؛ لأنّالمشقة الموجودة فى الحج ناشئة من نفس العمل وكيفية أدائه وإتيانه.

وبعبارة أخرى: أنّبعض الأعمال والواجبات متقوم على المشقة أو الضرر كالحج والخمس والزكاة وقاعدة العسر والحرج والضرر لاتنفى هذه الطبيعة، وإلّافلايكون الحج واجباً لما فيه من مشقة عظيمة، وكذا الخمس والزكاة لما فيهما من الضرر بالمالك، بل القاعدة تنفى المشقة التى لاتحتمل عادةً، ولايتقوم ذات العمل بها، أو تنفى ما يلازم الواجب من مشقة وضرر خارج عن نفس العمل؛ فالمشقة التى تتحقق فى الحج لاتأتى من قبل الحكم، ولاممما يلازم الحكم، فهى لاتعارض مشقة أخرى تأتى من قبل الحكم و هى التى تنفيها القاعدة.

منشأ اختلاف الأقوال فى المسألة:

ليس فى مسألة التزاحم بين الحج والنكاح نصّ و لارواية، فلابدّ أنيُستنبط الحكم من الأدلة العامة فى الحج أو النكاح.

۱- الروحانى، محمد صادق، فقه الصادق ۴۹: ۹، بتصرف منا.

ص: ۷۴

إنّالفقهاء القدماء نظروا إلى النكاح من جانب الحكم بأنه سنة ومستحب، فافتوا بتقديم الحج عليه، ولعلهم استفادوا هذا الاستنباط مما رُوى عن الإمام الصادق (ع) فى ردّ فتوىً لأبى حنيفة والرواية هى:

روى الشيخ فى التهذيب عن معاوية بن عمار قال: إنامرأةً هلكت، فأوصت بثلثها يُتصدق به عنها، ويُحج عنها، ويُعتق عنها، فلميسع المال ذلك؛ فسألت أباحنيفة وسفيانالثورى، فقال كل واحد منهما: أنظر إلى رجل قد حج فُقطع به فيقوى، ورجل قد سعى فى فكاك رقبته فيبقى عليه شىء فيُعتق، ويُتصدق بالبقية؛ فأعجبنى هذا القول، وقلت للقوم- يعنى أهل المرأة-: إنّى قد سألت لكم، فتريدون أنأسأل لكم من هو أوثق من هؤلاء؟

قالوا: نعم، فسألت أبا عبدالله (ع) عن ذلك.

فقال: «إبدأ بالحج، فإنّالحج فريضة، فما بقى فضعه فى النوافل».

قال: فأتيت أباحنيفة فقلت: إنّى قد سألت فلاناً فقال لى كذا وكذا، قال: هذا والله الحق، وأخذ به وألقى هذه المسألة على أصحابه، وقعدت لحاجة لى بعد انصرافه، فسمعتهم يتطارحونها، فقال بعضهم بقول أبى حنيفة الأول فخطّأه من كانسمع هذا، وقال: سمعت هذا من أبى حنيفة منذ عشرين سنة. (۱) ثم حذا حذوهم من جاء بعدهم من الفقهاء غالباً، إلّاأنّهناك ملاكاً آخر وهو أصيل فى الحج، وهو معرفة حاجات الإنسانبماهى حاجة، والتى لها مراتب لايصل كلها إلى حدّ الضرورة كى يكون رفعها واجباً، بل كثير منها دون الضرورة، لكنها مورد حاجة، والعرف يرى تمكن الإنسانمن الحج بعد ما يرفع حاجاته اليومية، وهذا هو مفاد الاستطاعة العرفية.

*** ۶- الحج و حق الزوج

لو كانت الزوجة مستطيعة وأرادت أنتحج، فلابدّ من السفر والخروج من البيت، لكنّ الزوج إمّا يأذن لها وإمّا لايأذن؛ وفى الصورة الثانية مضافاً إلى عدم الإذن قد يمنعها من الحج، فهل يُشترط إذن الزوج فى حجة الإسلام والحج النذرى؟

كلمات الفقهاء:

قال الشيخ الطوسى فى الخلاف: ليس للرجل أنيمنع زوجته الحرة من حجة الإسلام إذا وجبت عليها. (۲)

۱- الشيخ الطوسى، تهذيب الأحكام ۴۰۷: ۵، ح ۱۴۱۷ ۶۳؛ وجاء فى كتب مثل: من لايحضره الفقيه ۴۴۲: ۲، ح ۲۹۲۰ و ۲۱۱: ۴، ح ۵۴۹۱؛ والكافى للكلينى ۶۳: ۷، ح ۲۲ باختلاف يسير فى النقل والرواية.

۲- الشيخ الطوسى، الخلاف، ۴۳۱: ۲، كتاب الحج، المسألة ۳۲۵.

ص: ۷۵

قال المحقق: لايصح حجها تطوعاً إلّابإذن زوجها؛ نعم، لها ذلك فى الواجب. (۱) قال العلامة فى التذ كرة: لايجوز للرجل منع زوجته الموسرة من حجة الإسلام إذا حصلت الشرائط عند علمائنا. (۲) قال السيد الطباطبائى اليزدى: لايُشترط إذن الزوج للزوجة فى الحج إذا كانت مستطيعة، ولايجوز له منعها منه.

قال المحقق النراقى: المسألة الثانية عشرة: لايُشترط إذن الزوج للزوجة فى الحج الواجب بلاخلاف يوجد؛ للأصل والعمومات المستفيضة. (۳) البحث فى المسألة يشتمل على فرعين:

الفرع الأول:

هل يشترط إذن الزوج للزوجة فى حجة الإسلام إذا كانت مستطيعة أم لا؟

أدلة وجوب الاستئذان:

إنّخروج الزوجة من البيت لابدّ أنيكون باستئذانمن الزوج مطلقاً، وذلك يدل عليه الكتاب فى قوله تعالى: وَ قَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَ لاتَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الأُولى. (۴) وأمّا من السنة فروايات عدّة، منها: صحيحة محمد بن مسلم، عن أبى جعفر (ع)، قال: «جاءت امرأة إلى النبى (ص) فقالت: يا رسول الله! ما حق الزوج على المرأة؟

فقال لها: أنتطيعه و لاتعصيه، و لاتصدق من بيته إلّابإذنه، و لاتصوم تطوعاً إلّابإذنه، و لاتمنعه نفسها وإنكانت على ظهر قتب، و لاتخرج من بيتها إلّابإذنه، و إنخرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء، وملائكة الأرض، وملائكة الغضب، وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها». (۵) ومنها: رواية السكونى، عن أبى عبدالله (ع)، قال: «قال رسول الله (ص): أيّما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها، فلانفقة لها حتى ترجع». (۶) ومنها: صحيحة على بن جعفر فى كتابه عن أخيه، قال: «سألته عن المرأة ألها أنتخرج بغير إذن زوجها؟ قال: لا». (۷)

۱- النجفى، جواهر الكلام ۳۳۲: ۱۷، فى المتن.

۲- العلامة الحلى، تذكرة الفقهاء ۸۶: ۷، المسألة ۵۹.

۳- النراقى، أحمد، مستند الشيعة ۹۱: ۱۱.

۴- الأحزاب: ۳۳.

۵- الوسائل ۱۱۱: ۱۴، الباب ۷۹ من أبواب آداب النكاح، ح ۱.

۶- الوسائل ۲۲۹: ۱۵، الباب ۶ من أبواب النفقات، ح ۱.

۷- الوسائل ۱۱۲: ۱۴، الباب ۷۹ من أبواب آداب النكاح، ح ۵.

ص: ۷۶

فتحصّل من النصوص المذكورة أنّخروج الزوجة من البيت من دون إذن محرّم عليها، وموجب لسقوط النفقة لها، فالاستئذان للخروج واجب على الزوجة، بل من وظيفتها.

إنّ الأدلة فی الدلالة على اشتراط الاستئذان للزوجة إذا أرادت أن تخرج من البيت مطلقة، ويمكن تقييدها بقسمين: قسم عام، وقسم خاص وارد فی الحج.

القسم الأول:

يمكن الاستدلال لتقييد الإطلاقات المذكورة بحديث معروف عن رسول‌الله (ص) حيث قال: «لاطاعة لمخلوق فی معصية الخالق». (۱) رُوی هذا الحديث فی العديد من مصادر أهل السنة والشيعة، ويلاحظ أنّمنطوقه آئب عن التخصيص؛ لأنّالنكرة فی سياق النفی (لاطاعة) تفيد العموم، هذامن جانب؛ ومن جانب آخر فالحديث حاكم علىالأدلة التی تثبت الطاعة للبعض، بمعنی أنّطاعة المخلوق لو لم تنته إلى عمل فيه معصية للخالق، فهو عمل صحيح، وأمضاه الشارع لما فيه من مصلحة المجتمع؛ أمّا إذا استلزمت طاعة المخلوق معصية الخالق أو ترک طاعة الخالق، فلايجوز إطاعته وفق مفاد هذا الحديث؛ ويمكن الاستدلال بهذا الحديث على عدم اشتراط الاستئذانفی حجة الإسلام بما يلی:

أولًا: أنّحجةالإسلام واجبة لمن استطاع إليها سبيلًا، ويعتبر إتيان الحج طاعة لله تعالى.

ثانياً: أنّخروج الزوجة من البيت بغير إذن زوجها حرام، وعدم خروج الزوجة من البيت طاعة للزوج، لكنها توجب ترک حجة الإسلام (طاعة الخالق)، وهی معصية للخالق، فلاطاعة للزوج فی ترک حجة الإسلام.

فتحصّل أنّه لو لميأذن الزوج لزوجته المستطيعة فی السفر إلى الحج، أو نهاها عن السفر؛ لاستلزم نهيه ترک الحج الواجب، وهو معصية، فلااعتبار هنا لطاعة الزوج، ولااستئذانه؛ وعليه، فلايشترط إذن الزوج فی حجةالإسلام.

لايقال: إنّالاستدلال به فی حجة الإسلام إنّما يتم فيما لو استقر الحج فی ذمتها، وأمّا إذا لميستقر، فسيكون نهی الزوج مانعاً عن تحقق الاستطاعة، فلاموضوع لمعصية الخالق؛ وأمّا فی غير حجة الإسلام من الحج النذری وغيره ممّا استقر فی ذمتها، فلامانع من هذاالاستدلال به فيه. (۲) لأنّا نقول:

أولًا: عدم الشمول لحجة الإسلام مبنی على اعتبار أمر زائد على الاستطاعة العرفية، التی تتمثل فی الاستطاعات المعروفة الأربع، وهو عدم استلزام فعل حرام أو ترک واجب، ونحن قد صرّحنا مراراً أنّالاستطاعة المعتبرة فی الحج ليست إلّاالاستطاعات المفسرة فی الروايات، ولميؤخذ فيها عدم استلزام فعل حرام أو ترک واجب كقيد لتحقق الاستطاعة.

۱- الوسائل ۸: الباب ۵۹، من أبواب وجوب الحج وشرائطه، ح ۷ وأيضاً ۱۳۴: ۱۱ و ۴۲۳؛ عوالی اللآلی ۴۴۴: ۱؛ الفصول المهمة فی أصول الأئمة ۲۲۸: ۲

۲- الحكيم، محسن، مستمسک العروة ۲۲۷: ۱۰.

ص: ۷۷

ثانياً: أنّما جاء فى الروايات الخاصة الواردة فى عدم اشتراط الاستئذانشامل للحج المستقر و غير المستقر أيضاً كقوله (ع): «لاطاعة له عليها فى حجة الإسلام».

فعبارة "حجة الإسلام "عامة شاملة لهما، ولااختصاص له بالحج المستقر، مضافاً إلى إطلاق السؤال وترك التفصيل فى الجواب، فلامجال للمناقشة فيها كما سيأتى متن الروايات قريباً.

القسم الثانى:

هناك روايات تبيّن أنّطاعة الزوجة للزوج وإنكانمسلّماً ومفروغاً عنه، لاسيما فيما يوجب الخروج من البيت، لكنه لواستلزم ترك واجب كحجة الإسلام فلايجوز طاعته.

هذا بيانمصداق لما مضى فى القسم الأول من تحقق المعصية فى طاعة المخلوق، وهو إطاعة الزوجة لزوجها فى ترك حجة الإسلام التى هى واجبة عليها، وإطاعة الزوج هنا تستلزم المعصية، وهى ترك حجة الإسلام التى قيل لتاركها: «مت يهودياً أو نصرانياً».

ومن تلك الروايات:

۱. صحيحة محمد بن مسلم، عن أبى جعفر (ع) قال: سألته عن امرأة لم‌تحج ولها زوج، وأبى أن‌يأذن لها فى الحج، فغاب زوجها، فهل لها أن‌تحج؟

قال: «لاطاعة له عليها فى حجة الإسلام». (۱) ۲. صحيحة معاوية بن وهب، قال: قلت لأبى عبد الله (ع): امرأة لها زوج، فأبى أن‌يأذن لها فى الحج ولم‌تحج حجة الإسلام، فغاب عنها زوجها وقد نهاها أن‌تحج. فقال: «لاطاعة له عليها فى حجة الإسلام ولاكرامة، لتحج إن‌شاءت». (۲) ۳. صحيحة زرارة عن أبى جعفر (ع)، قال: سألته عن امرأة لها زوج، وهى صرورة، و لايأذن لها فى الحج.

قال: «تحج إنلم‌يأذن لها». (۳) ۴. سئل الإمام الصادق (ع) عن المرأة تجب عليها حجة الإسلام يمنعها زوجها من ذلك، أعليها الامتناع؟

فقال (ع): «ليس للزوج منعها من حجة الإسلام، وإنخالفته وخرجت لم‌يكن عليها حرج». (۴) وعلى حسب مفاد هذه الروايات المستفيضة فإنّإتيانحجة الإسلام من قبل الزوجة، والذى يستدعى خروجها من البيت لاتحتاج فيه إلى استئذان، بل لو نهاها عن الخروج والسفر عن إتيانالحج، فلاتعتنى بنهيه ومنعه، وتحج من دون إذنه.

الفرع الثانى:

۱- الوسائل ۸: أبواب وجوب الحج، الباب ۵۹ ح ۱.

۲- المصدر السابق ح ۳.

۳- المصدر السابق ح ۴.

۴- المصدر السابق ح ۶.

ص: ۷۸

هل يشترط إذن الزوج للزوجة فى الحج النذرى؟

لو كانالحج واجباً بالنذر على الزوجة فى سنة معينة، وجامعاً لشرائط الصحة فى الانعقاد، إمّا أنها كانت مأذونة فى النذر، أو كانالنذر متقدماً على عقد الزواج، هل يشترط فيه إذن الزوج أم لا؟

قد ألحق بعض الفقهاء، (۱) الحج النذرى بحجة الإسلام، مستدلًابأمور:

۱. إلغاء الخصوصية من تلك الروايات، فكما أنّالنصوص الواردة فى حجة الإسلام تقول: لاطاعة له عليها فى حجة الإسلام، أى لايشترط إذن الزوج فى حجة الإسلام للزوجة، كذلك الحج الواجب بالنذر، لأنّكليهما واجبان، وليس لحجة الإسلام ما ليس للحج الواجب، فهما على مرتبة واحدة فى الوجوب والأهمية.

وقد وقعت المناقشة فى هذا الاستدلال بما يلى:

أولًا: أنّإلغاء الخصوصية فى الأقوى كحجة الإسلام كما ورد فى النصوص الصحيحة، لايكون دليلًاعلى إلغائها فى الأضعف، بحيث إنّحجةالإسلام هى الفرد الأقوى من الحجج، وهى لاتجب على الإنسانطيلة عمره إلّامرة واحدة، لكن سائر الحجج لاينال منزلة حجةالإسلام، فالأقوائية فى حجةالإسلام تنفى إلغاء الخصوصية من الأضعف. (۲) ثانياً: بعد ما كانت حجةالإسلام لها خصوصية من جهة الأهمية، التى يكشف عنها التعبير بالكفر فى مورد تركه فى الآية الشريفة، و كون تاركه يموت يهودياً أو نصرانياً فى الروايات، فلامجال لإلغاء الخصوصية عنها؛ لاحتمال كون الاهتمام بها موجباً لإلغاء اشتراط إذن الزوج، ومن الواضح عدم ثبوته فى مثل الحج النذرى كما لايخفى. (۳) ثالثاً: النصوص الواردة فى المقام موردها حجةالإسلام، والتعدى عن موردها وإلحاق غيرها بها يحتاج إلى الدليل ولادليل، فلابدّ من ملاحظة القواعد. (۴) فتحصّل أنّإلغاء الخصوصية من تلك الروايات غيرتامة بما فيها من الأهمية والأقوائية لحجةالإسلام، و لايكون الحج الواجب الآخر بمكانة حجةالإسلام.

۲. الإجماع

أولًا: أنّهذه المسألة لم تعنون فى كتب القدماء، ولم ينقل منهم رأى فى هذا الموضوع، فكيف يكون إجماعياً؟ (۵) ثانياً: يمكن أن يُستنبط الإجماع من إلحاق الحج الواجب بالنذر بحجةالإسلام، بما فيه أنّعدم اشتراط الإذن مورد وفاق بين الفقهاء، كذلك يكون عدم اشتراط الإذن فى الواجب بالنذر إجماعياً لالتحاقه بها، وهذا

۱- كالسيد البروجردى فى العروة، و الإمام الخمينى فى تحرير الوسيلة.

۲- السبحانى، جعفر، كتاب الحج ۴۰۵: ۱ بعبارة منا.

۳- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ۳۲۲: ۱.

۴- الخوئى، أبو القاسم، معتمد العروة ۲۷۵: ۱.

۵- السبحانى، جعفر، كتاب الحج ۴۰۵: ۱ نقلنا كلامه مضموناً.

ص: ٧٩

غير تام أيضاً، (١) لأنّالالتحاق بها أول الكلام ولميثبت صحته، فكيف يجرى حكم الملحق إلى الملحق به!؟ ولاأصالة له فى المقام، مما يوجد فيه ما يمكن أنيُستدل به من الروايات، كإلغاء الخصوصية على ما عرفت، وكالرواية الآتية. فلايكون الإجماع على فرض تحققه دليلًامستقلًا؛ (٢) لأنّه محتمل المدركية إنلميكن قطعياً، وهو غير حجة.

٣. الرواية المعتبرة

رُوى هذا الحديث بأسناد مختلفة عن الأئمة (عليهم السلام) وعن رسول الله (ص) كما مضى أنّه قال: «لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق». (٣) إنّالبحث فى الرواية يكون على نحوين:

النحو الأول فى إرسالها:

إنّالرواية مرسلة سنداً، (۴) لكنها معتبرة، لأنّها أولًامن جملة المرسلات التى أسند المرسل الرواية إلى الإمام (ع) بلفظ ":قال "من دون أنيكون التعبير بمثل ":قيل "أو "روى عنه."

هذا يكفى فى اعتبار الرواية؛ لأنّذلك بمنزلة توثيق جميع الوسائط. (۵) النحو الثانى فى دلالتها:

إنّفى الاستدلال بالمرسلة المعتبرة لابدّ من دراسة موارد إطاعة المخلوق ومعصية الخالق.

ألف: ما هو المراد من إطاعة المخلوق فى المرسلة؟

قيل: إنّإطاعة الزوجة والعبد إطاعة لله تعالى أولًا، ثم إطاعة للزوج والمولى ثانياً، وهذا فى طول إطاعة الله سبحانه وتعالى بما أوجبه الله فى الشريعة من قبل، وهى خارجة عن المرسلة؛ لأنّها ناظرة إلى ما لمتكن إطاعة المخلوق إطاعة لله تعالى أيضاً، فلوكانكذلك لما كانذلك إطاعة المخلوق، بل هى إطاعة لله تعالى بالأصالة، والمرسلة غير ناظرة إليه، وإلالكانمفاد المرسلة لاطاعة للخالق فى معصية الخالق وهذا كما ترى. (۶) يدفعه أنّه لادليل لحمل المرسلة على موارد الإطاعة غير الواجبة، و انحصار مفاد الرواية فيها بعد استناد الفقهاء إليها فى موارد وجوب الإطاعة، مثل ما إذا أذن المولى لعبده فى الحج، ثم رجع عن إذنه فى أثناء الحج و فى غيره فإنه لامعنى لأنتكون الإطاعة الكذائية مقدمة على إطاعة الخالق، أو ارتكاب

١- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ٣٢٢: ١.

٢- المصدر السابق.

٣- الوسايل، أبواب وجوب الحج، الباب ۵٩، ح ٧.

۴- ابن أبى جمهور الأحسائى، محمد، عوالى اللئالى ۴۴۴: ١؛ المغربى، دعائم الإسلام ٣۵٠: ١؛ السيد الرضى، نهج البلاغة، رقم الحكمة ١۶۵.

۵- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ٣٢٣: ١.

۶- الخوانسارى، أحمد، جامع المدارك ٢٩١: ٢ العبارة و الايضاح منا.

ص: ٨٠

معصيةً، بل الظاهر هى الإطاعة الواجبة مع قطع النظر عن معصية الخالق، فالمراد أنّه لاطاعة لمخلوق فيما تجب إطاعته فى نفسه إذا كانت مستلزمة لمعصية الخالق. (١) هذا الدفع أيضاً غيرتام؛ وذلك كما أنّه لادليل لحمل المرسلة على موارد الإطاعة غير الواجبة، كما قال به صاحب المدارك، كذلك لادليل لحمل المرسلة على موارد الإطاعة الواجبة، كما هو ظاهر كلام صاحب تفصيل الشريعة؛ لأنّالنكرة فى سياق النفى تفيد العموم، ولسانالرواية يأبى التخصيص، فحملها على موارد خاصة إمّا على الإطاعة الواجبة أو غيرالواجبة فقط يحتاج إلى دليل، و لادليل عليها؛ فالمراد منها- الرواية- أعم من الإطاعة الواجبة وغير الواجبة، مثل ما إذا دعا الإنسانرفيقه ليشرب الخمر مع أنّه طاعة غير واجبة، ومجرد دعاء وطلب من غير إلزام، فذلك يقال له: «لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق» أى إجابتك لما دعيت إليه طاعة للرفيق، ولكن فيه معصية للخالق، وهذا لايجوز.

فالإنصاف أنّالاستدلال لعدم اشتراط الإذن فى الحج النذرى بالمرسلة تام، لاخدشة و لاإشكال فيه.

ب: كيف تتحقق المعصية فى النذر؟

قبل الجرى وتطبيق المرسلة على موارد النذر لابدّ من تنقيح تحقق المعصية إذا ترك المنذور، فلهذا قيل: إنّا نشك فى الموضوع بأنّه هل المنع عن إتيانالمنذور يُعدّ معصية للخالق هنا؛ لاحتمال شرطية إذن الزوج بعد إطلاق ما دلّ على حرمة خروج الزوجة من بيتها إلّاباذنه؟ (٢) لامجال لهذا الشك بعد ما فرضنا أنّالنذر انعقد صحيحاً، والوفاء به واجب، وتركه يُعدّ معصية للخالق من دون ارتياب.

وقيل أيضاً: إنّما النذر الواجب يشترط الرجحانفى متعلقه فى ظرف العمل، بمعنى أنّالنذر إنّما ينعقد ويجب الوفاء به إذا كانالمنذور راجحاً حين العمل؛ وأمّا لو كانمرجوحاً أو محرماً فى نفسه، فلايجب الوفاء به، بل ينحل النذر ويقدم الواجب الآخر عليه، فإنّالعمل لابدّ أنيكون فى نفسه راجحاً مع قطع النظر عن تعلق النذر به؛ وعليه، إذا فرضنا أنّخروج الزوجة من البيت من دون إذن الزوج محرم، فلاينعقد نذرها للحج المستلزم للخروج من البيت، (٣) فلايكون هناك معصية للخالق، لفقد الرجحانفى متعلق النذر، و لاتنطبق عليها المرسلة أبداً.

فيه: أنّهذا القول والمناقشة فى عدم تحقق المعصية للخالق غير تام؛ لأنّالنذر إذا انعقد باستجماعه لشرائط الصحة من الزوجة، فلانقاش فى أصله، إلّاأنّاعتبار الرجحانفى متعلق النذر حين العمل أمر مسلملاشبهة فيه، لكن المنذور هنا هو الحج، وهو راجح فى نفسه، إلّاأنّه يستلزم الخروج من البيت فى ظرف الإتيانبه من دون إذن الزوج، وهو محرم كما فى النصوص المعتبرة، لكنه هل يوجب سلب الرجحانية عن الحج وعروض المرجوحية عليه؟ كلّالايوجب؛ لأنّالمنذور هو الحج، وهو راجح ذاتاً، وأمّا الخروج عن البيت

١- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ٣٢۴: ١.

٢- السبحانى، جعفر، كتاب الحج ۴٠۶: ١ بتصرف.

٣- الخوئى، أبوالقاسم، معتمد العروة ٢٧۶: ١.

ص: ٨١

بلاإذن فهو محرم، لكنه ليس هو المنذور كى لايكون راجحاً، واستلزام الحج الخروج من البيت لايجعله مرجوحاً، بل يقع التزاحم بين الحكمين، إذ إنّهاهنا تكليفين:

الأول: إتيانالمنذور وفاءاً بالنذر، وهو تكليف فعلى.

الثانى: الخروج من البيت من دون إذن محرم وهو أيضاً تكليف فعلى.

ثم إنّعدم الوفاء بالنذر وترك المنذور الراجح معصيةٌ للخالق، وعدم الخروج من البيت من دون إذن الزوج إطاعةٌ للمخلوق فى نفس الزمان، ورفع التزاحم جرياً وتطبيقاً للمرسلة على هذا المورد، بحيث إنّها اقتضت عدم ثبوت الطاعة للمخلوق فى معصية الخالق، وهذا يفيد أنّاللازم تقديم وجوب الوفاء بالنذر على حرمة الخروج من البيت.

وبعبارة أخرى: أنّالحج الواجب بالنذر أمر راجح ذاتاً، وتركه يُعدّ معصية لله سبحانه وتعالى، والخروج من البيت من دون إذن الزوج محرم، فالزوجة لو أرادت أنتحج من دون إذن، وأتت بالحج الواجب تكون قد أطاعت وعصت فى آنواحد، لخروجها من البيت؛ ولو أرادت أنتقعد فى البيت وترك الحج تكون كذلك قد عصت وأطاعت؛ فالمرسلة تقول: إذا كانت إطاعة المخلوق (عدم الخروج من البيت بلاإذن) سبباً لتحقق المعصية لله سبحانه وتعالى (ترك الحج الواجب بالنذر) فلابدّ عند تزاحم الطاعتين، طاعة الخلق وطاعة الخالق، من تقديم طاعة الخالق على طاعة المخلوق جرياً للمرسلة وامتثالًالها.

بقى هنا أمرانفلابدّ من ملاحظتهما:

١. ما هو المراد من الزوجة؟ هل تشمل المنقطعة أم لا؟

إنّالنكاح ينقسم حقيقة إلى قسمين؛ نكاح دوام، ونكاح انقطاع، وكذلك الزوجة دائمة كانت أو منقطعة، فإنها زوجة فى كلتا الحالتين حقيقة.

وأما عدم ترتب بعض الأحكام على الزوجة المنقطعة، كالنفقة والتوارث على بعض الأقوال، لايوجب عدم كونها زوجة، بل هى زوجة حقيقة، ويترتب عليها أحكام الزوجية من حرمة خروجها من البيت، واشتراط الاستئذانفى السفر، إلّاماخرج بالدليل كما أشرنا إليه.

٢. هل الزوجة تشمل من كانت فى العدة؟

لايخفى أنّالعدة تنقسم إلى أقسام:

العدة الرجعية.

عدة الوفاة.

عدة البائنة.

الحج و الزوجة فى العدة الرجعية:

هل المطلقة الرجعية هى بحكم الزوجة تحتاج للخروج من البيت إلى الاستئذانمطلقاً، إلّاماخرج بالدليل، كالسفر إلى إتيانحجة الإسلام أم لا؟

كلمات الفقهاء:

ص: ۸۲

قال الشيخ فى الخلاف: يجوز للمرأة أن‌تخرج فى حجةالإسلام وإن‌كانت معتدة أىّ عدة كانت. (۱) قال المحقق: وكذا لو كانت فى عدة رجعية؛ و أضاف صاحب الجواهر وعلل كلام المحقق، بأنّها بحكم الزوجة.

قال السيد اليزدى: المطلقة الرجعية كالزوجة فى اشتراط إذن الزوج مادامت فى العدة، بخلاف البائنة، والمسألة مورد وفاق بين الفقهاء، ولم‌يُحك خلاف فيها.

المطلقة الرجعية زوجة حكماً:

يمكن الاستدلال على أنّ‌المطلقة الرجعية كالزوجة حكماً، ويترتب عليها ما يترتب على الزوجة، ومنها أنّه لايشترط إذن الزوج فى حجةالإسلام كما مضى بيانه، وإليك الأدلة:

۱. إلغاء الخصوصية من المطلقة الرجعية، بما أنّ‌المطلقة الرجعية زوجة، إلّاأنّ‌الظاهر من الروايات الخاصة الواردة فى عدم اشتراط إذن الزوج فى حجةالإسلام للزوجة، انصرافها عن المطلقة الرجعية؛ لأنّ‌المتبادر منها إلى الذهن غير المطلقة، إلّاأنّ‌دراسة الروايات الخاصة فى العدة الرجعية يكشف الستر عن هذا الظهور، ويدفع الانصراف المذكور، ويأتى البيان‌قريباً.

۲. الدليل العام الشامل لكل حج واجب هو المرسلة المعتبرة: «لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق»، يدل على عدم اشتراط الاستئذان‌فى المطلقة الرجعية فى حجةالإسلام، بما شرحناه فى تمامية الاستدلال بهذاالحديث.

۳. الروايات الخاصة فى المطلقة الرجعية هى على طوائف:

الأولى: ما تدلّ على أنّ‌المطلقة الرجعية لاتحج فى عدتها، وهى صحيحة معاوية بن عمار، عن أبى عبد الله (ع) حيث قال: «لاتحج المطلقة فى عدتها». (۲) إنّ‌مقتضى الإطلاق فى الرواية عدم الفرق بين حجةالإسلام وغيرها، وكذلك بين إذن الزوج وعدمه، كما أنّ‌مقتضى إطلاقها عدم الفرق بين المطلقة الرجعية والمطلقة البائنة.

الثانية: تدل على أنّها تحج فى العدة، وهى صحيحة محمد بن مسلم، عن أحدهما (عليهما السلام)، قال: «المطلقة تحجّ فى عدتها». (۳) هذا الحديث أيضاً ورد على الإطلاق، ويشمل جميع الحالات المذكورة فى الطائفة السابقة من حجةالإسلام وغيرها، وعدة الرجعية والبائنة، وإذن الزوج وعدمه.

الثالثة: تدل على التفصيل، وهى مرسلة منصور بن حازم، قال: سألت أباعبدالله (ع) عن المطلقة، تحج فى عدتها؟ قال (ع): «إن‌كانت صرورة حجّت فى عدتها، وإن‌كانت حجّت، فلاتحج حتى تقضى عدتها». (۴)

۱- الشيخ الطوسى، الخلاف ۴۳۴: ۲.

۲- الوسايل ۸: أبواب وجوب الحج، الباب ۶۰ ح ۳.

۳- الوسائل ۸: أبواب وجوب الحج، الباب ۶۰ ح ۱.

۴- الوسائل ۸: أبواب وجوب الحج، الباب ۶۰، ح ۲.

ص: ۸۳

ولايخفى أنّالروايهٔ مرسلهٔ سنداً؛ لأنّأبا عبدالله البرقى رواها عمّن ذكره، عن منصور بن حازم، عن أبى عبدالله (ع).

وأمّا وصف بعض الفقهاء والمحققين الروايهٔ بالصحهٔ فى كتبهم الفقهيهٔ، فهو غير تام، كما مضى، ولاوجه له أصلًا، فالروايهٔ غير معتبرهٔ لإرسالها، إلّاأنه قيل فيها: إنّخبر منصور بن حازم وإنكانضعيفاً سنداً للإرسال، ولكن التفصيل يستفاد من أدلهٔ أخر، والتى دلّت على أنّحج الإسلام لايعتبر فيه إذن الزوج، و لاطاعهٔ له على الزوجهٔ؛ وأمّا الخروج من البيت لغير حج الإسلام فيعتبر فيه الإذن.

الرابعهٔ: والتى تدل على أنّالمطلقهٔ تحج فى عدتها بإذن زوجها، وهى صحيحهٔ معاويهٔ بن عمار، عن أبى عبدالله (ع) قال: سمعته يقول: «المطلقهٔ تحج فى عدتها إنطابت نفس زوجها». (۱) إنّالتعبير فى الروايات بالمطلقهٔ فى عدتها، وإنكانت على حسب ظهورها البدوى تشمل عدهٔ البائنهٔ، لكنها عند التدقيق فيها نجدها لاتشمل البائنهٔ؛ لانقطاع عصمتها منه، وهى فى العرف لاتُعدّ زوجهٔ له؛ وعليه، لاتحتاج إلى الاستئذانمطلقاً، بل هى أشبه بالمعتدهٔ عدهٔ الوفاهٔ، والتى يجوز لها الحج بلاإشكال فى العدهٔ، كما قال صاحب الجواهر. (۲) بقى احتمال واحد من المطلقهٔ وهى الرجعيهٔ، فالمطلقهٔ فى الروايات متعينهٔ فى الرجعيهٔ.

وأمّا المراد من الحج فى الروايات المذكورهٔ فهو إمّا حج واجب كحجهٔالإسلام والحج النذرى، أو حج مندوب.

أمّا المراد من الحج فهو لايكون إلّاالحج الواجب؛ لأنّالحج الندبى لايجوز إلّامع الاستئذانمن الزوج كما صرّحوا به فى الزوجهٔ غير المطلقهٔ، مع أنّالخروج من البيت محرم على المطلقهٔ الرجعيهٔ أيضاً، والحج الندبى لايعارض حرمهٔ الخروج، فحرمهٔ الخروج من البيت متقدم على الحج الندبى، والحج الندبى لايجوز إلّامع الاستئذانكما أشارت إليه الطائفهٔ الرابعهٔ بعبارهٔ: «المطلقهٔ تحج فى عدتها إنطابت نفس زوجها»، وكذا يحمل على الحج الندبى ما يدل على أنّالمطلقهٔ لاتحج فى عدتها، أى لاتحج حجاً مندوباً فى عدتها.

و أمّا الحج الواجب، فالمطلقهٔ الرجعيهٔ تحجه بلااستئذانفى العدهٔ، كما أنّالزوجهٔ تحج بلا إذن من الزوج، وهذا يستفاد من الجمع العرفى من الروايات الواردهٔ فى الباب، وتوافقه مرسلهٔ منصور بن حازم، حيث نصّت على التفصيل بين حجهٔالإسلام وغيرها «إنكانت صرورهٔ حجت فى عدتها، وإنكانت حجت فلاتحج حتى تقضى عدتها». (۳) كلاهما موافقانللقاعدهٔ العامهٔ، وكذلك المرسلهٔ المعتبرهٔ التى تأبى عن التخصيص، حيث تقول: «لاطاعهٔ لمخلوق فى معصيهٔ الخالق» أى أنّالمطلقهٔ الرجعيهٔ لاطاعهٔ لها فى إتيانالحج الواجب الذى يوجب الخروج من بيت الزوجيهٔ؛ لأنّترك الحج معصيهٔ كبيرهٔ قيل لتاركه: «مت يهودياً أو نصرانياً»؛ والحج الواجب متقدم على حرمهٔ الخروج وطاعهٔ المخلوق، لأنّفى طاعته تحقق معصيهٔ الخالق.

۱- الوسائل ۸: أبواب العدد، الباب ۲۲، ح ۲.

۲- النجفى، جواهر الكلام ۳۳۵: ۱۷.

۳- الوسائل ۸: أبواب وجوب الحج، الباب ۶۰، ح ۲.

ص: ۸۴

وأمّا ما قيل: إذا ثبت بالدليل أنّه لايشترط إذن الزوج فى حجةالإسلام للزوجة فى الخروج من البيت، فعدم اشتراطه فى المطلقة الرجعية بطريق أولى؛ لأنّالمطلقة الرجعية ليست بأشدّ من الزوجة. (۱)فهذا القول غير تام لعدم الأولوية فيها؛ لأنّه يمكن أنيكون نظر الشارع إلى عدم خروج المطلقة من البيت مطلقاً و كونها حاضرة عنده؛ ليتحقق الرجوع وتعود الزوجية، وهذا بخلاف الزوجة. (۲) سلوك آخر فى الجمع العرفى بين الروايات:

إنّالمقتضى بين الطائفة الرابعة «المطلقة تحج فى عدتها إنطابت نفس زوجها» وبين الطائفتين الأوليين «المطلقة لاتحج فى عدتها- المطلقة تحج فى عدتها» حمل الأُولى على صورة عدم إذن الزوج، وحمل الثانية على صورة الإذن، فاللازم منه القول باشتراط الإذن فى حجةالإسلام أيضاً، هذا إذا غضضنا الطرف عن مرسلة منصور بن حازم التى توافق القاعدة، فتصل النوبة والدور إلى دراسة التعارض بين صحيحة (معاوية بن عمار) فى الطائفة الرابعة، وبين المرسلة المعتبرة المتقدمة «لاطاعة لمخلوق فى معصيةالخالق».

إنّالصحيحة تدل على اشتراط الإذن فى الحج الواجب والمندوب، وإتيانالحج الواجب من دون إذن فهو باطل.

والمرسلة المعتبرة تدل على أنّإتيانالحج من دون إذن صحيح مطلقاً، وهذا هو التعارض بين مدلولى صحيحة (معاوية بن عمار) والمرسلة المعتبرة، لكنّ الظاهر تقديم المرسلة على الصحيحة؛ لكون سياق المرسلة آبياً عن التخصيص، فالنتيجة عدم اشتراط إذن الزوج فيما إذا كانالحج حجةالإسلام، أو كانالحج الواجب المضيق كالحج النذرى. (۳) تذييل:

إنّمقتضى القواعد والروايات الواردة فى المطلقة الرجعية أنّه لايشترط إذن الزوج فى صحة الحج الواجب، إلّاأنّمقتضى صحيحة معاوية بن عمار والتعبير الوارد فيها: «المطلقة تحج فى عدتها إنطابت نفس زوجها» استحباب كسب الرضا و طيب النفس من الزوج فى الخروج من البيت إلى الحج الواجب، لما فيه مصلحة تسمّى بفترة رجعية، رجاء عودة الزوجية بينهما.

***

۱- السبحانى، جعفر، كتاب الحج ۴۰۹: ۱ والعبارة منا.

۲- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة ۳۲۸: ۱.

۳- الفاضل اللنكرانى، محمد، تفصيل الشريعة ۳۲۹: ۱، بتصرف و تلخيص.

ص: ۸۵

خلاصة الكلام فى هذا البحث:

أولًا: الاستطاعة

بعد التتبع للاستطاعة فى اللغة والقرآن و الروايات، انتهينا إلى أنّالاستطاعة كسائر العناوين إذا أخذت فى لسانالأدلة القرآنية، وعلى حسب ما تفسرها الروايات الواردة فيها، فلها معنى خاص يسمى بالاستطاعة العرفية.

والاستطاعة العرفية أضيق من الاستطاعة العقلية؛ التى تعنى القدرة على إحداث الفعل بأىّ نحو كان، ولو بالمشقة الشديدة والعسر والحرج؛ وأمّا الاستطاعة العرفية فهى ما يعتبره العرف ويسميه استطاعة، ولايسوّغ إحداث الفعل بأىّ نحو كان، بل بما هو المتعارف فى العرف من دون التفات إلى الآلات.

أمّا الاستطاعة الشرعية فهى أضيق من الاستطاعتين المذكورتين (العرفية والعقلية)؛ لأنّالشارع اعتبر فيها، إضافةً إلى ما يعتبره العرف، قيوداً وشروطاً خاصة مثل الراحلة فى استطاعة السبيل إلى الحج، أو عدم استلزامها ترك واجب أو إتيانفعل حرام فى الشرع؛ فالاستطاعة العرفية أوسع من الاستطاعة الشرعية، وأضيق من الاستطاعة العقلية، والاستطاعة الواردة فى تشريع الحج على حسب ما تتبعنا فى المصادر، فإنّالمراد منها هى استطاعة عرفية، لاعقلية، و لاشرعية.

ثانياً: التزاحم

إنّالكلام فى دراسة التزاحم بين الحج والفرائض ليس على سياق واحد، فقد يقع التزاحم والشارع رجح جانب الحج اهتماماً بالحج ومكانته، كما لوحصل التزاحم بين الحج والنذر، فإنّالحج واجب الأداء، لكنّه إذا أوجب إتيانالمنذور ترك الحج فالحج واجب الإتيانبه، ومقدم على النذر، لفقدانالرجحانفى متعلق النذر؛ وكذا فيما لو حصل التزاحم بين الحج وإطاعة الزوج، فقد رجح الشارع جانب الحج؛ لأنّه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق؛ فالحج واجب وتركه لمزاحمته بإطاعة الزوج معصية للخالق، ومنطبق عليه الحديث، فالحج مقدم على إطاعة الزوج، وإطاعة الزوج واجب إلّافيما خالف طاعة الله سبحانه وتعالى.

وقد يرجح الشارع جانب الفريضة على الحج، فإنّالاستطاعة لو زاحمت الفريضة لاتتحقق، مثلما إذا وقع التزاحم بين الحج والنكاح، فإنّالنكاح يعتبر من الحاجات الطبيعية للإنسان، والاستطاعة تحصل بعد رفع الحاجات الطبيعية والضرورية، فالنكاح مقدم على الحج؛ وكذا فيما لو وقع التزاحم بين الحج والدَّين؛ فتحصّل أنّرفع التزاحم يكون بترجيح الأهم على المهم بما يستفاد أهميته من كلمات الشارع مباشرة أو بالإيماء والإشارة، ومن القوانين المبيّنة فى الكتاب والسنّة.

***

ص: ۸۶

الأماكن المأثورة المتواترة فى مكة المكرمة (۱)

إنّ من كان له أدنى إلمام بالمعالم الإسلامية، يعلم بأنّ قسماً كبيراً منها يرتبط بالآثار الباقية من رسول الله (ص) وأهل بيته الطيبين (عليهم السلام)، والصالحين؛ و لاشك أنّ الأجيال سواء أكانت المؤمنة أم الأخرى التى تريد الاطلاع والدراسة- التى لم تكن حاضرةً فى تلك العصور- لايمكنها التعرف على هؤلاء القادة السادة إلّا من خلال الاطلاع على آثارهم التى تبين تاريخهم النير، و دورهم الكبير، وعطاءهم المبارك، وتضحياتهم الجسام، حقاً «إنّ آثارهم تدلّ عليهم».

فالآثار خير وسيلة وأنجع طريقة للتعرف على سيرتهم وأخلاقهم، وللتعرف على ما حملوه من قيم ومبادئ، راحت تترك بصماتها على سلوكهم وأخلاقهم، وظلت هذه الآثار تحكى بصدق عظمة جهودهم التى بذلوها فى سبيل رسالة السماء، وهداية الناس، و انقاذهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الحياة الإيمانية، غير مكتفين بأنفسهم وأهليهم ومن حولهم فى عصرهم، بل حتى للذين يأتون بعدهم بما يتركونه من تراث مقروء، أو مسموع، أو مرئى يمكن الاستفادة منه؛ فى الاقتداء بهم، والسير على نهجهم القيم، المنبثق من كتاب الله تعالى وسنة نبيه (ص).

فلو علم الإنسان المسلم أنّ رسول الله (ص) الذى وصفه القرآن الكريم بقوله: وإِنَّكَ لَعَلىَ خُلُقٍ عَظِيمٍ قد تجسد خلقه هذا، و هو يعيش حياةً متواضعةً مشحونةً بالتواد والتراحم، بعيدةً عن الفظاظة والغلظة؛ تتلمسها فى دار صغيرة بسيطة اتخذها سكناً، و فى مسجد اتخذه مقراً لعبادته وقيادته للأمة والدولة، وهكذا فى كل مواقعه ومواقفه ومنازله وعلاقاته.. فسيتّخذ هذا الإنسان المسلم طريقاً صحيحاً مماثلًا لما عليه رسول الله (ص) وأهل بيته (عليهم السلام) و الصالحون رضوان الله تعالى عليهم، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فىِ رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ... (۱) و يقتدى بهم بسبب ما رأى من آثارهم، و يعيش حتماً مثل ما رأى و عرف من كيفية منازلهم، و بساطة عيشهم؛ و بسبب هذا التعرّف على آثارهم يصير ذلك الإنسان أنموذجاً حياً فى عصره، و إن كان عصره بعيداً عنهم بقرون، فضلًا عما يترتب على زيارة هذه المواقع من بركات وأجر وثواب...

و ليس هذا من منافع التعرّف على آثارهم القيّمة فحسب، بل ستكون هذه الآثار معلماً واضحاً، و داعياً قوياً، للتعرف على المنهج المبارك نفسه الذى ساقته السماء والتزم به الصالحون، فيا حبذا لو كانت دار رسول‌الله (ص) وآثاره المباركة باقية فى عصرنا، لتكون داعية حقيقية إلى الإسلام العزيز الحنيف!!

ولكن يا للمصيبة! فقد ابتلى الإسلام و الأمة الإسلامية بفرقة فاسدة حاقدة، بدأوا بتكفير أبناء الأمة الإسلامية، واتهموهم بالشرك و الإلحاد! و لم يكتفوا بهذه الاتهامات الكاذبة، بل بدأوا بهدم كل ما تعلقت به نفوس المؤمنين من الأماكن الإسلامية، و تخريب الآثار المقدسة التى بقيت من عصر الرسول‌الأكرم (ص).

۱- الأحزاب: ۲۱.

ص: ۸۷

إنّ الـذى ارتكبه هؤلاء ضـدّ آثار الرسول ۹ و أهل بيته:، وتكفير المجتمع المسـلم وقتلهم الأبرياء، لايقل بشاعـة مما يرتكبه الصـهاينة، وهو يلبى ما يأمله أعداء الإسلام ويهدفون إليه من إيجاد الخلافات وإثارة النعرات بين الأمة الواحدة...

إنّ الأسـتاذ الـدكتور عبـدالوهاب إبراهيم، قـد بـذل جهـده فى هـذا الكتاب لإثبات قدسـية الأماكن الشـريفة و المعالم الأثرية فى مكة المكرمـة وأهميتها، تلك الآثار التى كانت عامرة منذ قرون و سـنين، قبل أن يقوم الوهابيون الجاهلون بهدمها وتخريبها، فحرموا الناس من منافعها وبركاتها .. إنهم لا يسمعون شيئاً و لايعقلون سوى ما يلبى أهدافهم و اعتقادهم الضال!

إنّ ما قام به الـدكتور لجهـد واسع نافع، مع أنه كان يعيش فى ظروف صـعبة و خطيرة؛ و ليس فى هذه المجلة ما يسع كل ما تفضل به الدكتور من مباحث كتابه القيم، فاقتطفنا من ثمار هذه الروضة الجليلة بحوثاً يستفيد منها القراء الكرام.

نسأل الله سبحانه و تعالى أن يوفقنا لما يحبّ و يرضى، إنه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

*** عناوين رئيسية:

۱. مقدمة المؤلف.

۲. نماذج من مواقف السلف الصالح من الأماكن المأثورة.

۳. المتواتر من الأماكن المأثورة فى مؤلفات السيرة النبوية.

۴. المتواتر من الأماكن المأثورة فى مدونات التاريخ المكى الخاص.

۵. المتواتر من الأماكن المأثورة فى مكة المكرمة استقلالًا المنثور منها.

۱. مقدّمة المؤلف

إنّ الأماكن التاريخية ذاكرة الأمم الحيّة، والشاهد القائم الذى لايكذب، والدليل الناطق الباقى إذا اندثرت الأجيال.

مكة المكرمة مهد الإسـلام، ومبعث النور، ومنطلق خاتمة الرسالات، شـرفت بولادة المصـطفى (ص)، واحتضـنت كبار صـحابته الكرام على أرضها المباركة، شهدت عرصاتها و مرابعها ملحمة الصراع بين الحق والباطل، و زكت تربتها بالدماء الزكية، دماء الشهداء.

ص: ۸۸

فى كلّ شعب منها وزاوية وبقعة أثر خالد، ومنار مضىء يحكى قصصاً من جهادهم، و أمثلة من كفاحهم، تظل وقائعه حية فى نفوس الأجيال المسلمة سماعاً، ومشاهدة، تكتحل بها نواظرهم، و تتردد على أسماعهم مآثرهم، ترسخ بها معانى الإيمان، تتقوى بها عزائمهم، وتتجدد بها هممهم؛ لنشر العقيدة السليمة، والمبادئ، والقيم الصحيحة، يستنطقون من خلال السيرة والمسيرة والآثار القائمة أمجاد التاريخ الإسلامى فى مراحله المبكرة؛ ليبعث حياً فى النفوس.

مكة المكرمة قد ضمت العديد الكثير من تلك الأماكن التاريخية المهمة فى تاريخ الإسلام، حظيت بعناية المسلمين واهتمامهم منذ العصور الإسلامية المبكرة تأليفاً وتدويناً، توقيعاً، وروايةً متواترة، علمياً ومحلياً، فهى سجلّ حافل، فى صفحات موثقة، يتوارث معرفتها الخلف عن السلف فى تسلسل تاريخى منتظم، منذ ظهور الرسالة المحمدية، حتى الوقت الحاضر، حرص السلف الصالح: محدثون، وفقهاء، ومؤرخون، و أدباء منذ القرن الأول الهجرى على ترسيم تلك الأماكن، وتوقيعها، وتحديدها تخليداً للحدث، مرتبطاً بمشاهدة المكان، فللمكان إيحاءاته وإشعاعاته، بقيت تراثاً خالداً باقياً عبر الأجيال المتعاقبة فى أمانة وصدق، دون أن تمس بسوء.

إنّ هذا البحث يواصل تلك المسيرة التى ابتدأها سلفنا الصالح فى صياغة تحليلية جديدة، فهو امتداد لتلك الجهود، خصوصاً وأنّ الكثير منها قد اختفى عن الأنظار؛ لغرض توسعة المسجد الحرام، وإعادة تخطيط المدينة المقدسة، مكة المكرمة بحسب ما جد فيها من طرق، وتزايد عدد السكان، وأعداد الحجاج الذين بلغ إحصاؤهم إلى ما يزيد على المليونين، والمستقبل ينبئ بزيادات مضاعفة فى السكان، والحجاج والمعتمرين.

أدى هذا و غيره إلى غياب بعض تلك الأماكن من الوجود، وحتى تظل تلك الشواهد التاريخية التى عاصرت أفضل الخلق، وأعظم أجيال الإسلام محفورة فى الذاكرة- وحتى لا يصبح تاريخنا و ماضينا أسطورة مثل ما حدث لبعض الأمم السابقة- يأتى هذا البحث لرصدها، وما طرأ عليها، استمراراً للتسلسل التاريخى لجزء من أهم خصائص المدرسة التاريخية المكية.

ظهرت العناية بهذه الأماكن المأثورة فى مكة المكرمة عبر القرون الماضية توثيقاً فى مدونات متعددة كثيرة، ومن لدن جهات علمية متنوعة:

فى مدونات السيرة النبوية والمدونات التاريخية، والدراسات الفقهية، يسند هذا التدوين العلمى تواتر محلى تتوارثه الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة، حرصاً ألاـ يطويها النسيان، فللمكان إيحاءاته و إشعاعاته الإيمانية، واستذكار الذين أدّوا دوراً مهماً فى نشر الإسلام.

بهذا المفهوم التربوى الراقى، البعيد عن الغلوّ والمجافاة، استحوذ هذا الموضوع على اهتمام علماء الإسلام: محدثين، وفقهاء، ومؤرخين من عصر التابعين حتى العصر الحاضر، فقاموا برصد تلك الأماكن التاريخية تحديداً، وتعييناً، و تاريخاً لما حدث عليها من إحداثات، يدعمهم النقل المتواتر بين الأجيال، بالسماع والمشاهدة، جيلًا بعد جيل، فى حرص وأمانة علمية شديدة، تجلى هذا الاهتمام فى الآتى:

أولًا: مدوّنات السيرة النبوية.

ص: ۸۹

ثانياً: سير الصحابة رضوان الله عليهم.

ثالثاً: المصادر التاريخية العامة، والأخرى المتخصصة فى التاريخ المكى.

رابعاً: كتب المناسك ومدوناتها المطولة والمختصرة، فقد أصبح ذكر هذه الأماكن موضوعاً ثابتاً، وباباً مهماً مستقلًا فى معظم كتب المناسك تحت عناوين مختلفة، قلّ أن يخلو منها كتاب من تلك الكتب، بل إنّ بعض العلماء أفردها بكتابات مستقلة، ورسائل مفردة زيادة فى العناية والاهتمام.

يقتصر العرض لمختارات من المدونات السابقة تفصيلًا إن شاء الله تعالى، توثيقاً صريحاً للتواتر العلمى.

واجب الأمانة العلمية والتاريخية يقضى ذكر العناوين التى يضعها المؤلفون فى تقديمها وعرضها، فإنّ لكل عنوان مدلوله عند المؤلف، وسيكون من مهمة البحث تحليل تلك العناوين تحليلًا علمياً متجرداً.

الواجب العلمى يقضى إنصاف كل ذى رأى فى هذا الموضوع بأدلته، وبالفهم الذى يفهمه، دون تحيز، أو افتئات، فمن ثم اقتضت الدراسة تقسيم البحث إلى الفصول الآتية ...

أودّ أن أنبه القارئ الكريم إلى أمرين ينبغى أن يكونا فى الحسبان:

أولًا: مهمة البحث أصالة هو العرض المتجرد بما يمليه المنهج العلمى، خصوصاً فيما يتصل بالآراء الفقهية، فليس المجال مجال سجال، أو جدال، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلّا صاحب الرسالة سيدنا محمد (ص)، وللقارئ أن يرجح ما يشاء، دون غمط، أو تقليل، أو نبذ للآخرين، فهذا ليس من خلق الإسلام.

ثانياً: جاء الاقتباس من مصادر متعددة متنوعة لقرون مختلفة، فبرغم تكرار أسماء المواضع، لكن يختلف المؤلفون فى أسلوب العرض، وذكر معلومات إضافية عن الموضع بما حدث له من عمار، أو خراب له فى عصره، كذلك ليتم الاقتناع بالتواتر العلمى فى كل مجموعة من تلك الكتب المنتسبة إلى فنونها على انفرادها، وفق عصور مختلفة، وبجميعها مجتمعة، بالإضافة إلى التواتر المحلى فى تعيين هذه الأمكنة، وتحديدها، وتوارث مواقعها جيلًا بعد جيل، يتجلى هذا من وصف بعض الأمكنة فى ثنايا كتابات بعض المؤلفين، مثل الحديث عن مكان مولد النبى (ص): «وهو من أصح الآثار عند أهل مكة، يحقق ذلك مشايخهم»، وبهذا يتحقق المعنى الاصطلاحى بين علماء الإسلام لمدلول (التواتر) وهو:

«الخبر الثابت على ألسنة قوم لايتصور تواطؤهم على الكذب». (۱) تم العرض على هذا الأسلوب من أجل قطع الشك باليقين، وحتى لايسقط القارئ المتأمل فى دائرة الإنكار التى لاتستند إلى دليل، والذى يروج له البعض من دون علم ومعرفة بالمواقع والأنحاء فى مكة المكرمة، ولأمر ما يشككون فيما جرى عليه التواتر العلمى والمحلى فيما لاشك فيه منذ القرون الإسلامية الأولى، دون علم، أو سند سامحهم الله.

على أنه ينبغى أن يكون القارئ الكريم على وعى تام للفرق بين أمرين مختلفين حكماً:

أولًا: المحافظة على هذه الأماكن من يد العابثين، فهى أمانة الماضى، وأمانة تاريخية ينبغى أن تبقى دروساً حية، ناطقة للأجيال القادمة، ينظرون إلى تاريخ الرسالة المحمدية من خلالها.

۱- الجرجانى، على بن محمد الشريف، كتاب التعريفات، الطبعة الأولى: ۷۴، بيروت: لبنان، عام ۱۹۶۹ م، التواتر.

ص: ۹۰

ثانياً: الممارسات المخالفة للعقيدة الصحيحة التى يأباها العقل، وترفضها العقيدة الإسلامية الصحيحة، وهذا ما ستتم مناقشته والحديث عنه بشكل تفصيلى.

والله الهادى إلى سواء السبيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان- مكة المكرمة

*** ۲. نماذج من مواقف السلف الصالح من الأماكن المأثورة

اهتم كثير من السلف الصالح الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم بالأماكن التى صلى فيها رسول الله (ص)، أو حدث له فيها أمر، أو لأحد من كبار الصحابة رضوان الله عليهم، بما يليق بها انتساباً للنبى (ص) ولصحابته الكرام، وقد دونها كبار المحدثين والمؤرخين، وخصوها بأبواب مستقلة أمثال الإمام البخارى فى صحيحه معنوناً لها "باب المساجد التى على طريق المدينة، والمواضع التى صلى فيها النبى (ص؛ ")(۱) ونقلها برمتها العلامة عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثيرالقرشى (ت (ع) (ع) ۴ ه-) بعنوان «ذكر الأماكن التى صلّى فيها رسول الله (ص) و هو ذاهب من المدينة إلى مكة فى عمرته وحجته»؛ (۲) لتكون شواهد تاريخية على من حلّ بها، أو ما حلّ بها، ذلك أنّ ربط الحدث بمكانه ومكانته، يظل ثابتاً راسخاً فى ذاكرة الأجيال الصاعدة، محفزاً لهم على الالتزام بالقيم والمبادئ التى جاء بها صاحب الرسالة (ص).

السماع، أو الرواية تصحبه المشاهدة، وخصوصاً فى المراحل التربوية الأولى تحرك فى الشباب نوازع الإيمان، وقيمه الرفيعة.

شواهد هذا من فعل السلف الصالح، ما ذكره محمد بن سعد بن منيع الزهرى فى الطبقات الكبرى بسنده إلى: «معاذ بن محمد الأنصارى قال: سمعت عطاء الخراسانى فى مجلس فيه عمران بن أبى أنس، يقول وهو فيما بين القبر والمنبر: أدركت حُجَر أزواج رسول الله (ص) من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ بإدخال حُجر أزواج النبى (ص) فى مسجد رسول الله، فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم.

قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشئ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق، فيرى ما اكتفى به رسول الله (ص) فى حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر، يعنى الدنيا.

۱- أنظر: فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى، ۵۶۷: ۱، قرأ أصله تصحيحاً وتحقيقاً عبد العزيزبن عبدالله بن باز، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى، إخراج محب الدين الخطيب، مصر: المطبعة السلفية ومكتبتها، عام ۱۳۸۰ ه-؛ وانظر: شرح ابن حجر العسقلانى عليه مع تعليق سماحة الشيخ عبدالعزيزبن باز على ذلك فى نفس الجزء: ۵۶۹.

۲- حجة الوداع، الطبعة الأولى،: ۱۵۶، تحقيق خالد أبو صالح، الرياض: دار الوطن، عام ۱۴۱۶ ه-/ ۱۹۹۶ م.

ص: ۹۱

قال معاذ: فلمّا فرغ الخراسانى من حديثه، قال عمران بن أبى أنس: كان منها أربعة أبيات بلبن، لها حُجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لاحجر لها، على أبوابها مسوح الشعر، ذرعت الستر فوجدته ثلاثة أذرع فى ذراع والعظم، أو أدنى من العظم؛ فأما ما ذكرت من كثرة البكاء، فلقد رأيتنى فى مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله (ص) منهم: أبو سلمة بن عبدالرحمن، و أبوأمامة بن سهل بن حفيف، وخارجة بن زيد، وإنهم ليبكون حتى أخضل لحاهم الدمع، وقال يومئذ أبو أمامة: ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء، و يروا ما رضى الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده.

أخبرنا محمد بن عمر عن عبد الله بن عامر الأسلمى، قال: قال لى أبوبكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وهو فى مصلاه، فيما بين الأسطوان التى تلى حرف القبر التى تلى الأخرى إلى طريق باب رسول الله (ص): هذا بيت زينب بنت جحش، وكان رسول الله فيه، وهذا الصف كله إلى باب أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس اليوم إلى رحبة المسجد، فهذه بيوته، رأيتها بالجريد قد طرت بالطين عليها مسوح الشعر. (۱) وبسند الإمام الأزرقى إلى ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، أنّ خالد بن مضرس فيما يخص مصلى رسول الله (ص) بمسجد الخيف، أخبره أنه رأى أشياخاً من الأنصار، يتحرون مصلى النبى (ص) أمام المنارة قريباً منها.

و به إلى الأزرقى قال: قال جدّى: الأحجار التى بين يدى المنارة هو موضع مصلى النبى (ص)، و لم يزل الناس، وأهل العلم يصلون هنالك. (۲) بهذا المفهوم الواضح البعيد عن الغلوّ والمبالغة، أو التجافى، والتقصير والإهمال تعامل المسلمون فى الصدر الأول مع الآثار النبوية، وكل ما يتصل بها، أو بالصحابة الكرام، حافظوا على تدوين كل أثر يتعلق بهم وبتاريخهم، استشعاراً لأهميته، وليبقى ذخراً باقياً للأجيال القادمة التى لم تحظ بمشاهدتها.

يقول القاضى عياض (ت ۵۴۴ ه-/ ۱۱۵۹ م) فى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ص):

«من إعظامه (ص) و إكباره، إعظام جميع أسبابه، و إكرام جميع مشاهده، وأمكنته من مكة، والمدينة، ومعاهده، وما لمسه بيده، أو عرف به ...»، (۳) وقد ذكر أدلة وشواهد على ذلك من عمل الصحابة رضوان الله عليهم، وهو ما دلل عليه عملًا وتطبيقاً سلفنا الصالح رضوان الله عليهم.

يقول شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى فى توجيه هذا الموقف: «إنّ سبب النجاة الاستقامة فى الأحوال والأفعال، ولا يتم ذلك إلّا بسائق وقائد، كصحبة الصالحين، أو سماع أحوالهم،

۱- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهرى، الطبقات الكبرى، الطبعة الأولى، ۳۳۰: ۸، أعد فهارسها رياض عبد الله عبد الهادى، بيروت: دار إحياء التراث العربى، عام ۱۴۱۶ ه-/ ۱۹۹۵ م.

۲- الفاسى، تقى الدين محمد بن أحمد بن على المكى، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الطبعة الثانية، ۵۰۱: ۱، تحقيق و مقابلة أيمن فؤاد سيد و مصطفى محمد الذهبى، مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، عام ۱۹۹۹ م.

۳- استامبول: دار سعادت، مطبعة عثمانية، عام ۱۳۱۲ ه-، ۴۷: ۲.

ص: ۹۲

والنظر فى آثارهم عند تعذر الصحبة، حيث تتصور النفس أعيانهم، وتتخيل مذاهبهم؛ لأنك لو أبصرت لم يبق عندك إلّا التذكر والتخيل، وكان السمع كالبصر، والعيان كالخبر». (۱) وفى ذكر معنى قوله تعالى:

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ* قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ ثمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكذِّبِينَ. (۲) يقول العلّامة المفسّر أبومحمد عبد الحق بن عطية الأندلسى «ومعنى الآية: سيروا وتلقوا ممن سار، لأنّ تحصيل العبرة بآثار من مضى إنما يستند إلى حس العين». (۳) و ثمت الآيات القرآنية العديدة التى تحث على الوقوف على آثار الأمم، وماحلّ بهم لأخذ دروس عملية مشاهدة من الواقع، واسترجاع موقف الأنبياء والمرسلين صبراً فى الشدائد، وتحمل أذى قومهم لهم، وأنّ الله لأعدائهم بالمرصاد، ونحن فى الوقت الحاضر، وقد تكالبت علينا الأمم أحوج ما نكون إلى دروس الصبر والمصابرة.

تحقيقاً لما ذكره شمس‌الدين السخاوى، والعلامة المفسر ابن عطية الأندلسى، وغيرهما وتطبيقاً لما سار عليه السلف فى هذا الاتجاه، أفرد علماء الأمة ومؤرخوها المؤلفات العديدة عن الآثار النبوية: أماكن، وأدوات، وتحركات، وكل ما يتعلق بالنبى (ص)، وبجيل الصحابة والتابعين، فأصبحت موضوعاً مهماً فى مؤلفات المؤلفين وكتابات الباحثين، تبعاً حيناً، واستقلالًا حيناً آخر.

*** ۳. المتواتر من الأماكن المأثورة فى مؤلفات السيرة النبوية

عرض علماء السيرة النبوية الشريفة للأماكن التاريخية المأثورة فى مكةالمكرمة، مما له علاقة بسيرة النبى (ص)، بعضهم يذكر ما يجزم بالقول به، وبعضهم يذكر كل ما يحكى من أقوال، كما هى عادة المؤرخين، إذ إنّ من وظائف المؤرخ أن يرصد كل ما يقال عن المكان والحدث، بصرف النظر عن صحته، أو عدم صحته؛ لهذا لاينبغى للقارئ الحصيف إذا رأى شيئاً من هذا النوع أن يتشكك فى الحقيقة فيما لو ذكرت

۱- الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، الطبعة الأولى: ۴۲، حققه وعلق عليه فرانز روزنثال، ترجمة محمد صالح أحمد العى، بيروت، دارالكتب العلمية، ت. د..

۲- الأنعام: ۱۰- ۱۱.

۳- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، الطبعة الأولى ۱۳۴: ۵، تحقيق و تعليق عبدالله بن إبراهيم الأنصارى، والسيد عبدالعال السيد إبراهيم، قطر: على نفقة الشيخ خليفة بن حمدآل ثانى، عام ۱۴۰۸ ه-/ ۱۹۸۷ م.

ص: ۹۳

روايات ضعيفة لأمر مّا، و لايكون هذا حاملًا له على الأخذ بها، أو حكايتها لتضعيف الرأى القوى الصحيح.

من المؤرخين من يطلق الرواية، ومنهم من يكون أكثر دقة، فيسقط من الاعتبار ما لم تشهد له الشواهد، أو الوقائع بادئ ذى بدء، ومن عرض لها يرتد لها فيزيفها، ويبطلها من اعتباره، ثم يبين فى النهاية الراجح من تلك الأقوال؛ و بهذا يستقيم لهم المنهج التاريخى كاملًا؛ من هذه المدونات:

* كتاب (الاستيعاب فى أسماء الأصحاب)

تأليف: العلامة المحدث أبى عمريوسف بن عبد الله بن‌محمدبن عبدالبرّ (ت ۴۶۳ ه-/ ۱۰ (ع) ۰ م) جاء فيه فيما يتصل بمكان ولادة رسول الله (ص)؛ «قال الزبير: حملت به أمّه (ص) أيام التشريق فى شعب أبى طالب عند الجمرة الوسطى، وولد (ص) بمكة فى الدار التى كانت تدعى لمحمد بن يوسف أخى الحجاج». (۱)* كتاب (الروض الأنف فى تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام)

تأليف العلامة الفقيه المحدث أبى القاسم عبد الرحمن بن‌عبد الله السهيلى (ت ۵۸۱ ه-/ ۱۱۸۵ م)، فقد ذكر «أنّ النبى (ص) ولد بالشعب، وقيل: بالدار التى عند الصفا، وكانت بعد لمحمد بن يوسف أخى الحجاج، ثم بنتها زبيدة مسجداً حين حجّت ...». (۲) صدّر حديثه عن مكان ولادة الرسول (ص) بالقول الراجح كما هى عادة المؤلفين، ثم ثنّى بالقول الآخر المرجوح، وهو أنه «ولد بالدار التى عند الصفا» فمن ثم أعقبها بقوله: «وقيل»، وهى للتمريض والتضعيف.

من علماء السيرة النبوية من لم يكتف بعرض الأقوال فقط، بل فحص تلك الروايات، ورجح الصحيح منها، ومنهم من لم يتعرض إلى الأقوال الضعيفة بتاتاً، بل أثبت الصحيح الراجح، و لم يلتفت إلى الأقوال الضعيفة، من هؤلاء:

* كتاب (إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع)

تأليف: العلامة المؤرخ تقى الدين أحمد بن على المقريزى (ت ۸۴۵ ه-/ ۱۴۴۱ م)، وفيه يقول:

«ولد محمد (ص) بمكة فى دار عرفت بدار ابن يوسف من شعب بنى هاشم يوم الإثنين لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول ...». (۳)* كتاب (سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد)

تأليف: العلامة الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى (ت ۹۴۲ ه-/ ۱۵۳۵ م)؛ ذكر القول الراجح الذى عليه الجمهور فى «الفصل الثانى: فى مكان ولادته (ص)، هل ولد بمكة، أوغيرها، و الصحيح الذى عليه

۱- الهامش الأسفل من كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة، الطبعة الأولى، ۱۳: ۱، مصر: المكتبة الكبرى لصاحبها مصطفى محمد، عام ۱۳۵۸ ه-/ ۱۹۳۹ م.

۲- الطبعة الأولى، ۱۰۷: ۱، مصر: مطبعة الجمالية، عام ۱۳۳۲ ه-/ ۱۹۱۴ م.

۳- الطبعة الأولى، ۳: ۱، تصحيح محمود محمد شاكر، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، عام ۱۹۴۱ م.

ص: ٩۴

الجمهور هو الأول، ثم ذكر الأقوال الضعيفة عن مكان ولادته (ص) فى مكة، وقدم الصحيح الراجح من تلك الأقوال فى شىء من التفصيل، و لايعدو ذكر الأقوال الأخرى التى ضعّفها جمهور العلماء فيقول: «وعليه فاختلف فى مكانه من مكة على أقوال: أحدها: فى الدار التى فى الزقاق المعروف بزقاق المولد فى شعب مشهور بشعب بنى هاشم، وكانت بيد عقيل، قال ابن الأثير: «قيل: إنّ رسول الله (ص) وهبها عقيل بن أبى طالب، فلم تزل بيده حتى توفى عنها، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج، وقيل: إنّ عقيلًا باعها بعد الهجرة تبعاً لقريش حين باعوا دور المهاجرين.

الثانى: أنّه (ص) ولد فى شعب بنى هاشم. حكاه الزبير.

الثالث: أنه ولد (ص) بالردم.

الرابع: أنه ولد (ص) بعسفان. (١) فيما يتعلق بالمنهج العلمى فى التعامل مع عرض الأقوال، يقول الدكتورعبدالله بن ضيف الله الرحيلى: «إنّ من التدقيق ما يكون خروجاً عن منهج التدقيق والتمحيص، وذلك حينما يكون التدقيق- مثلًا- اتباعاً للاحتمالات الضعيفة، وإسقاطاً للاحتمالات الراجحة، أو الثابتة بالأدلة والمنهج!

إنّ الأخذ بالاحتمالات الضعيفة اتجاه بغير دليل، وإنّ الحكم للاحتمالات الضعيفة فى مقابل الاحتمالات الراجحة، أو الأدلة الراجحة عدول عن منهج التحقيق والتثبت، ولو بدا ظاهر الأمر أنه تدقيق. (٢)***

۴. المتواتر من الأماكن المأثورة فى مدوّنات التاريخ المكّى الخاص

لم يخل كتاب فى تاريخ مكة المكرمة سواء من تأليف المتقدمين أو المتأخرين إلى القرن الرابع عشر- إلّا ما ندر- من تخصيص فصل خاص بالأماكن المأثورة فى مكة المكرمة، و إنخلت بعض كتب المتأخرين منها فلأسباب فكرية تخيم على الوسط العلمى لا تحبذ مثل هذا، فخلت منها تجنباً لإشكالات فكرية عقدية لا تحمد عقباها، يتحقق التدوين لهذه الأماكن المأثورة فى مجموعة مختارة إجمالًا فى الكتب التالية:

كتاب (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار) من تأليف العلامة أبى الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى (ت ٢٢٣ ه-/ ٨٣ (ع) م)؛ وكتاب (أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه) من تأليف الإمام أبى عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهى، من علماء القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وثالثة الأثافى من المؤلفين المكيين فى هذا القرن، الزبير بن بكار، وقد جاء التنويه عن أهمية كتابات هؤلاء المؤرخين؛ يقول الأستاذ الدكتور محمد الحبيب الهيلة:

«عاش فى مكة خلال القرن الثالث الهجرى ثلاثة من كبار المؤرخين المكيين هم: الأزرقى، والفاكهى، والزبير بن بكّار؛ و كان للأزرقى فضل السبق والتأصيل، وللفاكهى فضل سعة الجمع والإضافة، وللزبير بن

١- الطبعة الأولى، ۴٠٨: ١، تحقيق مصطفى عبد الواحد، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامى، عام ١٣٩٢ ه-/ ١٩٧٢ م.

٢- توثيق السنة النبوية و عناية السلف به ملامح عن المنهج و دلائله، ومظاهره، وأثره، الطبعة الأولى: ٨۶ معلومات النشر: د، عام ١۴٢٨ ه-/ ٢٠٠٧ م.

ص: ۹۵

بكّار فضل تأريخ الحوادث، ودقائق الأخبار، والنوادر، مع كثرة ما كتبه عن أخبار مكة، وأبنائها، وأخبار غيرها؛ وأبو الوليد الأزرقى المحدث المكى روى عن تلاميذ ابن عباس، وعن وهب بن منبه راوى الأخبار، وابن إسحاق صاحب السيرة، كان جده أحمد ابن محمد الأزرق (ت ۲۱۹ ه-، أو ۲۲۲ ه-/ ۸۳۴ أو ۸۳۶) جمع من أخبار مكة كثيراً، استفاد منه حفيده أبو الوليد، وصنف كتابه هذا».

يضيف الأستاذ الدكتور محمد الحبيب الهيلة فى التعريف بكتاب العلامة الأزرقى قوله:

«كتاب تاريخ مكة للأزرقى، هو كتاب جامع بين منهج المحدثين فى الرواية والسند، ومنهج المؤرخين فى عرض الأخبار والفضائل، ووصف المظاهر الحضارية، والعمرانية، وغيرها؛ سبق الأزرقى بوضع أول كتاب جامع لتاريخ مكة، وأخبارها، وفضائلها، وأحوال مبانيها، وخططها، وأحيائها، ومنشآتها المعمارية، والحضارية، ومساجدها، وأسواقها، وآبارها، وعيونها، وجبالها، وأوديتها». (۱) وفى التعريف بكتاب الإمام الفاكهى يقول الأستاذ الدكتور الهيلة:

«يعتبر هذا الكتاب من أهم وأوسع الكتب القديمة التى ألفت فى تاريخ مكة وأخبارها، وفضائلها، فقد سار فيه الفاكهى على منهج موسوعى، كثرت رواياته، وتنوعت مصادره، وسلك مسلك المحدثين فى الرواية من حيث السند، واختيار الرواة، وضبط النصوص، والأمانة فى الرواية مع عزو الأخبار، وذكر المصادر، معتمداً فى رواية أخبار حوادث مكة على روايات أهل مكة ممن يسميهم أحياناً، ومن لايسميهم أحياناً أخرى ... وقد ظل كتاب الفاكهى، مع كتاب الأزرقى من أهم المصادر التى نهلت منها كتب تاريخ مكة، وفضائلها على مرّ الأزمان، ومختلف العصور، ونقلت عنها مباشرة، أو بواسطة تأليف أخرى نقلت عنها ...». (۲) يأتى الآن دور عرض ما احتواهما هذان الكتابان المهمان فيما يتصل بموضوع البحث:

* أولًا: كتاب (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار)

تأليف: شيخ المؤرخين المكّيين، العلامة أبى الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقى (ت ۲۲۳ ه-/ ۸۳ (ع) م).

ورد لديه موضوع الآثار الإسلامية التاريخية فى مكة المكرمة تحت عنوان:

(ذكر المواضع التى يستحب فيها الصلاة بمكة المكرمة، وما فيها من آثار النبى (ص)، وما صح من ذلك)، ثم عيّنها، و حدّد أماكن وجودها، وما يتعلق بها من أحداث، مع الكشف عن صحة نسبتها، وهو حين يقدم قائمة هذه الأماكن، يوثقها بأحداثها، والمناسبة التى جعلت من المكان معلماً تاريخياً، ولا يكتفى بهذا، بل يختبر تلك الروايات، ويفحصها فحص المؤرخ الدقيق، بكل ما يمكن أن يكشف الحقيقة، فيؤكد الصحيح، ويزيف الضعيف، ويرفض بعضاً منها.

وفى شرح منهجه يقول الأستاذ الدكتور محمد الحبيب الهيلة:

۱- التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجرى إلى القرن الثالث عشر، الطبعة الأولى: ۱۶- ۱۵ لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، عام ۱۹۹۴ م.

۲- التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجرى إلى القرن الثالث عشر: ۲۱- ۲۲.

ص: ۹۶

«و كـان كثيراً مـا يعرض الخبر من مصـدرين مختلفين، ثم يجرى على النصـين نقـداً داخلياً، فيخرج بالنتيجـة التى يصل إليها عن طريق الاسـتدلال المنطقى، وقد عرض كثيراً من الأسانيد فى إيراد الأحاديث والآثار». (۱) ففى ثبت هذه الأماكن التاريخية، وعلى منهجه فى فحص الروايات يثبت لديه ما لاشك فيه من هذه الأماكن:

۱. مولد النبى (ص).

۲. منزل السيدة خديجة أمّ المؤمنين (س).

۳. دار الأرقم بن أبى الأرقم.

۴. مسجد بأعلى مكة عند الردم، عند بئر جبير بن مطعم.

۵. مسجد الجن.

۶. مسجد الشجرة بأعلى مكة.

(ع). مسجد بأعلى مكة، عند سوق الغنم، عند قرن مسقلة.

۸. مسجد السّرر.

۹. مسجد بعرفة عن يمين الموقف.

۱۰. مسجد الكبش بمنى.

۱۱. مسجد بذى طوى.

۱۲. غار حراء.

۱۳. غار ثور.

۱۴. مسجد البيعة بشعب العقبة.

۱۵. مسجد الجعرانة.

۱۶. مسجد التنعيم.

و قد رفض صحة بعض الأماكن، ونفى نسبتها إلى أحداث ومناسبات تاريخية نسبت إلى رسولنا محمد (ص)، أو إلى أحد من الرسل والأنبياء السابقين، كسيدنا إبراهيم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، من هذه الأماكن:

* مسجد بأجياد يقال له: مسجد المتّكا.

* مسجد على جبل أبى قبيس.

قـد بلغت دقـة الإمام الأزرقى حـداً بعيـداً جعله يذهب إلى أبعد من هذا، إذ إنه يناقش بعض الأمور التاريخية داخل ذلك المكان، مما انتشر بين عامـة الناس، فيكشف عن حقيقته، من ذلك أنه كان يوجد فى منزل السيـدة خديجة (س)، صـفيحة من الحجارة مبنى عليها فى جـدار البيت الـذى كـان يسـكنه النبى (ص)، وكـان بعض النـاس يقولون: إنّ رسول الله (ص) كـان يجلس تحت تلـك الصـفيحة فيستدرى بها من الرمى بالحجارة إذا

۱- التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجرى إلى القرن الثالث عشر: ۱۲۱.

ص: ۹۷

جاءته من دار أبى‌لهب، و دار عدى بن أبى الحمراء الثقفى؛ فتحرى الإمام الأزرقى صحة هذا، وتوصل إلى عدم صحتها.

هـذه الدقّة العلميـة، والحرص على توخى صـحة الروايـة، والمكان، والحـدث، نشاهدها فى العرض التاريخى فى كتابه النفيس، مبتدئاً هذه القائمة ب-:

۱. «مولد النبى ۹، أى البيت الـذى ولد فيه النبى ۹: وهو فى دار محمـد بن يوسف أخى الحجـاج بن يوسف، كان عقيل بن أبى طالب أخذه حين هاجر النبى ۹، و فيه وفى غيره يقول رسول الله ۹ عام حجةالوداع، حين قيل له: أين تنزل يا رسول الله؟ قال ۹: وهل ترك لنا عقيل من ظلّ! فلم يزل بيـده وبيد ولده حتى باعه ولده من محمد بن يوسف، فأدخله فى داره التى يقال لها البيضاء، وتعرف اليوم بابن يوسف، فلم يزل ذلـك البيت فى الـدار حتى حجّت الخيزران أمّ الخليفتين موسـى وهـارون، فجعلته مسـجداً يصـلى فيه، وأخرجته من الدار، وأشرعته فى الزقاق الذى فى أصل تلك الدار، يقال له زقاق المولد.

حدثنا أبو الوليد، قال: سمعت جدى ويوسف بن محمد يثبتان أمر المولد، وأنّه ذلك البيت لا اختلاف فيه عند أهل مكة.

حـدثنا أبو الوليـد، قال: حدثنى رجل من أهل مكة، يقال له سـليمان بن أبى مرحب، مولى بنى‌خيثم، قال: حدثنى ناس كانوا يسـكنون ذلـك البيت، قبـل أن تشـرعه الخيزران من الـدار، ثم انتقلوا عنه حين جعـل مسـجداً، قـالوا: لاـ والله ما أصابتنا فيه جائحـة، ولا حاجـة، فأخرجنا منه فاشـتد الزمان علينا». (۱) و من فضل الله أنّ هـذا المنزل المبارك قد وظف توظيفاً شـرعياً، فأصـبح منارة علمية يأوى إليها العلماء والباحثون، بحيث أصـبح يضم أنفس المكتبات الخاصـة لعلماء البلـد الحرام، تجمع نفائس المخطوطات والمطبوعات، وسـيأتى الكلام عن هذا بالتفصيل.

۲. «ومنزل خديجـة ابنـة خويلد زوج النبى (ص)، وهو البيت الذى كان يسـكنه رسول الله (ص) وخديجة، وفيه ابتنى بخديجة، وولدت فيه خديجـة أولادها جميعاً، وفيه توفيت خديجـة فلم يزل النبى (ص) ساكناً فيه، حتى خرج إلى المدينـة مهاجراً، فأخـذه عقيل بن أبى طالب، ثم اشتراه منه معاوية، و هو خليفة، فجعله مسجداً يصلى فيه، و بناه بناءه هذا، وحدّ الحدود التى كانت لبيت خديجة لم تغير فيما ذكر عن من يوثق به من المكيين، وفتح معاوية فيه باباً من دار أبى سفيان بن حرب، وهو قائم إلى اليوم، وهى الدار التى قال رسول الله (ص) يوم الفتح: «من دخل دار أبى سـفيان فهو آمن»، وهى الدار التى يقال لها اليوم: دار ريطة بنت أبى العباس أمير المؤمنين». (۲) ۳. ومسـجد فى دار الأـرقم بن أبى الأرقم المخزومى التى عنـد الصـفا، يقال لها دار الخيزران، كان بيتاً، وكان رسول الله (ص) مختبياً فيه، وفيه أسلم عمر بن الخطاب. (۳)

۱- أخبار مكـة وما جاء فيها من الآثار، الطبعـة الثالثة، دراسة وتحقيق رشدى ملحس ۱۹۹: ۲ مكةالمكرمة، مطابع دار الثقافة ۱۳۹۸ ه-/ ۱۹۷۸ م.

۲- أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار، ۱۹۹: ۲.

۳- المصدر السابق، ۲۰۰: ۲.

ص: ۹۸

يستمرّ الإمام أبوالوليد الأزرقى فى سرد حديثه عن الأماكن التاريخية المأثورة فى عصره، وقد بلغت ثمانية عشر موقعاً يتم سردها على النحو التالى:

۴. مسجد بأعلى مكة عند الردم، عند بئر جبير بن مطعم، يقال: إنّ النبى (ص)، صلى فيه، وقد بناه عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وبنى عنده جنبذاً، (۱) يسقى فيه الماء.

۵. و مسجد بأعلى مكّة أيضاً، يقال له: مسجد الجن، وهو الذى يسميه أهل مكة مسجد الحرس، وإنما سمّى مسجد الحرس: أنّ صاحب الحرس كان يطوف بمكة حتى إذا انتهى إليه، وقف عنده ولم يجزه، حتى يتوافى عنده عرفاؤه وحرسه، يأتونه من شعب بنى عامر، ومن ثنية المدنيين، فإذا توافوا عنده رجع منحدراً إلى مكة، وهو فيما يقال له: موضع الخط الذى خط رسول الله (ص) لابن مسعود ليلة استمع إليه الجن، وهو يسمى مسجد البيعة، يقال إنّ الجن بايعوا رسول الله (ص) فى ذلك الموضع.

۶. ومسجد يقال له مسجد الشجرة، بأعلى مكة فى دبر دار منارة، بحذاء هذا المسجد، مسجد الجن؛ يقال: إنّ النبى (ص) دعا شجرة كانت فى موضعه، وهو فى مسجد الجن، فسألها عن شىء، فأقبلت تخطّ بأصلها وعروقها الأرض، حتى وقفت بين يديه، فسألها عما يريد، ثم أمرها فرجعت، حتى انتهت إلى موضعها.

(ع). ومسجد بأعلى مكة عند سوق الغنم عند قرن مسقلة، (۲) ويزعمون أنّ عنده بايع النبى (ص) الناس بمكة يوم الفتح.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى عن الزنجى، عن ابن جريج، حدثنا عبد الله بن عثمان خيثم أنّ محمد بن الأسود ابن خلف الخزاعى أخبره أنّ أباه الأسود حضر رسول الله (ص) عند قرن مسقلة بالمعلاة، قال: فرأيت النبى (ص) جاءه الرجال والنساء والصغار والكبار، فبايعهم على الإسلام والشهادة، قال: قلت: وما الشهادة؟ قال محمد بن الأسود: شهادة أن لا إله إلا الله، و أنّ محمداً عبده و رسوله.

۸. و مسجد السّرَر: وهو المسجد الذى يسميه أهل مكة: مسجد عبدالصمد بن على، كان بناه.

۹. و مسجد بعرفة، عن يمين الموقف، يقال له مسجد إبراهيم، وليس بمسجد عرفة الذى يصلى فيه الإمام.

۱۰. ومسجد الكبش بمنى.

۱۱. ومسجد بأجياد، وموضع فيه يقال له (المتّكا)، سمعت جدى أحمد بن محمد، ويوسف بن محمد بن إبراهيم يسألان عن المتكا، وهل يصح عندهما أنّ النبى (ص) اتكى فيه؟

۱- معنى الجنبذ كما يذكره الزبيدى الجنبذة، وقد تفتح الباء أى مع ضم الجيم على كل حال، أو هو لحن، وقد حكى الجوهرى الفتح من العامة، وهو: ما ارتفع من الشىء واستدار كالقبة. قلت و هو فارسى معرب، وأصله: گنبد، وفى المحكم: والجنبذة: المرتفع من كل شىء، وما علا من الأرض، واستدار، ومكان مجنبذ: مرتفع، وهى صفة الجنة، ووسطها جنابذ من ذهب وفضة يسكنها قوم أهل الجنة كالأعراب فى البادية ...، الزبيدى، محمد مرتضى الحسينى، تاج العروس، دراسة وتحقيق على شيرى ۳۵۳: ۵ بيروت: دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام ۱۴۱۴ ه-/ ۱۹۹۴ م، مادة جنبذ.

۲- «بين شعب ابن عامر و حرف دار رائعة فى أصله، قال ابن ظهيرة: وهذا المسجد لايعرف الآن» رشدى ملحس، تحقيق كتاب أخبار مكة للأزرقى، ۲۰۱: ۲، هامش ۵.

ص: ۹۹

فرأيتهما ينكران ذلك ويقولان: لم نسمع به من ثبت؛ قال لى جدى: سمعت الزنجى مسلم بن خالد، وسعيد بن سالم القداح وغيرهما من أهل العلم يقولون: إنّ أمر المتّكا ليس بالقوى عندهم، بل يضعفونه، غير أنه يثبتون أنّ النبى (ص) صلى بأجياد الصغير، لايثبت ذلك الموضع، ولا يوقف عليه، قال: و لم أسمع أحداً من أهل مكة يثبت أمر المتّكا.

۱۲. مسجد على جبل أبى قبيس، يقال له: مسجد إبراهيم، سمعت يوسف بن محمد بن إبراهيم يسأل عنه: هل هو مسجد إبراهيم خليل الرحمن؟ فرأيته ينكر ذلك، ويقول:

إنما قيل هذا حديثاً من الدهر، لم أسمع أحداً من أهل العلم يثبته.

قال أبو الوليد: وسألت جدى عنه فقال لى: متى بنى هذا المسجد؟ إنما بنى حديثاً من الدهر، ولقد سمعت بعض أهل العلم من أهل مكة يسأل عنه: أهذا المسجد مسجد إبراهيم خليل الرحمن؟ فينكر ذلك، ويقول: بل هو مسجد إبراهيم القبيسى، لإنسان كان فى جبل أبى قبيس ساسى يسأل عنده.

فقلت لجدى: فإنى سمعت بعض الناس يقول: إنّ إبراهيم خليل الرحمن حين أمر بالأذان فى الناس بالحج، صعد على جبل أبى قبيس فأذن فوقه، فأنكر ذلك، وقال: لا لعمرى ما بين أصحابنا اختلاف، إنّ إبراهيم خليل الرحمن حين أمر بالأذان فى الناس بالحج، قام على مقام إبراهيم، فارتفع به المقام حتى صار أطول من الجبال، وأشرف على ما تحته، فقال: أيها الناس أجيبوا ربّكم، قال: وقد كنت ذكرت ذلك عند موضع ذكر المقام مفسراً.

۱۳. مسجد بذى طوى: بين ثنية المدنيين المشرفة على مقبرة مكة، وبين الثنية التى تهبط على الحصحاص، وذلك المسجد بنته زبيدة بأزج.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى، أخبرنا الزنجى عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة أنّ نافعاً حدثه أنّ عبدالله بن عمر أخبره أنّ رسول الله (ص)، كان ينزل بذى طوى حين يعتمر، وفى حجته حين حج (ص) تحت سمرة فى موضع المسجد.

حدثنا أبو الوليد قال: وحدثنى جدى، أخبرنا مسلم، عن ابن جريج، قال: وحدثنى نافع أنّ ابن عمر حدثه أنّ رسول الله (ص) كان ينزل بذى طوى، فيبيت به حتى يصلى الصبح حين يقدم مكة، ومصلّى رسول الله (ص) ذلك على أكمة غليظة ليس بالمسجد الذى بنى ثم، ولكنه أسفل من الجبل الطويل الذى قبل باب الكعبة، يجعل المسجد الذى بنى بيسار المسجد بطرف الأكمة، ومصلّى رسول الله (ص) أسفل منه على الأكمة السوداء، تدع من الأكمة عشرة أذرع، أو نحوها بيمين، ثم يصلى مستقبل الفرضين من الجبل الطويل الذى بينه وبين الكعبة.

۱۴. ذكر حراء وما جاء فيه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى مهدى بن أبى المهدى، حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعانى، عن معمر، أخبرنى الزهرى عن عروة عن عائشة، أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله (ص) من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لايرى رؤيا إلّا جاءته مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه- وهو التعبد والتبرر الليالى ذوات العدد- و يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ابنة خويلد، فيتزود بمثلها حتى فجأه الحق، وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال: إقرأ، قال:

ص: ١٠٠

فقلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية، حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: إقرأ، فقلت: ما أقرأ؟ فقال:

إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ* خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ...، حتى بلغ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

١٥. ذكر (ثور) وما جاء فيه: حدثنا أبو الوليد: حدثنى محمد بن أبى عمر العدنى، عن سعيد بن سالم القداح، عن عمر بن جميل الجمحى، عن ابن أبى مليكة: أنّ النبى (ص) لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور، جعل أبوبكر يكون أمام النبى (ص) مرة، وخلفه مرة، قال: فسأله النبى (ص) عن ذلك فقال: إذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك، وإذا كنت خلفك خشيت أن توتى من أمامك حتى انتهينا إلى الغار، وهو فى ثور، قال أبوبكر: كما أنت، حتى أدخل يدى فأجسه، فإن كان فيه دابة أصابتنى قبلك، قال: وبلغنى أنه كان فى الغار جحر، فألقم أبوبكر رجله ذلك الجحر، فرَقا أن يخرج منه دابة، أو شىء يؤذى رسول الله (ص).

١٦. ذكر مسجد البيعة: قال حدثنا أبو الوليد قال: حدثنى جدى، قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن العطار، عن عبد الله بن عثمان بن خيثم، عن أبى الزبير محمد بن مسلم، أنّه حدثه جابر بن عبد الله الأنصارى: أنّ رسول الله (ص) لبث بمكة عشر سنين، يتبع الحاج فى منازلهم فى الموسم بمجنة، وعكاظ، ومنازلهم بمنى يقول: من يؤوينى، وينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة، فلا يجد أحداً يؤويه حتى إنّ الرجل يرحل صاحبه من مضر، أو اليمن فيأتيه قومه، أو ذو رحمه فيقولون: إحذر فتى قريش، لايفتنك يمشى بين رجالهم، يدعوهم إلى الله، يشيرون إليه بأصابعهم، حتى بعثنا الله له من يثرب، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور يثرب، إلّا وفيها منا رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم بعثنا الله له فأتمرنا، واجتمعنا سبعين رجلًا منا، فقلنا: حتى متى ندع رسولالله (ص)، يُطرد فى جبال مكة ويخاف!؟

فرحلنا حتى قدمنا عليه فى الموسم، فتواعدنا شعب العقبة، واجتمعنا فيه من رجل، ورجلين حتى توافينا عنده، وقلنا: يا رسول الله على ما نبايعك؟ قال: تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى أن تقوموا فى الله لا تأخذكم فى الله لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم يثرب، فتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم، وأبناءكم، وأزواجكم، ولكم الجنة.

فقمنا إليه نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو أصغر السبعين رجلًا إلّا أنا، فقال: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلّا ونحن نعلم أنه رسول الله (ص) إنّ إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم، وعلى قتل خياركم، ومفارقة العرب كافة، فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون على أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله.

قالوا: أمط عنا يدك يا أسعد بن زرارة، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها، فقمنا إليه رجلًا رجلًا، يأخذ علينا شرطه، ويعطينا على ذلك الجنة.

ص: ۱۰۱

۱ (ع). مسجد الجعرانة: جاء عند الأزرقى: حدثنا عمرو بن دينار، عن عكرمة عن ابن عباس، أنّ رسول الله (ص) اعتمر أربع عمر: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء من قابل، والثالثة من الجعرانة، والرابعة التى مع حجته.

قال: حدثنا أبو الوليد، قال: حدثنى جدى عن الزنجى، عن ابن جريج، قال: أخبرنى زياد أنّ محمد بن طارق أخبره أنه اعتمر مع مجاهد من الجعرانة، وأحرم من وراء الوادى حيث الحجارة المنصوبة، قال: من هاهنا أحرم النبى (ص) وإنى لأعرف أول من اتخذ هذا المسجد على الأكمة، بناه رجل من قريش سمّاه، واشترى مالًا عنده نخلًا، فبنى المسجد؛ قال ابن جريج: فلقيت أنا محمد بن طارق، فسألته فقال: اتفقت أنا ومجاهد بالجعرانة فأخبرنى أنّ المسجد القصى الذى من وراء الوادى بالعدوة القصوى، مصلّى النبى (ص) ما كان بالجعرانة، قال: فأما هذا المسجد الأدنى، فإنما بناه رجل من قريش، واتخذ ذلك الحائط ...

۱۸. مسجد التنعيم: حدثنا أبو الوليد، قال: حدثنى جدى، قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن العطار، عن ابن خيثم، عن يوسف بن ماهك، عن حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر، أنّ رسول الله (ص) قال لعبدالرحمن: أردف أختك- يعنى عائشة- فأعمرها من التنعيم، فإذا هبطت بها الأكمة فمرها فلتحرم، فإنها عمرة متقبلة.

قال حدثنا أبو الوليد، حدثنى جدى، قال: حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، قال: رأيت عطاء يصف الموضع الذى اعتمرت منه عائشة: قال: فأشار إلى الموضع الذى ابتنى فيه محمد بن على الشافعى المسجد الذى وراء الأكمة، وهو المسجد الخراب.

قال الخزاعى: ثم عمّره أبوالعباس عبد الله بن محمد بن داود، وجعل على بئره قبة، وهو أمير مكة، ثم بنته العجوز وجودته، وأحسنت بناءه فى سنة. (۱) يلاحظ فى السياق السابق دقة الإمام الأزرقى العلمية، وتحقيقه الصحيح من الروايات، وبيان ما تصح نسبته إلى التاريخ النبوى الشريف، والتثبت منه كما هو مشهور، ومعروف عنه؛ فقد انتشر كتابه هذا بين الناس بسبب دقته، وتنوع أخباره، وصحة أسانيده؛ فمن ثم بقى مصدراً رئيساً للمؤرخين والرحالة، وأصحاب المناسك، وكتب الفضائل، حتى إنّ القارئ لايكاد يجد واحداً من المؤلفين فى الموضوع لم يعتمده فى النقل، والإحالة عليه مباشرة فى أغلب الأحيان، وبواسطة الناقلين عنه أحياناً أخرى. (۲)* ثانياً: كتاب (أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه)

تأليف: أبو عبد الله محمد ابن إسحاق الفاكهى، المتوفى (عام ۲۴۵ ه-/ ۸۵۹ م). (۳) خصص باباً بعنوان: (المواضع التى يستحب فيها الصلاة بمكة وآثار النبى (ص) فيها وتفسير ذلك).

۱- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ۱۹۸: ۲- ۲۰۹.

۲- الهيلة، محمدالحبيب، التاريخ والمؤرخون بمكة: ۱۶.

۳- الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، مكة المكرمة: مطبعة النهضة الحديثة، عام ۱۴۰۷ ه-/ ۱۹۸۷ م ۵: ۴- ۳۶.

ص: ۱۰۲

ذكر تسعة عشر موضعاً وافق فى بعضها سلفه العلامة الأزرقى، وزاد عليه مواضع أخرى، جاء ذكر هذه المواضع كالتالى:

۱. البيت الذى ولد فيه رسول الله (ص) فى دار أبى يوسف، ولم يزل هذا البيت فى الدار حتى قدمت الخيزران أمّ الخليفتين: موسى وهارون، فجعلته مسجداً يصلى فيه، وأخرجته من الدار، وزعم بعض المكيين أنّ رجلًا من أهل مكة يقال له: سليمان بن أبى مرحب كان يذكر: أنّ ناساً سكنوا هذا البيت، ثم انتقلوا منه، قالوا: (والله ما أصابتنا فيه حاجة، ولاجائحة قط، فلما خرجنا منه اشتد علينا الزمان). وهو من أصحّ الآثار عند أهل مكة، يحقق ذلك مشايخهم.

۲. بيت النبى (ص): وهو المنزل الذى كانت تنزله خديجة بنت خويلد (س) و فيه كان مسكن رسول الله (ص)، وفيه ابتنى (ص) بها، وولدت فيه خديجة (س) أولادها جميعاً، وفيه توفيت رضى الله عنها، فلم يزل رسول الله (ص) ساكناً فيه حتى خرج زمن الهجرة، فأخذه عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه، فيما أخذه، فاشتراه معاوية وهو خليفة، فاتخذه مسجداً يصلى فيه وبناه بناءاً جيّداً.

وحدوده الحدود التى كانت لبيت خديجة (س) لم تغير، غير أن معاوية بن أبى سفيان، لما بناه فتح فيه باباً من دار أبى سفيان بن حرب بن أميه، و هى الدار التى قال رسول الله (ص) فيها يوم الفتح: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»، وهى التى عرفت فى زمن الفاكهى برائطة بنت أبى العباس ...

۳. الموضع الذى بأجياد الصغير، وهو الذى كان يقال له (المتّكا).

۴. مسجد دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى: عند الصفا فى الدار التى تعرف بالخيزران، كان رسول الله (ص) مختفياً فيها، وفيه أسلم عمر بن الخطاب، وكان النبى (ص) يدعو فيها إلى الإسلام.

۵. مسجد بعرفة عن يمين الإمام فى الموقف، يقال له: مسجد إبراهيم، و ليس بمسجد عرفة؛ حدثنا على بن المنذر الكوفى قال: ثنا ابن فضيل، قال: ثنا يزيد بن أبى زياد، قال: خرجنا مع مجاهد نسير حتى إذا خرجنا من الحرم نحو عرفات، قال: هل لكم فى مسجد كان ابن عمر يستحب أن يصلى فيه؟ قال: قلنا: نعم، فصلينا فيه، ثم قال: لقد صلّى فيه سبعون نبياً كلّهم يؤم الخيف.

۶. مسجد الكبش الذى بمنى: وإنّما سمى مسجد الكبش، لأنّ الكبش الذى ذبح إبراهيم فداء إسماعيل صلوات الله على محمد وعليهما وسلم، نزل عليه فى موضع المسجد.

(ع). مسجد بأعلى مكة، عند الردم الأعلى عند بئر جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل، ويقال لها: البئر العليا، يقول: إنّ النبى (ص) صلّى فيه.

عن عبد الرحمن بن كيسان قال: حدثنى أبى: قال: رأيت النبى (ص) يصلى الظهر والعصر، متلبساً بثوب عند البئر العليا.

وقد بنى هذا المسجد عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد، وبنى جنيبذاً، إلى جنبه حوضاً يسقى فيه الماء.

وسمعت بعض أهل مكة من الفقهاء يقول: كان الناس لا يجاوزون فى السكن فى قديم الدهر هذه البئر، إنما كان الناس فيما دونها إلى المسجد، وما فوق ذلك خال من الناس.

ص: ۱۰۳

۸. مسجد بأعلى مكة، يقال له: مسجد الحرس، وهو الذى يعرف به اليوم، وإنّما سمى مسجد الحرس، لأنّ صاحب الحرس بمكة كان يطوف، فيجتمع إليه أعوانه من شعاب مكة، وأرباعها عند ذلك المسجد، فسمى مسجد الحرس، وهو فى طرف الحجون، وهو مسجد الجن الذى خط فيه رسول‌الله (ص) لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه خطاً ...، أما الجن الذين لقوه (ص) بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه (ص) بمكة فجن نُصيَبين.

۹. مسجد البيعة: بيعة الأنصار ليلة العقبة، عقبة منى.

۱۰. مسجد بذى طوى: عند مفترق الطريقين، طريق التنعيم، وطريق جدّة، يقال له: مسجدالنبى (ص).

۱۱. مسجد يقال له: مسجد الشجرة، بأعلى مكة فى دبر دار منارة البيضاء، التى عند سفح الجبل مقابل الحجون، بحذاء مسجد الحرس، كانت فيه شجرة، وأنّ النبى (ص) دعاها من موضعها فجاءته.

۱۲. مسجد يقال له السّرَر: وهو الذى بناه عبدالصمد بن على؛ عن محمد بن عمران الأنصارى، عن أبيه أنه قال: عدل إلىّ عبد الله بن عمر و أنا نازل تحت سرحة بطريق مكة، فقال: ما أتى بك تحت هذه الشجرة؟ قلت: أردت ظلّها؛ قال: فهل غير هذا؟ قلت: لا، ما أنزلنى إلّا ذلك؛ قال عبد الله: قال رسول الله (ص): «إذا كنت بين الأخشبين من منى- ونفح بيده نحو المشرق- فإنّ هناك وادياً يقال له: السّرر، به سرحة نزل تحتها سبعون نبياً».

۱۳. مسجد عند البرّامين: إلى الجدر الذى يلى دار عمر بن عبدالعزيز، مقابل جدار أبى سفيان، يزعم بعض المكيين أنّ النبى (ص) كان كثيراً مّا يجلس فيه، وكان لبيت خديجة (س) طريق إليه إلى جنب دار أبى سفيان.

۱۴. مسجد عند شعب على بن أبى طالب (ع): يقال: إنه دخل فى دار الحارث بن عبد المطلب، وإنّ النبى (ص) كان يصلى فيه، ويجلس فيه، فالله أعلم كيف ذلك.

۱۵. مسجد بذى طوى: عند ثنية المدنيين المشرفة على مقبرة مكة، وبين الثنية التى تهبط على الحصحاص، وذلك المسجد بنته زبيدة بأزج. (۱) ۱۶. مسجد الشجرة، حدثنى عبدالله بن أحمد قال حدثنى إبراهيم بن عمرو، قال أخبرنى عبد المجيد بن أبى داود عن أبيه قال: زعموا أنّ النبى (ص) صلى فى مسجد الشجرة، يعنى المسجد الذى دون يأجج.

۱ (ع). مسجد فى جبل ثور، فى طريق عرنة على يسارك، وهو الغار الذى ذكره الله عزّوجلّ فى كتابه يقول:

إذْ همَا فِي الغارِ إذْ يقولُ لِصَاحِبه لَا تحَزنْ إنَّ اللَه مَعَنَا ....

۱۸. مسجد فى جبل حراء، كان رسول الله (ص) يأتيه ويعتكف فيه الأيام. (۲) الدراسة المقارنة:

۱- يذكر المحقق: وهذا المسجد على يمينك وأنت متجه إلى بئر طوى عند مفترق الطريقين، وقد أزيل فى توسعة الشارع المذكور، الفاكهى، أخبار مكة فى قديم الدهر و حديثه، ۲۷: ۴، وانظر لهذا المسجد فى الجزء نفسه: ۳۳.

۲- أخبار مكة فى قديم الدهر و حديثه، ۵: ۴- ۳۶.

ص: ۱۰۴

بالمقارنة بين قائمة الأماكن الإسلامية التاريخية عند الأزرقى، والإمام الفاكهى، نجد أنّ بينهما اتفاقاً على تسمية بعض الأماكن، و صلتها بالنبى (ص) و التاريخ الإسلامى و هى:

البيت الذى ولد فيه رسول الله (ص).

بيت النبى (ص): وهو المنزل الذى كانت تنزله أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد (س).

دارالأرقم بن أبى الأرقم المخزومى.

مسجد بعرفة عن يمين الإمام فى الموقف، يقال له مسجد إبراهيم وليس بمسجد نمرة.

مسجد الحرس (مسجد الجن) بأعلى مكة.

مسجد البيعة.

مسجد بذى طوى، عند مفترق الطريقين: طريق التنعيم، وطريق جدّة.

مسجد الشجرة بأعلى مكة.

مسجد السرر.

۱۰. جبل ثور.

۱۱. جبل حراء.

هذه مجموعة من الأماكن، متفق على أنها مأثورة متواترة، لم يحك فيها اختلاف بين العلماء حتى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى.

و احتوت القائمة عند الإمام الفاكهى إضافات جديدة، زيادة على ما هو موجود لدى الإمام الأزرقى، فذكر عناوين لبعض الأماكن الإسلامية التى أصبحت مساجد، لعلاقتها التاريخية بالنبى (ص)، و هى:

۱. مسجد عند شعب على بن أبى طالب (ع).

۲. مسجد البرّامين.

يقتضى البحث التاريخى بعد هذا، استقراء هذه الأماكن الإسلامية المأثورة فى مكة المكرمة عبر القرون التالية.

* ثالثاً: كتاب (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام):

للحافظ أبى الطيب تقى الدين محمد بن أحمد بن على الفاسى المكى المالكى ((ع) (ع) ۵- ۸۳۲ ه-/ ۱۳ (ع) ۳- ۱۴۲۸ م). (۱) خصّ الباب الحادى و العشرين: (فى ذكر الأماكن المباركة التى ينبغى زيارتها، الكائنة بمكة المشرفة وحرمها وقربه)، و قد صنفها أقساماً: مساجد، و دوراً، و جبالًا، و مقابر.

و مما تجدر الإشارة إليه أنّ الإمام تقى الدين الفاسى، جدد المعلومات عن هذه الأمكنة، و وصفها وصفاً دقيقاً على ما كانت عليه حالها فى زمنه، فقد جاء فى ثنايا كتابته عن بعضها فى أكثر من موضع هذه العبارة: «و كان تحرير ما ذكرناه بحضورى»، مما يقدر له تمام الاهتمام و التحرير و التدقيق.

۱- الطبعة الثانية، تحقيق و مقابلة أيمن فؤاد سيد ومصطفى محمد الذهبى، مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، عام ۱۹۹۹ م.

ص: ١٠٥

ليس هـذا فحسب، بل إنه يصـحّح الصـحيح منها، ويؤكـده بتحقيقه بالوسائل العلميـة، والنقول المتوافرة لديه، ويضـعّف الضـعيف منها بأسـلوب علمى موضوعى، الأمر الـذى يقوى الثقـة فى اعتمـاد كتابـاته، والتسـليم بهـا، ليس غريبـاً من الإمام تقى الـدين الفاسـى، فهو محـدث، فقيه، تولى القضاء بمكـة المكرمة، دوّن فى كتابه ما دوّن من حقائق، بحاسة العالم الذى يحمل أمانة علمية، ينبغى أن يؤديها على وجهها الأكمل، وقد فعل رحمه الله تعالى، فأدى الأمانة بكل صدق وإخلاص.

تجلى هـذا فيمـا ذكره تحت العنوان السـابق فى صـفحات عديـدة يصـعب نقلها كاملـة هنا، و لكن يتمّ الاقتباس لأجزاء منها بما يتفق و أهداف هذا البحث؛ لتقديم صورة واضـحة عن هذه الأماكن المأثورة المتواترة لاحقاً عن سابق، فى تواتر علمى سـليم، بل إنّ هذا يعدّ من خصائص المدرسة التاريخية المكيّة بالتسـلسل من الإمام الأزرقى، نزولًا إلى الإمام تقى الدين الفاسى، و قد جاء العرض على النحو التالى:

«هـذه الأماكن مساجـد، و دور، و جبال، و مقابر، و المساجد أكثر من غيرها، إلّا أنّ بعضـها مشـتهر باسم المولد، و بعضـها باسم الدار، والمقصود ذكره هنا ما اشتهر من ذلك بالمساجد ... فمن ذلك:

١. مسـجد بقرب المجزرة الكبيرة من أعلاها على يمين الهابط إلى مكـة، ويسار الصاعـد منها، يقال: إنّ النبى (ص) صـلّى فيه المغرب على ما وجدت بحجرين فيه:

أحـدهما بخط عبـد الرحمن بن أبى حرمى، وفيه: أنه عمر فى رجب سـنة ثمان وثمانين وخمسـمائة؛ و فى الآخر أنه عمر فى سـنة سـبع وأربعين وستمائة.

ثم ذكر مساحـة هذا المسـجد، والمسافة بينه وبين جدار باب بنى شـيبة، ثم أردف ذلك بقوله ":وحدّد ذلك بحضورى أيضاً، "..وفى تحقيق هذا الموقع يرد على من يقول: إنه الموقع الذى بايع النبى (ص) الناس عنده يوم الفتح فيقول:

«ويوهم بعض أهل العصـر أنّ هذا المسجد هو المسجد الذى ذكر الأزرقى أنّ عنده قرن مسقلة عند موقف الغنم، وأنّ النبى (ص) بايع الناس عنـده يوم فتـح مكة، على ما يقال، وسـبب هذا التوهم أنّ المسـجد الذى ذكرنا ذرعه، وشـيئاً من خبره يلحق بجبل، و عنده الآن سوق الغنم، وليس هذا التوهم صـحيحاً؛ لأنّ الجبل الذى عنده هذا المسـجد، هو المشـرف على المروة، ويسمى جبل الديلمى، على ما ذكره الأزرقى، وهو فى شق معلّى مكة الشامى، وقرن مسقلة الذى أشار إليه الأزرقى، ذكره الأزرقى فى شق معلّى مكة اليمانى.

٢. و من ذلك مسـجد فوقه يقال له: مسـجد الرايـة: وعرفه بـذلك المحب الطبرى فى (القرى)، وهو من المساجد التى صـلى فيها النبى (ص) على مـا يقـال، كما ذكر الأزرقى، وذكر أنّ عبـد الله بن العباس بن محمـد بن على بن عبـد الله بن العباس بناه، و كان فيه لوحان مكتوبان: أحدهما كوفى لايعرف، والآخر فيه أنّ المسـتعصم العباسـى أمر بعمله فى شـعبان سـنة أربعين وستمائة، وعمره فى أوائل سنة إحـدى وثمانمائـة الأمير قطلبك الحسامى المنجكى، ثم ذكر مساحته ثم عـددها إلى أن قال ":وكان تحرير ذلك بحضورى. "(١) ٣.

ومن ذلـك مسـجد بسوق الليل قرب مولـد النبى (ص) يقال له المختبا: يزوره الناس كثيراً فى صبيحـة اليوم الثانى عشـر من شـهر ربيع الأول من كل سنة، ولم أر من ذكره، ولا عرفت شيئاً من خبره.

١- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ۴۹۳: ١.

ص: ۱۰۶

۴. ومن ذلك مسجد بأسفل مكة ينسب لأبى بكر، ويقال: إنه من التى هاجر منها إلى المدينة، والله أعلم.. وهو مكان مشهور بالموضع المشهور بالحجارية، براء مهملة، بأسفل مكة بالقرب من باب ماجن.

ومن ذلك مساجد خارج مكة من أعلاها منها:

۵. المسجد الذى يقال له مسجد الإجابة على يسار الذاهب إلى منى، فى شعب بقرب ثنية أذاخر، وهو مسجد مشهور، يقال: إنّ النبى (ص) صلى فيه، وقد ذكره الأزرقى، وذكر شيئاً من خبر الشعب الذى هو به؛ لأنه قال فيما رويناه عنه بالسند المتقدم: شعب آل قنفذ بن زهير من بنى أسد بن خزيمة، وهو الشعب الذى على يسارك، وأنت ذاهب إلى منى من مكة، فوق حائط خرمان، وفيه اليوم دار الخليفتين من بنى مخزوم، وفى هذا الشعب مسجد مبنى يقال: إنّ النبى (ص) صلّى فيه، وينزله اليوم فى الموسم الحضارمة. انتهى.

وهذا المسجد الآن متخرب جداً، وجدرانه ساقطة إلّا القبلى، وفيه حجر مكتوب فيه أنه مسجد الإجابة، وأنّ عبد الله بن محمد عمّره فى سنة عشرين وسبعمائة..، ثم ذكر مساحة المسجد، وأنّه «حرّر ذلك بحضورى». (۱) ۶. مسجد البيعة: وهى البيعة التى بايع رسول الله (ص) فيها الأنصار، بحضرة عمّه العباس بن عبدالمطلب ... وهذا المسجد بقرب العقبة التى هى حدّ منى من جهة مكة، وهو وراء العقبة بيسير إلى مكة فى شعب على يسار الداخل إلى منى؛ ثم تحدث عن الحجارة المكتوبة، ثم وصفه وصفاً دقيقاً، و ذكر مساحته، و كرّر عبارة «وكان تحرير ما ذكرناه بحضورى». (۲) (ع). مسجد بمنى، عند الدار المعروفة بدار المنحر، بين الجمرة الأولى والوسطى، على يمين الصاعد إلى عرفة، وهذا المسجد ينسب إلى النبى (ص) على ما يقال؛ لأنّ فيه حجراً مكتوباً فيه ":هذا مسجد سيّد الأولين والآخرين صلّى فيه الضحى، ونحر هديه " ...وذكر مساحته ووصفه، وأنه كان "تحرير ذلك بحضورى. "(۳) ۸. مسجد الكبش بمنى، على يسار الذاهب إلى عرفة: وهو مشهور بمنى، والكبش المشار إليه هو الذى فدى الله تعالى به نبيّه إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام)، و هذا المنحر هو الدار المعروفة بدار المنحر بمنى بين الجمرتين: الأولى والوسطى، بقرب المسجد الذى سبق ذكره قبل هذا، وهى مشهورة بذلك عند الناس، وعندها ينحر هدى صاحب اليمن ...، (۴) ثم تطرق إلى وصفه، وذكر مساحته.

۹. مسجد الخيف بمنى: وهو مسجد عظيم الفضل؛ لأحاديث وأخبار وردت فى ذلك ... ومنها ما رويناه فى معجم الطبرانى الكبير من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله (ص): «صلّى فى مسجد الخيف سبعون نبياً منهم موسى».

۱- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ۴۹۶: ۱.

۲- المصدر السابق.

۳- المصدر السابق: ۴۹۷.

۴- المصدر السابق،: ۴۹۸.

ص: ۱۰۷

وبه إلى ابن جريج عن إسماعيل بن أميـة أنّ خالـد بن مضـرس أخبره أنه رأى أشـياخاً من الأنصـار، يتحرّون مصـلّى النبى (ص) أمام المنارة قريباً منها، وبه إلى الأزرقى قال: قال جـدّى: الأحجار التى بين يـدى المنارة هو موضع مصـلّى النبى (ص) ولم يزل الناس وأهل العلم يصلّون هنالك. (۱) وقد أسهب العلامة الفاسى فى الحديث عن مسجدالخيف، واستحباب زيارته، والأحاديث الواردة فى ذلك، ثم تطرق للحـديث عنه من الناحيـة المعمارية، وامتداد مساحته، وتحديد مصـلّى النبى (ص) به، كما تكلم عن بعض المعالم الحضارية به: المنارة، والسـقاية، والذين تولّوا عمارته من الولاة والتجّار؛ واقترح فى نهاية عرضه بعض المقترحات المعمارية فيما يخص بابه. (۲)

۱۰. المسـجد الذى اعتمرت منه عائشة، بعد حجّها فى حجة الوداع، و هذا المسـجد بالتنعيم، تحدث الفاسى هنا عن من قام بتعميره من الخلفـاء والملوك، والأعيـان، كمـا حرّر مسـاحته. (۳) ۱۱. مسـجد الفتـح بـالقرب مـن الجمـوم، مـن وادى مر الظهران، يقـال: إنّـه من المساجد التى صـلّى فيها النبى (ص) بين مكة والمدينة، ذكره شيخنا القاضى زين الدين بن حسين المراغى المدنى فى تاريخه للمدينة المنورة، فى المساجد التى نقل أنّ النبى (ص) صلّى فيها بين مكة والمدينة، ونص كلامه:

«ومسجد فى المسيل الذى بوادى مر الظهران، حين يهبط من الصفراوات عن يسار الطريق وأنت ذاهب إلى مكة، ومرّ الظهران هو بطن مر، المعروف الآن بمسجد الفتح».

أخيراً اختتم هـذا الجزء من هذا الباب بقوله: «فهذه الأماكن المباركة بمكة وحرمها، وقربه، المعروفة الآن بالمساجد، وقد ذكر الأزرقى مساجد أخر لا يعرف موضعها الآن..». (۴) ثم انتقل إلى عنوان جديد آخر: (ذكر المواضع المباركة بمكة المشرفة المعروفة بالمواليد)، بدأها بقوله:

«هذه المواضع هى مساجد، وإنما هى معروفة عند الناس ب- (المواليد) و لذلك أفردناها عن المساجد بالذكر، فمنها:

۱. المولد الذى يقال له: مولد النبى (ص) بالموضع الذى يقال له: سوق الليل، وهو مشـهور عند أهل مكة، وذكر السـهيلى ما يسـتغرب فى تعيين الموضع الـذى ولـد فيه النبى (ص) وفيمن بناه؛ لأنه قال: و ولد بالشـعب، وقيل: بالدار التى عند الصـفا، وكانت بيد محمد بن يوسف أخى الحجّاج، ثم بنتهـا زبيـدة مسـجداً حين حجّت، وذكر الحافظ علاء الـدين مغلطاى فى سيرته ما يسـتغرب أيضاً فى تعيين الموضع الـذى ولـد فيه النبى (ص)؛ لأنـه قـال: فيمـا أنبئت به عنه، ولـد بمكـة، ثم قـال: فى الـدار التى كانت لمحمـد بن يوسف أخى الحجّاج بن يوسف، ويقال: بالشعب، ويقال: بالردم، وقيل: بعسفان، (انتهى).

والمسـتغرب من ذلـك مـا قيـل من أنّ النبى (ص) ولـد بـالردم، وقيـل بعسـفان، والقول بأنه ولـد بالردم، رواه أبوحفص بن شاهين فى الناسخ والمنسوخ؛ لأنه قال: حدثنا أحمد بن عبد الله بن جراد قال: ولد رسول الله (ص)

۱- المصدر السابق ۵۰۱: ۱.

۲- المصدر السابق.

۳- المصدر السابق ۵۰۶: ۱.

۴- المصدر السابق ۵۰۸: ۱.

ص: ١٠٨

بالردم، وختن بالردم، واستبعث من الردم، وحمل من الردم، قال البكرى: ردم بنى جمح بمكة، كانت فيه حرب بينهم وبين بنى محارب بن فهر، فقتلت بنو محارب من بنى جمح أشد القتل، فسمى ذلك الموضع بما ردم عليه من القتل؛ انتهى. (١) ثم تحدث فيما بعد عن الموضوعات التالية فيما يخصّ هذا المكان الشريف: ما ورد فى بركة الموضع، وصفته على ما أدركه الفاسى وتحديد مساحته، وأخيراً ذكر أسماء الخلفاء الذين تولّوا عمارته.

٢. ومنها الموضع الذى يقال له: مولد فاطمة (س): هذا المكان من دار أمها خديجة بنت خويلد (س)، فى الزقاق المعروف بزقاق الحجر بمكة المشرفة. (٢) وقد تكلم عن هذا الموقع مرة أخرى فى (ذكر الدور المباركة فى مكة المشرفة)، فقال: «منها دار خديجة بنت خويلد أمّ المؤمنين (س)، وتعرف هذه الدار ب- (مولد فاطمة (س))، لكونها ولدت فيه هى وإخوتها، أولاد خديجة من النبى (ص) وغالب هذه الدار الآن على صفة المسجد؛ لأنّ فيها رواقاً، و سبعة عقود على ثمانية أساطين فى وسط جداره القبلى ثلاث محاريب ..، وهى ثلاثة مواضع:

الأول: الموضع الذى يقال له: مولد فاطمة.

والثانى: الموضع الذى يقال له: قبة الوحى، وهو ملاصق لمولد فاطمة.

والثالث: الموضع الذى يقال له: المختبأ، وهو ملاصق لقبة الوحى، وهذه الدار أفضل الأماكن بمكة بعد المسجدالحرام، على ما ذكر المحب الطبرى، ولعلّ ذلك لسكنى النبى (ص) فيها سنين كثيرة، من حين تزوج خديجة، وإلى حين هاجر؛ ولكثرة نزول الوحى عليه فيها، وفيها بنى النبى (ص) بخديجة، وفيها ولدت أولادها منه، وفيها ماتت (س). (٣) ٣. ومنها الموضع الذى يقال له: مولد على بن أبى طالب (ع) قريباً من مولد النبى (ص) من أعلاه مما يلى الجبل، وهو مشهور عند أهل مكة بذلك، لا اختلاف بينهم فيه، ولم يذكره الأزرقى، وذكره ابن جبير، وعلى بابه مكتوب: هذا مولد أميرالمؤمنين على بن أبى طالب (ع) وفيه ربى رسول الله (ص)؛ أمر بعمله سيدنا ومولانا أبوالعباس أحمد بن الناصر لدين الله أميرالمؤمنين فى سنة ثمان وستمائة. (۴) ثم تكلم على صفة المكان، وذرعه، يذكر العلامة عفيف الدين عبد الله الميرغنى الرأى الآخر، بأنّ علياً (ع) «ولد فى جوف الكعبة، وضعفه النووى، (۵) وهو يشير بهذا إلى موقف آخر يتبناه علماء الشيعة وهو أنّ ولادة أميرالمؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه كان بالكعبة المشرفة، ومن المؤلفات الجامعة لهذا الموقف كتاب (وليد الكعبة). (۶)

١- المصدر السابق.

٢- المصدر السابق، ٥١١: ١.

٣- المصدر السابق.

۴- المصدر السابق،: ٥١٢.

۵- عدة الإنابة فى أماكن الإجابة،: ٢١٠، الطبعة الأولى، تحقيق عبدالله نذير أحمد مزى، مكةالمكرمة: المكتبة المكية، عام ١۴٢٩ ه-/ ٢٠٠٨ م، فى التعريف بهذا المكان يقول المحقق: «وهو بالمحل المعروف بشعب على، وهو مقابل لمولد النبى ٩ من أعلاه مما يلى الجبل، مشهور عند أهل مكة، لا اختلاف فيه، جامع اللطيف: ٢٨٧».

۶- من إعداد وتقديم السيد محمدرضا الحسينى الجلالى، الطبعة الأولى، إيران: مطبعة شريعت، عام ١٣٨٣/ ١۴٢۵ ه-.

ص: ۱۰۹

«ولا أثر له الآن، فأصبح مواقف سيارات على يسار المولد النبوى للمتجه إلى الحرم». (۱) ۴. ومنها الموضع الذى يقال له مولد جعفر الصادق (ع) بالدار المعروفة بدار أبى سعيد بقرب دارالعجلة؛ لأنّ على بابه حجراً مكتوباً فيه: (هذا مولد جعفر الصادق، ودخله النبى (ص)، (۲) ثم ذكر مساحته، ومن قام بعمارته.

ثم وضع تحت عنوان: (ذكر الدور المباركة بمكة المشرفة) فجاءت منتظمة حسب الترتيب التالى:

دار أمّ المؤمنين السيدة خديجة (س)، وقد سبق الحديث عنه.

۵. ومنها على مايقال: دار لأبى بكر، بهذا الزقاق، وهى مشهورة فيه، وعلى بابها حجر مكتوب فيه: هذه الدار دار صاحب رسول الله (ص) فى الغار، ورفيقه فى الأسفار. (۳) ثم تناول الجانب التاريخى لهذه الدار، ووصف المسجد الذى بها.

۶. ومنها دار الأرقم المخزومى، وهى الدار المعروفة بدار الخيزران عند الصفا؛ والمقصود بالزيارة منها هو المسجد الذى فيها، وهو مشهور من المساجد التى ذكرها الأزرقى ... ولعل هذا الموضع أفضل الأماكن بمكة بعد دار خديجة بنت خويلد (س)، لكثرة مكث النبى (ص) فيه يدعو الناس للإسلام مستخفياً، وإقامته (ص) بهذا الموضع دون إقامته بدار خديجة، ولذلك كانت أفضل من هذا الموضع، والله أعلم. (۴) وقد تكلم عن وصف هذا المسجد، ومساحته، والكتابة الموجودة على اللوحة الموجودة فيه.

(ع). ومن الدور المباركة بمكة، دار العباس بن عبدالمطلب بالمسعى؛ وفيها العلم الأخضر وهى الآن رباط للفقراء. (۵) هذه جملة الأماكن الإسلامية المأثورة فى مكة المكرمة، على ما وصل إليه تعدادها مصنفة لدى تقى الدين الفاسى.

و ذكر، بعد ما تقدم عنواناً آخر، هو: (ذكر الجبال المباركة بمكة وحرمها)، وضمن ما جاء فيه:

۸. مسجد المرسلات؛ وهو يمانى مسجد الخيف، وذكر المحب الطبرى فى كتابه (القرى) فى الباب الثلاثين: ما جاء فى الغار الذى أنزلت فيه سورة (المرسلات) عن عبد الله بن مسعود، قال: بينما نحن مع النبى (ص) فى غار بمنى، إذ نزلت عليه: وَالمُرْسَلاتِ عُرفاً، وإنه ليتلوها، وإنى لألقاها من فيه، وإنّ فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبى (ص): أقتلوها، فابتدرناها فذهبت، فقال النبى (ص): وقيت شركم، كما وقيتم شرها (أخرجه البخارى، فى باب: ما يقتل المحرم من الدواب)، وهذا الغار مشهور بمنى، خلف مسجد الخيف نحو الجبل مما يلى اليمن، كذلك يأثره الخلف عن السلف، والله أعلم. (۶)

۱- عدة الإنابة فى أماكن الإجابة،: ۲۱۰.

۲- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ۵۱۴: ۱.

۳- المصدر السابق ۵۱۶: ۱.

۴- المصدر السابق ۵۱۸: ۱.

۵- المصدر السابق، ۵۱۹: ۱.

۶- المصدر السابق، ۵۳۱: ۱.

ص: ۱۱۰

ومن تصنيفات الفاسى المهمة فى هذا الموضوع، ما ذكره فى الباب الثانى والعشرين: (فى ذكر أماكن بمكة المشرفة التى لها تعلق بالمناسك، وهى ستة وعشرون موضعاً، مرتبة على ترتيب حروف المعجم)، تكلم عنها بالتفصيل. (۱)* رابعاً، كتاب: (الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف)

تأليف العلامة جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبى بكر بن على بن ظهيرة القرشى المخزومى (ت ۹۸۶ ه-/ ۱۵ (ع) ۸ م). (۲) خصّ الخاتمة (فى ذكر الأماكن المعظمة والمشاهد المكرمة التى تقصد زيارتها المشهورة بالفضل بمكة شرفها الله تعالى، وحرمها، وضواحيها، من المواليد، والدور، والمساجد، والجبال، والمقابر، وما أشبه ذلك).

بدأ أول ما بدأ بذكر المواليد فقال:

۱. فمنها، وهو من أجلّها مولد سيدنا رسول الله (ص)، فنبدأ به وهو بمكة فى المكان المعروف بسوق الليل، مشهور بمولد النبى (ص) إلى أن يقول:

"وكون هذا المكان مولده (ص) مشهور، متوارث، يأثره الخلف عن السلف، وجرت العادة بمكة فى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول فى كل عام، أنّ قاضى مكة الشافعى يتهيأ لزيارة هذا المحل الشريف بعد صلاة المغرب، فى جمع عظيم، منهم الثلاثة القضاة، وأكثر الأعيان من الفقهاء، والفضلاء، وذوى البيوت، بفوانيس كثيرة، وشموع عظيمة، وزحام عظيم. "(۳) ثم استمر فى عرض هذه الأماكن بالتفصيل، يرد ذكرها هنا مجملة كالتالى:

۲ ".مولد السيدة فاطمة (س) ابنة سيدنا رسول الله (ص، ")وهو فى دار أمّها خديجة (س)، بمكة فى الزقاق المعروف بزقاق الحجر، وسماها الطبرى: دارخزيمة، وغالب هذه الدار كانت فى زمن المؤلف، على صفة المسجد، وكانت بها قبة يقال لها: قبة الوحى، إلى جنبها موضع يزوره الناس يسمى المختبأ، زعموا أنّ النبى (ص) كان يختبئ فيه من الحجارة التى يرميه بها المشركون، ولا أصل لذلك.

۳. ومنها مولد سيدنا على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، وهو بالمحل المعروف بشعب على، وهو مقابل لمولد النبى (ص) من أعلاه، مما يلى الجبل، مشهور عند أهل مكة لا اختلاف فيه، وعلى بابه حجر مكتوب عليه (هذا مولد أميرالمؤمنين على بن أبى طالب، وفى هذا المحل تربى رسولالله (ص) وقيل: إنّ مولد سيدنا على (ع) فى جوف الكعبة، وضعّفه النووى فى (تهذيب الأسماء واللغات).

۱- المصدر السابق،: ۵۳۹.

۲- الطبعة الثالثة، مكة المكرمة: توزيع مكتبة الثقافة عام ۱۳۹۲ ه-/ ۱۹۳۲ م.

۳- الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف،: ۳۲۵.

ص: ۱۱۱

۴. ومنها فيما قيل مولد سيدنا حمزة بن عبد المطلب، عم النبى (ص)، وهو بأسفل مكة على طريق الذاهب إلى بركة الماجن، (بالنون)، وأهل مكة يقولون: ماجد (بالدال)، وهو خطأ، قال الفاسى: ولم أر شيئاً يدل على صحة ذلك، بل فى صحته نظر؛ لأنّ هذا الموضع ليس محلًا لبنى هاشم، والله أعلم.

۵. مكان يذكر أنه موضع ولادة عمر بن الخطاب، وقد ضعفه الفاسى فيقول: «ولا أعلم فى ذلك شيئا يستأنس به ...»

۶. ومنها موضع .. يقال له مولد جعفر الصادق (ع) ... (۱) ثم استمر فى ذكر الدور المباركة، فأعاد ذكر ما قد سبق ذكره منها، باعتبار أنها مساجد، وذكر من هذه الدور (دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى المعروفة (فى عهده) بدار الخيزران المجاورة للصفا، والمقصود بالزيارة المسجد الذى فيها، لأنّ النبى ۹ كان مستتراً فيه مبدأ الإسلام، وفيه أسلم عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبدالمطلب وغيرهما، ومنه ظهر الإسلام، وبه كان اجتماع الصحابة، فله فضل كبير، وهذا المسجد بنته الخيزران جارية المهدى العباسى ...

و ذكر هنا أيضاً: دار العباس بن عبد المطلب، التى أصبحت فيما بعد رباط للفقراء بالمسعى المعظم، وكان فى جدارها الميلان الأخضران اللذان يسنّ الجرى بينهما حالة السعى. (۲) ثم ذكر المساجد المأثورة فى منى وجهتها فقال: منها ما هو موجود معروف إلى يومنا هذا، ومنها ما هو داثر لايعرف بمكة وخارجها، ثم ذكر المساجد المعروفة فى وقته، فعدّدها وذكر منها: مسجد البيعة، ومسجد الجن، ومسجد الإجابة المعروفة فى وقتنا الحاضر.

أخيراً استعرض (المساجد التى فى منى وجهتها) وذكر منها: مسجد البيعة، مسجد النحر بين الجمرتين: الجمرة الأولى والوسطى على يمين الذاهب إلى عرفة، ومنها: مسجد الكبش على يسار الصاعد إلى عرفة بسفح ثبير، ومنها: مسجد عائشة، وهو بسفح ثبير أيضاً، ومنها: مسجد الخيف، ومنها: بلحف الجبل المشرف على مسجد الخيف المسمى بالضب (بمعجمة موحدة) نقله الصغانى، وبالصفايح أيضاً (بصاد مهملة، آخره تحتية ومهملة)، وقيل: الصابح ... ويعرف بغار المرسلات، وهو مشهور به إلى هذا الوقت، وفى (صحيح البخارى) فى (باب ما يقتله المحرم من الدواب) من رواية ابن مسعود أنه قال: بينما نحن مع النبى (ص) فى غار بمنى إذ نزلت عليه: والمُرْسَلاتِ عُرْفاً، وإنه ليتلوها، وإنى لأتلقاها من فيه، وإنّ فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبى (ص): أقتلوها، فابتدرناها فذهبت، فقال النبى (ص): وقيت شركم، كما وقيتم شرها. ومنها: مسجد عرفة الذى يصلى فيه الإمام، وهو مشهور.. ومنها: مسجد التنعيم التى اعتمرت منها عائشة بعد حجها عام حجة الوداع ...، ومنها: مسجد الجعرانة وهو الذى أحرم منه النبى (ص) بعمرة مرجعه من الطائف بعد فتح مكة ... (۳)

۱- الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف،: ۳۲۵- ۳۲۸.

۲- المصدر السابق،: ۳۲۹- ۳۳۱.

۳- المصدر السابق،: ۳۳۳- ۳۳۸.

ص: ۱۱۲

وقد تعقب العلامة جمال الدين محمد بن ظهيرة المساجد التى ذكرها الإمام الأزرقى، ولم تعرف فى وقته فقال ":وأما المساجد التى ذكرها الأزرقى، ولم تعرف الآن فخمسة مساجد:

الأول: مسجد بأعلى مكة، بين شعب ابن عامر المعروف الآن بشعب عامر.

الثانى: مسجد بأجياد، يقال: إنّ النبى (ص) اتكأ هناك فى موضع منه، قال الأزرقى: إنّ أهل العلم ينكرون ذلك، وإنما يثبتون أنه صلّى بأجياد الصغير، و لايوقف على موضع مصلاه أيضاً تحقيقاً بل حدساً بغير أصل.

الثالث: مسجد بأعلى مكة يقابل مسجد الحرس، يقال له: مسجد الشجرة قيل: إنّ النبى ۹ كان بمسجد الحرس، فدعا شجرة كانت فى هذا المسجد، فأقبلت عليه، فسألها عن شىء، ثم أمرها بالرجوع فرجعت إلى موضعها، وقد دثر.

الرابع: مسجد بذى طوى، فى علومكة بين الثنيتين اللتين يدخل منهما الحاج.

الخامس: مسجد السرر .. غير أنّ تعيين محله يقيناً لايوقف عليه الآن بل جهته.

السادس: مسجد بعرفة عن يمين الموقف يقال له: مسجد إبراهيم، وليس بمسجد عرفة الذى يصلى فيه الإمام.

فهذه المساجد المذكورة لم تعرف الآن ... (۱)* خامساً: كتاب (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام فى تاريخ مكة المشرفة).

تأليف الإمام محمد قطب الدين بن أحمد علاء الدين بن محمد النهروالى المكى الشهير بالقطبى (۹۱ (ع)- ۹۹۰ ه-/ ۱۵۱۱- ۱۵۸۲ م).

جعل الحديث عن الأماكن التاريخية المأثورة خاتمة كتابه بعنوان:

(خاتمة فى ذكر المواضع المباركة والأماكن المأثورة بمكة المشرفة)، وقد عرض لها بشكل مفصل، وتتبع تاريخى منتظم، بدءاً من المواضع التى وردت فى رسالة الإمام الحسن البصرى، ثم ذكر الزيادات التى ذكرها النقاش فيما يتصل بهذه الأمكنة، جاء فى مقدمتها: «دار السيدة خديجة (س)، ثم مولد النبى (ص)، ثم دار الأرقم المخزومى»، ثم ذكر بقية الأمكنة، وما يتصل بتاريخها، وعمارتها.

اقتصر الإمام القطبى النهروالى .. على المعروف منها فى عصره، وهو ما أنهى مقالته بقوله: «فاقتصرنا على المعروف منها». (۲)* سادساً: كتاب (الأرج المسكى فى التاريخ المكى وتراجم الملوك والخلفاء)

۱- المصدر السابق،: ۳۳۸- ۳۳۹.

۲- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام فى تاريخ مكة المشرفة: ۳۵۳.

ص: ۱۱۳

تـأليف: على بن عبـد القادر الطبرى (ت ۱۰ (ع) ۰ ه-/ ۱۶۵۹ م). (۱) عقـد (الفصل الثالث: فى الأماكن المشـهورة فيها [مكـة]، وفى المساجـد) فقـال: «بمكـة ونواحيهـا أمـاكن مشـهورة يسـتحب زيارتهـا، ومساجـد متعـددة غير المسـجد الحرام، و رُبـط كـثيرة ذكرها المتقدمون، فما نبّه المتقدمون عليه من المساجد المأثورة، نبّه عليه عند ذكره، ونذكر الجميع باعتبار ما هو موجود فى زمننا، والمواليد التى ذكروها صارت فى زمننا كلها مساجـد». (۲) فبـدأ أول ما بـدأ بذكر مكان ولادة النبى (ص) قائلًا: «بفم شـعب على، وهو معروف وقـد ذكروه، وكان عمّره الناصـر العباسـى (۵۵۳- ۶۲۲ ه-/ ۱۱۵۸- ۱۲۲۵ م)، ثم الأشـرف شـعبان صاحب مصـر، ثم الناصـر فرج بن برقوق، ثم الملـك المظفر الغسـانى صـاحب اليمن، ثم السـلطان سـليمان خان، فعمّره قبـة ومسـجداً يصـلى فيه، وذلك فى عام خمسـة وثلاثين وتسـعمائة، ثم عمّره سلطان الإسلام ومرجع الخاص والعام مولانا السلطان الغازى محمد خان ابن مولانا المقدس السلطان مراد خان، وذلك فى سـنة تسع بعد الألف، وكانت هذه العمارة على يد شخص من أكابر الدولة العثمانية يقال له: غضنفير أغا، وأنفق على ذلك أموالًا عظيمـة، ورفع جـدران المحل المذكور، وجعل عليه قبة عظيمة، ومنارة، وأوقف عليه وقفاً بالديار الرومية، ورتب له مؤذناً، وخادماً، وإماماً، وجعل لكلٍ فى كل عام شـيئاً معيناً، يحمل من مغلات الوقف المـذكور، ويقسم عليهم، ثم جعلت له السـلطنة الشـريفة مدرساً بمعلوم، يدرس فى يومين من أيام الأسبوع بالمحل المذكور.

ومنها: مولد السيدة فاطمة (س)، وهو بزقاق الحجر على يمين الذاهب إلى المسجد الحرام.

ومنها دارخديجة: وهو بجانب مولد السيدة فاطمة (س)، ودار خديجة (س)، أفضل محل بالحرم بعد المسجد الحرام.

ومنهـا دار الخيزران: و هى الصـفا معروفـة، وقـد ذكروهـا، و فيهـا مسـجد يقال له: (المختبأ)، لأنّ النبى (ص) كان مسـتتراً فيه فى مبـدأ الاسـلام، و صار لفظها بالمسجد يطلق عليها كلها، و لها إمام وخادم ... (۳) هكذا يستمر المؤرخون المكيون فى تتابع وتواتر علمى فى توثيق هذه الأمكنة، وبيان ما طرأ عليها من إصلاحات، واهتمام الملوك والولاة المسلمين بها، حتى العصر الحاضر من هؤلاء.

* سابعاً: كتاب (منائح الكرم فى أخبار مكة و البيت و ولاة الحرم)

تـأليف: على بن تـاج الـدين بن تقى الـدين السـنجارى، (۱۰۵ (ع)- ۱۱۲۵ ه-/ ۱۶۴ (ع)- ۱ (ع) ۱۳ م). (۴) ذكر: (أمـاكن مكـة و مزاراتها) فجاء تحت هذا العنوان العبارة التالية: «و بمكة أماكن كثيرة، ومزارات مشهورة، وقد ذكرها المؤرخون فى مطولاتهم، وسيأتى ذكر بعضها فى محل الحاجة ..». (۵)

۱- الطبعة الأولى، تحقيق و تقديم أشرف أحمد جمال، مكة المكرمة: المكتبة التجارية، مصطفى باز، عام ۱۴۱۶ ه-/ ۱۹۹۶ م.

۲- الأرج المسكى فى التاريخ المكى و تراجم الملوك و الخلفاء: ۶۸.

۳- الأرج المسكى فى التاريخ المكى و تراجم الملوك والخلفاء: ۷۰.

۴- الطبعة الأولى دراسة وتحقيق: جميل عبدالله محمد المصرى، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، عام ۱۴۱۹ ه-/ ۱۹۹۸ م، ۱:.

۵- منائح الكرم فى أخبار مكة والبيت و ولاة الحرم، ۲۲۶: ۱.

ص: ۱۱۴

* ثامناً: كتاب: (تحصيل المرام فى أخبار البيت الحرام و المشاعر العظام و مكة و الحرم و ولاتها الفخام)

تأليف: العلامة محمد بن أحمد بن سالم بن عمر المكى المالكى، المعروف بابن الصباغ (ت ۱۳۲۱ ه-/ ۱۹۰۳ م). (۱) عقد الفصل الثالث فى (الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء بمكة المشرفة وحرمها، وما قاربها ...)، ثم قال "و ذكر القاضى مجد الدين الشيرازى فى كتابه: (الوصل والمنى) مواضع أخر بمكة وحرمها يستجاب فيها الدعاء؛ لأنه نقل عن النقاش المفسر أنه قال فى منسكه: ويستجاب الدعاء على ثبير، وفى مسجد الكبش، زاد غيره وفى مسجد الخيف ..» إلى أن قال: وفى دار خديجة زوج النبى (ص) ليلة الجمعة، وفى مولد النبى (ص) يوم الاثنين عند الزوال، وفى دار الخيزران عند المختبأ بعد العشاءين. "(۲)* تاسعاً: (سالنامة العربية فى شأن الدولة العثمانية) الصادرة عام ۱۳۰۳ ه-/ ۱۸۸۵ م. (۳) ذكرت (المواضع المباركة المأثورة بمكة شرفها الله تعالى) بإسهاب، وذكرت ما جرى عليها من إصلاحات وتطوير. (۴)* عاشراً: أحمد بن محمد الحضراوى (۱۲۵۲- ۱۳۲ (ع) ه-) فى كتابه:

(العقد الثمين فى فضائل البلد الأمين).

خص الفصل الثالث (فى مآثرها [مكة المكرمة] المشتملة عليها)، وصلت لديه إلى واحد وثلاثين موضعاً، لم يكن عرضه مقصوراً على ما هو منسوب منها للنبى (ص) بل سرد ما يتصل ببعض الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، عرض لكل ما ذكره السابقون، صحح منها الصحيح، وزيف منها ما ليس صحيحاً.

* حادى عشر: عبد الله غازى، (۱۲۹۰- ۱۳۶۵ ه-/ ۱۸ (ع) ۳- ۱۹۴۵) فى كتابه الموسوعى: (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام). (۵) عقد عدة فصول لهذا الموضوع بشكل تفصيلى، وعرض لمعظم ما دونه المؤلفون المكيون السابقون، يأتى البحث هنا إلى عناوين تلك الفصول:

الفصل الثالث: فى ذكر المساجد المأثورة المباركة. (۶)

۱- الطبعة الأولى دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكة المكرمة: مكتبة الأسدى، عام ۱۴۲۴ ه-/ ۲۰۰۴ م.

۲- تحصيل المرام فى أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، ۵۸۶: ۲.

۳- الطبعة الثانية، مكة المكرمة: المطبعة الميرية، عام ۱۳۰۳ ه-.

۴- سالنامة العربية فى شأن الدولة العثمانية،: ۱۴۸.

۵- مرقوم بالكومبيوتر، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش.

۶- إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، ۳۷: ۲- ۶۷.

ص: ١١٥

الفصل الرابع: فى ذكر المواضع المعروفة بمكة بالمواليد.

استعرضها تفصيلًا، وتتبع تواريخ عمارتها، واهتمام الملوك والأمراء بها. (١) الفصل الخامس: فى ذكر الأماكن المشهورة التى لها تعلق بالمناسك. (٢) الفصل السادس: فى ذكر بعض الأماكن التى ليس لها تعلق بالمناسك، ولكنها اشتهرت بين الناس). (٣) إلى غير ذلك من المؤلفات التاريخية العديدة.

تستمر سلسلة التواتر العلمى المكتوب فى عصرنا الحاضر- فيما أحاط به العلم-.

* ثانى عشر: ملخص مناسك الحج، ويليه دليل الآثار المطلوبة فى مكة المحبوبة

تأليف: المربى العلامة الشيخ عبدالمالك بن عبد القادر بن على المعروف بالطرابلسى (ت ١۴١٨ ه-/ ١٩٩ (ع) م).

عدّ منها ثلاثين موضعاً، شمل المشاعر المقدسة؛ وقد رسم خريطة لمكة المكرمة، وضح عليها مواقع الأماكن الإسلامية التاريخية المأثورة المعروفة فى الوقت الحاضر. (۴)* ثالث عشر: معالم مكة التاريخية والأثرية. (۵) تأليف: المؤرخ الشيخ عاتق بن غيث البلادى حفظه الله.

و هو أشمل كتاب فى موضوعه، كما يتضح هذا من العنوان والمضمون، وسيأتى الحديث عنه مفصلًا إن شاء الله.

لاشك أنّ هذه المجموعة من المؤلفين الثقات، ومعظمهم من المحدثين والفقهاء، والقضاة ورجال العلم حديثهم عما صح من الأماكن المأثورة بمعناه الاصطلاحى، يحقق التواتر فى أجلى صوره، وأدق معانيه.

*** ۵. المتواتر من الأماكن المأثورة فى مكة المكرمة استقلالًا المنثور منها

ألّف عدد من العلماء المكيين المؤلفات المستقلة فى الأماكن المأثورة المتواترة فى مكة المكرمة، المتوافر منها فيما تم الاطلاع عليه فى الوقت الحاضر مطبوعاً:

١- المصدر السابق ۶٧: ٢- ٨۵.

٢- المصدر السابق ٨۶: ٢- ١٣١.

٣- المصدر السابق ١٣١: ٢- ١۴۴.

۴- مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، عام ١۴٠٧ ه-/ ١٩٨٧ م.

۵- الطبعة الثانية مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، عام ١۴٠٣ ه-/ ١٩٨٣ م.

ص: ۱۱۶

* ۱. كتاب: (عدة الإنابة فى أماكن الإجابة).

تأليف السيد عفيف الدين عبد الله بن إبراهيم ميرغنى الحسينى، المتقى المكى، الطائفى، الحنفى (الملقب بالمحجوب). (۱) ذكر المؤلف فى مقدمة الكتاب: «لما طالعت بعض شرح العالم العلامة الشيخ إدريس الشماع الشافعى على منظومة الشيخ عبد الملك العصامى، المسمى ب-: (الإنابة فى أماكن الإجابة)، وكانت تلك منظومة مقيدة بأوقات معينة، كما ذكره الإمام أبو بكر بن محمد بن الحسن بن النقاش، وقد ذكره كثير من علمائنا غير مقيدة، كما رواه الشيخ الجليل سيد التابعين الحسن البصرى، عن النبى (ص) كما ذكره الشيخ عبد الملك فى آخر نظمه، وقد كنت رأيت بيتين فى ذلك غير مقيدين للشيخ الإمام والعالم الهمام عمر بن إبراهيم بن نجيم صاحب النهر الفايق شرح كنز الدقايق، خطر لى أن أجمع عليهما بعض الفوايد، وأذكر كل فايدة فى محلها اللائق بها ليسهل به إدراكها، وحفظها؛ لكنى رأيت عدة ما فيها خمسة عشر موضعاً، وقد أنهاها غيره من علمائنا إلى عشرين، فنظمت الزيادة فى بيت، وألحقته بهما، وشرحت الكل؛ والبيتان والزيادة هما هذان:

دعاء البرايا يستجاب بكعبة و ملتزم و الموقفين، كذا الحجر

طواف، وسعى، مروتين، وزمزم مقام، و ميزاب، جمارك تعتبر

منى، و يمان، رؤية البيت حجره لدى سدرة عشرون تمت غرر

وسميت ما جمعته بالكتاب: (عدة الإنابة فى أماكن الإجابة)، لكونى أذكر فى كل محل بعض ما يناسبه من مسائل فقهية، وأدعية مأثورة ومروية، تتميماً للفوايد، وتحصيلًا للعوايد .. (۲)* ۲. (تحفة الأنام فى مآثر البلد الحرام).

العلامة السيد عبد الله بن السيد محمد صالح الزواوى المكى (۱۲۶۶- ۱۳۴۳ ه-/ ۱۸۴۹- ۱۹۲۴ م):

جاء فى مقدمة الرسالة قوله:

«مكة المكرمة هى بلد الله، وفيها بيته المعظم الذى هو أول بيت وضع للناس فى الأرض، الموصوف بكونه مباركاً، وهدًى للعالمين، وبكونه فيه آياتٌ بيناتٌ، وبكونه من دخله كان آمناً، وجعله الله قبلةً لجميع الأمة المحمدية فى جميع العالم..» إلى أن يقول: «وكلها مباركة يستجاب فيها الدعاء، ولكن لاشك أنّ بعضها يترجح على بعض بمزايا اختصت بها، لكونه عليه الصلاة والسلام ولد فيها، أو تعبد فيها، أو لوجود أثر منه، أو عنه (ص)، أو عن أصحابه الكرام، وذلك البعض المرجح كثير، ومختلف فيه، ولكن المشهور من ذلك الذى يعتاد الأماثل التردد عليه، ويزورونه، ويدلون الحجاج عليه، هو ما هو معلوم

۱- الطبعة الأولى، تحقيق عبد الله نذير أحمد مزى، مكة المكرمة: المكتبة المكية، عام ۱۴۲۹ ه-/ ۲۰۰۸ م.

۲- عدة الإنابة فى أماكن الإجابة،: ۲۶.

ص: ۱۱۷

عنـد أكثر أفاضل المطوفين من العارفين، وذلك البعض جبال، ومساجـد، وموالـد، وهى الـدور التى ولد فيها الأماثل، وسـكنوها، وزاد فضلها بهم ...». (۱) ثم خص كلًا من تلك الأماكن بالعرض المفصل وقال عندما جاء العرض ل- (الموالد) معرفاً بها: «وهى الدور التى ولد فيهاالأماثل الكرام، وسـكنوها وزاد بهم فضـلها، منها الموضع الذى يقال له: مولد النبى (ص) بسوق الليل وهو على الصحيح البيت الـذى ولـد فيه رسـول الله (ص)، وتربى فيه، وموضع مسـقط رأسه الشـريف فى نفس المحـل معروف إلى الآـن». (۲)* ۳. معالم مكة التاريخية والأثرية

تأليف: عاتق بن غيث البلادى، حفظه الله.

كتـاب موسوعى يـدل عليه عنوانه، حيث يتطرق لكافة الأماكن التاريخيـة، والأثريـة فى مكـة المكرمـة، وما حولها، مرتباً ترتيباً هجائياً، يتميز بأنه يقـدم معلومات تاريخيـة مفيـدة عن الموقع الذى يتحدث عنه، ويزيد عليه إضافة معلومات جديدة لما اسـتحدث على الموقع فى تعبير واضح، وبهذا يكون المؤلف حفظه الله أوصل الحاضر بالماضى، وهذه ميزة التاريخ والمؤرخين فى المدرسة التاريخية المكية حتى العصر الحاضر، يقدم البحث أنموذجاً للإضافات المفيدة فى هذا الكتاب.

يقول المؤرخ الشيخ عاتق البلادى- حفظه الله- عن مكان المولد النبوى الشريف:

«المولـد النبوى الشـريف: هو المكان الذى ولد فيه رسول الله (ص)، وهو الشـعب الذى كان يسـكنه بنو هاشم، وفيه حاصـرتهم قريش عند بعثته؛ وكان هذا المكان اتخذ مسـجداً، ثم هدم لكثرة تبرك الناس به، ثم بنيت فى المكان عمارة حسنة جعلت مقراً لمكتبة مكة، وهى مكتبـة عامة يرتادها طلبة العلم، بناها الشـيخ عباس قطان سـنة ۱۳ (ع) ۰ ه- عمرها من ماله الخاص، واشترى مكتبـة الشـيخ ماجد كردى من أولاده، فجعلها أساس مكتبة مكة اليوم، ثم سلمها لوزارة الإعلام (كانت مديرية الإعلام) ثم سلمتها إدارة الإعلام للأوقاف. (۳)***

۱- الطبعة الأولى، مكة المكرمة: مطبعة الترقى الماجدية، عام ۱۳۲۹ ه-: ۲- ۳.

۲- تحفة الأنام فى مآثر البلد الحرام،: ۶.

۳- معالم مكـة التاريخيـة والأثريـة: ۲۹۴، انتهى الأـمر بالمكتبـة أخيراً إلى أن تكـون تحـت مظلـة وزارة الشـؤون الإسـلامية والأوقـاف والدعوة والإرشاد.

ص: ۱۱۸

شخصيات من الحرمين الشريفين (۲۶)

قيس بن عبادة الأنصارى

قيس بن سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبى خزيمة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصارى الخزرجى الساعدى.

ويكنى: أبا الفضل، وقيل: أبو عبدالملك. (۱) كان أبوه سعد بن عبادة زعيماً للخزرج، و له ستة أولاد كلهم نصروا الإسلام ونبيه (ص) وقد ضمته مدرسة الصحبة لرسول الله (ص) بعد إسلامه، فجعلت منه صحابياً جليلًا، ذا مواقف كبيرة فى عهد رسول الله (ص) ومعه سعد بن معاذ زعيم الأوس، وكأنهما أبيا إلّا أن يكونا شريكين فاعلين فى كل معروف قدم للرسالة والرسول (ص) و للمهاجرين وفى كل موقف برّ وصدق وإخلاص، بدءاً بالسكن والطعام، ومروراً ببناء علاقات اجتماعية مع المهاجرين كالزواج والعمل وحتى نصل إلى المشاركات الفعلية فى المعارك والغزوات التى خاضها المسلمون ضد أعدائهم، فلا تجد شيئاً من ذلك إلّا ورأيت الأنصار بشقيهم الأوس والخزرج قد احتلوا مواقعهم المؤثرة والمثمرة والفاعلة.. ولا- يسعنى أن أتحدث عن أنصارى حتى أتحدث شيئاً ولو كان مختصراً عن هذه الجماعة وساحتها المعطاء، بما تحمله من مناقب كبيرة ورفيعة ومواقف جليلة، ووفاء بما عاهدوا الله تعالى عليه حين بايعوا رسوله (ص).

أذكرمن مواقفهم:

* موقفاً شهد به القرآن الكريم، وقد تضافرت جهود الفريقين الخزرج و الأوس- بعد أن استجابت كل من القبيلتين للإيمان ولنداء التوحيد، و لمشروع التآخى الذى جاء به رسول الله (ص)- لحماية رسول الله (ص) و دعوته مما يحمون منه أنفسهم وأموالهم ونساءهم وأولادهم، ولاستقبال المهاجرين من مكة وإيوائهم ونصرهم، فكان بحق إيواءاً عظيماً، يتضمن إنفاقاً كبيراً، وجهاداً لامثيل له، ويكفيهم شهادةً وتكريماً قوله تعالى:

والَّذِينَ آوَوْا ونَصَرُوا أولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ثمن ذلك لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ إنها شهادة قرآنية عظيمة، وجائزتها مغفرة من الله تعالى ورزق كريم، وهى جائزة ما أعظمها! وحتى وصفهم الله تعالى فى آية أخرى وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ والإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ ولَا يجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ممَّا أُوتُوا ويُؤْثِرُونَ عَلىَ أنْفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. (۲) وهنا أكتفى بما يقوله صاحب تفسير (فى ظلال القرآن) فهو أدق وأجمل ما رأيت وهو يعرض هذه الصورة القرآنية الرائعة، وهى تصف ما هم عليه من مناقب وعطاء، حين يتعرض لتفسير هذه الآية:

وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار؛ هذه المجموعة التى تفردت بصفات، وبلغت إلى آفاق، لولا أنها وقعت بالفعل، لحسبها الناس أحلاماً طائرة، ورؤىً مجنحة، ومثلًا

۱- هكذا ورد فى مختصر تاريخ دمشق ۱۰۲: ۲۱؛ أسد الغابة: حرف القاف.

۲- الحشر: ۹.

ص: ۱۱۹

عليا قـد صاغها خيال محلق. وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الـدَّارَ والإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى دار الهجرة، يثرب مدينة الرسول (ص) وقد تبوأها الأنصار قبل المهـاجرين، كمـا تبوأوا فيهـا الإيمـان، وكأنه منزل لهم ودار، وهو تعبير ذوظلال، وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان، لقد كـان دارهم ونزلهم ووطنهم الـذى تعيش فيه قلوبهم، وتسـكن إليه أرواحهم، ويثوبون إليه ويطمئنون له، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار.

يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ولَا يجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ممَّا أُوتُوا ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السـخى، وبهذه المشاركة الرضـية، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر فى دار أنصارى إلّا بقرعة، لأنّ عدد الراغبين فى الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين!

ولَا يجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ممَّا أُوتُوا

مما يناله المهاجرون من مقام مفضل فى بعض المواضع، ومن مال يختصـمون به كهـذا الفىء، فلا يجـدون فى أنفسـهم شـيئاً من هذا، ولايقول: حسداً ولا ضيقاً، إنما يقول ":شيئاً "مما يلقى ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم، فلا تجد شيئاً أصلًا.

ويُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا، وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيراً، وكانوا كذلك فى كل مرة وفى كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديماً وحديثاً.

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

فهـذا الشـحّ، شـحّ النفس، هو المعوق عن كـل خير؛ لأنّ الخير بـذل فى صورة من الصور، بـذل فى المال، بـذل فى العاطفـة، بـذل فى الجهـد، وبـذل فى الحيـاة عنـد الاقتضاء، وما يمكن أن يصـنع الخير شـحيح يهم دائماً أن يأخـذ ولا يهم مرةً أن يعطى، ومن يوق شـح نفسه، فقـد وقى هـذا المعوق عن الخير، فانطلق إليه معطياً باذلًا كريماً، وهذا هو الفلاح فى حقيقة معناه. "(۱) وفعلًا بذل الأنصار المال والعاطفة والجهد والحياة .. فنالوا منزلة الفلاح كما شهدت بذلك السماء.

* موقفاً شهدت به الأخبار، حين تعاضدت فيه كلمته وكلمة زعيم الأوس الصحابى الجليل سعد بن معاذ الأنصارى حينما عرض عليهما رسول الله (ص) ما توصلت إليه المفاوضات مع كل من عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر والحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى، وهما قائـدا غطفان، التى شاركت مشاركةً فعالةً مع مشـركى قبائل قريش فى غزوة الخندق، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهمـا عنه وعن أصـحابه، فجرى بينه وبينهمـا الصـلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشـهادة ولا عزيمـة الصـلح، إلّا المراوضـة فى ذلـك، فلمـا أراد رسول الله (ص) أن يفعـل، بعث إلى سـعد بن معاذ وسـعد بن عبادة، فـذكر ذلك لهما، واسـتشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله! أمراً تحبه فنصـنعه، أم شـيئاً أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شـيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شىء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلّا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسرعنكم شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ:

۱- سيد قطب «فى ظلال القرآن» تفسير سورة الحشر: ۹.

ص: ۱۲۰

يا رسول الله! قـد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشـرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلّا قرًى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسـلام وهـدانا له وأعزنا بك وبه، نعطهم أموالنا، والله مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلّا السـيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله (ص): فأنت وذاك فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا. (۱) نشأته وإسلامه:

فى هكذا بيت كريم وعريق ولد قيس بن سـعد، ونشأ وتربى، صـحيح أننى لم أجد مصدراً يؤرخ لولادة قيس، إلّا أنّ عمره حين هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة لعله كان قرابة ستة عشر عاماً.

صار قيس بعـد إسـلامه- حين جاء به أبوه إلى رسول الله (ص)- نقيباً من نقباء الأنصار، وحظى بصـحبة مباركة لرسول الله (ص)، ونال شرف خدمته عشر سنوات، وكان صاحب لوائه فى بعض غزواته، واستعمله على الصدقة ..

صفاته:

كان أديباً شاعراً وخطيباً محاوراً جريئاً لا يفوته شىء .. يظهر هذا كله فى حواراته، و ردوده على معاوية وغيره كما سيأتى.

كما كان رجلًا شـجاعاً مقداماً، زاده الله تعالى قوةً فى الجسم، وبسطةً فى الطول حتى أنه فاق الناس طولًا، تشاهد رجلاه يخطان الأرض وهو على فرسه، وقد ذكر ابن عساكر فى تاريخه خبراً: أنّ ملك الروم أرسل إلى معاوية أن ابعث إلىّ بسراويل أطول رجل من العرب، فقال لقيس بن سـعد: ما نظننا إلّا قـد احتجنا إلى سـراويلك؛ فقام، فتنحى، فجاء بها، فألقاها إلى معاوية، فقال: يرحمك الله، وما أردت إلى هذا؟ ألّا ذهبت إلى بيتك، فبعثت بها؟! فقال قيس من الطويل:

أردت بها أن يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود

و ألا يقولوا: غاب قيس وهذه سراويل عادىّ نمته ثمود

و إنى من الحى اليمانى لسيد و ما الناس إلّا سيد ومسود

فكدهم بمثلى إنّ مثلى عليهم شديدوخلقى فىالرجالشديد

فـأمر معاويـة بأطول رجل فى الجيش، فوضـعها على أنفه، فوقعت فى الأرض؛ فـدعا له بسـراويل، فلما جاء بها، قال له قيس: نـح عنك ثيابك هذه.

فقال معاوية من البسيط:

۱- أنظر السيرة النبوية لابن هشام ۲۳۴: ۳، وغيرها.

ص: ۱۲۱

أما قريش فأقوام مسرولة و اليثربيون أصحاب التبابين

فقال قيس من البسيط:

تلك اليهود التى- يعنى- ببلدتنا كما قريش هم أهل السياخين. (۱)

* وقد بانت عليه قدرات الزعامة وهو بعد صبياً، وظل قومه ينظرون إليه ويتعاملون معه كقائد وزعيم رغم حداثة سنه، حتى نقل قولهم المشهور: «لو استطعنا أن نشترى لقيس لحيةً بأموالنا لفعلنا» وهو قول يحكى لنا ما عليه الرجل من مقومات قيادية توفرت فيه، ولا ينقصه شىء منها إلّا اللحية فى أعرافهم، وقد علت وجوه رجالهم، ولهذا صدر منهم قولهم المذكور، الذى يتضمن اعترافهم بملاكاته تلك، وهو اعتراف من الصعب أن يصدر منهم إذا ما عرفنا طبيعتهم وشموخهم وتعاليهم ..

* وقد نسب إلى رسول الله (ص) أنه قال:

«إنّ الجود شيمة أهل هذا البيت»، «أما أنه فى بيت جود»!

يا لها من شهادة عظيمة!

وافق قيس أهله بصفات جميلة "جود وسخاء ومروءة "حتى أصبح مثلًا بالجود والكرم؛ نعم هناك صفات جليلة، الجود والكرم والسخاء طغت كلها على سلوكه وسيرته وسيرة أبيه سعد بن عبادة، وجده من قبل، واشتهر بينهم بها، فقد غدا قيس منزلًا للقرى، فكانوا يجدون عنده المأوى الذى يؤوى إليه، فيقرى الضيف، ويشبع الجائع، ويكسى العريان، وتقضى حاجة المحتاج، وكان الناس يقولون: «من أحب الشحم واللحم فليأت أطم دليم بن حارثة» وهو الجد الثانى لقيس؛ وكان ينادى له مناد من فوق مرتفع: هلموا إلى اللحم والثريد، هلم إليه أيها الغريب .. حتى كان يوقد ناره ليلًا وهى عادة الكرام يومذاك، ليهتدى إليها الغريب السارى ليلًا والضال، والذى يبحث عما يجد عنده أمانه وزاده .. وكان بهذا يفعل كما كان أبوه وجده يفعلان.

ومما جاء فى سخائه وكرمه أنّ قيساً اشترك مع ثلاثمائة صحابى فى غزوة سيف البحر بقيادة أبى عبيدة بن الجراح، فأصابهم فيها جوع شديد وفنى ما معهم من زاد، فقام قيس فذبح ثلاثة جمال له، وبعد مدة ذبح ثلاثة أخرى، ثم ذبح لهم ثلاثة أخرى، حتى نهاه أبوعبيدة عن ذلك حين رزق الله الجيش بحوت كبير، ظلوا يأكلون منه ثمانية عشر يوماً، وعندما عادوا للنبى (ص) و ذكروا له ذلك، قال عن قيس: «أما أنه فى بيت جود».

ولهذا ولكثرة ما عرف به قيس من السخاء والكرم، حتى ورد أنه كان يستدين ويطعم المجاهدين فى سبيل الله تعالى، دفع ذلك بعض الصحابة كأبى بكر وعمر، أو أنهما تحدثا يوماً عن سخائه وكرمه، إلى القول ":لو تركنا هذا الفتى لسخائه لأهلك مال أبيه "فلما سمع سعد ذلك قام عند النبى (ص) فقال ":من يعذرنى من ابن أبى قحافة وابن الخطاب يبخلان على ابنى "ولما اشتكى لأبيه ما زعمه بعضهم أنه لا مال لى

۱- أنظر مختصر تاريخ دمشق ۱۱۳: ۲۱- ۱۱۴ ترجمته. التبان: بالضم والتشديد، سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة. ومن طريق آخر أورده الحافظ: «السخاخين» السخينة: حساء يؤكل فى الجدب، وكانت قريش تعير به.

ص: ۱۲۲

وإنما المال لأبى، قال لهم: أبى يقضى عن الأباعد، ويحمل الكل، ويطعم فى المجاعة ولا يصنع هذا بى، فلما سمع أبوه هذا منه قال له: فلك أربع حوائط (بساتين) وكتب بذلك كتاباً وأشهد عليه ..

وعرف قيس بأنه كان يطعم الناس فى أسفاره مع النبى (ص)، وكانت لقيس بن سعد صحفة يدار بها حيث دار وكان إذا نفد ما معه تدين، وكان ينادى فى كل يوم: هلموا إلى اللحم والثريد.

و وقفت على قيس بن سعد عجوز، فقالت: أشكو إليك قلة الجرذان، فقال قيس: ما أحسن هذه الكناية! املؤوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً وتمراً.

و فى رواية ابن عبد البر فى الاستيعاب قال لها: ما أحسن ما سألت! أما والله لأكثرن جرذان بيتك، فملأ بيتها طعاماً وودكاً (دسماً) ..

و كان قيس إذا جاءه من يرد له دينه يقول له: إنا لا نعود فى شىء أعطيناه؛ أو إنا قوم إذا أعطينا شيئاً لم نرجع فيه، وذلك لما أقرض رجلًا ثلاثين ألفاً فجاء يقضيه.

وفى رواية أنّ قيس بن سعد باع أرضاً من معاوية بتسعين ألفاً، فقدم المدينة فنادى مناديه: من أراد القرض فليأت، فأقرض منها خمسين ألفاً وأطلق الباقى، ثم مرض بعد ذلك فقل عواده، فقال لزوجته: قريبة بنت عتيق أخت أبى بكر: إنى أرى قلة من عادنى فى مرضى هذا، و إنى لأرى ذلك من أجل مالى على الناس من القرض، فبعث إلى كل رجل ممن كان له عليه دين بصكه المكتوب عليه، فوهبهم ماله عليهم؛ وقيل: إنه أمر مناديه فنادى: من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو منه فى حل، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه من كثرة العواد.

و فى خبر لما مرض قيس فاستبطأ إخوانه عن عيادته، سأل عنهم، فقيل: إنهم يستحون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالًا يمنع الأخوان من الزيارة، ثم أمرمنادياً لينادى: من كان لقيس عليه دين، فهو فى حل منه، فكسرت درجته بالعشى لكثرة من عاده.

و قد عرف جمع من الأشراف بالكرم، فغدا الناس يتحدثون بسخائهم و جودهم، و كل فريق يبالغ فى وصف من يراه الأكرم والأسخى، فعن خبر الهيثم بن عدى أنه اختلف ثلاثة عند الكعبة فى أكرم أهل زمنهم، فقال أحدهم: عبد الله بن جعفر، وقال الآخر: قيس بن سعد، وقال الآخر: عرابة الأوسى، فتماروا فى ذلك حتى ارتفع ضجيجهم عند الكعبة؛ فقال لهم رجل: فليذهب كل رجل منكم إلى صاحبه الذى يزعم أنه أكرم من غيره، فلينظر ما يعطيه و ليحكم على العيان.

فذهب صاحب عبد الله بن جعفر إليه، فوجده قد وضع رجله فى الغرز ليذهب إلى ضيعة له، فقال له: يابن عم رسول الله ابن سبيل ومنقطع به؛ قال: فأخرج رجله من الغرز وقال: ضع رجلك واستو عليها فهى لك بما عليها، وخذ ما فى الحقيبة، و لا تخدعن عن السيف فإنه من سيوف على، فرجع إلى أصحابه بناقة عظيمة، وإذا فى الحقيبة أربعة آلاف دينار، ومطرف من خز وغير ذلك، وأجل ذلك سيف على بن أبى طالب.

و مضى صاحب قيس إليه فوجده نائماً، فقالت له الجارية: ما حاجتك إليه؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به. قالت: فحاجتك أيسر من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما فى دار قيس مال غيره اليوم، واذهب إلى مولانا بغلامينا فى معاطن الإبل فخذ لك ناقةً وعبداً، واذهب راشداً. فلما استيقظ قيس من نومه،

ص: ۱۲۳

أخبرته الجارية بما صنعت، فأعتقها شكراً على صنيعها ذلك. وقال: هلا أيقظتنى حتى أعطيه ما يكفيه أبداً، فلعل الذى أعطيته لايقع منه موقع حاجته.

و ذهب صاحب عرابة الأوسى إليه فوجده وقد خرج عن منزله يريد الصلاة وهو متوكئ على عبدين له- وقد كف بصره- فقال له: يا عرابة! فقال له: قل، فقال: ابن سبيل ومنقطع به. فخلى عن العبدين ثم صفق بيديه، باليمنى على اليسرى، ثم قال: أوه أوه، والله ما أصبحت ولا أمسيت وقد تركت الحقوق من مال عرابة شيئاً، ولكن خذ هذين العبدين، قال: ما كنت لأفعل. فقال: إن لم تأخذهما فهما حران، فإن شئت فأعتق، وإن شئت فخذ، وأقبل يلتمس الحائط بيده. فأخذهما وجاء بهما إلى صاحبيه.

فحكم الناس على أنّ ابن جعفر قد جاد بمال عظيم، وأنّ ذلك ليس بمستنكر له، إلّا أنّ السيف أجلّها؛ وأنّ قيساً أحد الأجواد؛ حكم مملوكته فى ماله بغير علمه، واستحسن فعلها واعتقها شكراً لها على ما فعلت؛ وأجمعوا على أنّ أسخى الثلاثة عرابة الأوسى؛ لأنه جاد بجميع ما يملك، وذلك جهد من مقل. (۱) ومثل هذه الروايات كثيرة فى تراثنا، ولعل القارئ يرى فى هذه الأخبار- وهى على ذمة أصحابها- التى تحكى لنا قصص الكرام، مبالغةً قد تصل إلى حد الخيال، ولكن تبقى صفات الكرم والسخاء والمروءة، من أروع ما اتصف به الإنسان العربى!

و حتى كتب الواقدى أنه كان من كرام أصحاب رسول الله (ص) و أسخيائهم، وحتى كتب الذهبى: جود قيس يضرب به المثل ..

وكيف لايكون قيس كذلك جواداً كريماً و ذا مروءة، وهو الذى طالما كان يدعو ربه، وقد عرف بكثرة الدعاء، ويقول: أللهم ارزقنى مالًا وفعالًا، فإنه لايصلح الفعال إلّا بالمال! أللهم إنه لايصلحنى القليل، ولا أصلح عليه! أللهم هب لى حمدا ومجداً، فإنه لامجد إلّا بفعال، ولا فعال إلّا بمال، أللهم لايصلحنى القليل، ولا أصلح عليه!

وهو الذى كان حبّ صفات الكرام ويتغنى بها، حيث يقول: تمنيت أن أكون فى حال رجل رأيته! أقبلنا من الشام، فإذا نحن بخباء، فقلنا: لو نزلنا هاهنا، فإذا امرأة فى الخباء، فلم تلبث أن جاء رجل بذود (القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع) له، فقال لامرأته: من هؤلاء؟ قالت: قوم نزلوا بك. فجاء بناقة فضرب عرقوبيها، ثم قال: دونكم ... فنحرناها. فلما كان من الغد جاءنا بأخرى ... فقلنا: اللحم عندنا كما هو. قال: إنا لانطعم أضيافنا الغاب (اللحم البائت). قال قيس: فقلت لأصحابى: إنّ هذا الرجل إن أقمنا عنده لم يبق عنده بعير، فارتحلوا بنا. فقلت لقيمى: اجمع ما عندك، قال: ليس إلّا أربعمائة درهم. قلت: هاتها، وهات كسوتى ... فدفعناه إلى امرأته، ثم سرنا، فلم نلبث أن رأينا شخصاً ... فقلت: واسوأتاه! استقل والله ما أعطيناه ... فقال: دونكم متاعكم، فخذوه، فقلت: والله ما كان إلّا مارأيت، ولقد جمعنا ما كان عندنا، قال: إنى والله لم أذهب حيث تذهبون، فخذوه، قلنا: فلانأخذه، قال: والله لأميلن عليكم برمحى ما بقى منكم رجل أو تأخذونه، قال: فأخذناه، فولى وقال: إنا لانبيع القرى.

هذا من شيم الكرام فالقرى لايباع، يا له من موقف ما أروعه وأجمله!

۱- أنظر فى هذا مختصر تاريخ دمشق ۱۰۹: ۲۱- ۱۱۰.

ص: ۱۲۴

وتفرد بأخرى عن أهل بيته، فقد عرف قيس بذكاء ودهاء وفطنة، و بالتالى مكر وكيد وخداع.

لقد كان الرجل يتمتع بهذه القدرات الخاصة، وقد لانجد مثيلًا لها إلّا عند القلة من البشر، وهو أمر لمسه من يعيشون معه، فكانوا يحسبون له ولما يحمله من تلك القدرات ألف حساب، فقد كان يعرف بدهاء عجيب، وذكاء حاد، وفطنة قلّ نظيرها، ظهرت على سيرته ومن خلال تعامله مع من حوله، حتى صاروا يحذرونه فى تعاملاتهم، وفيما يطرحونه من آراء، وفيما يتفوهون به من أقوال، وما يتخذونه من مواقف، فردوده تتسم بالسرعة والدقة واللباقة بل بالمخادعة والمكر .. وقد عرف بأنه واحد ممن هم لايتجاوزون أصابع اليد بالدهاء والمكر والكيد، حتى اشتهروا بأنهم من دهاة العرب، يقال لهم ذوو رأى العرب فى مكيدتهم: معاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى، وقيس بن سعد؛ و كان قيس و ابن بديل مع على (ع)، فيما وقف الأول والثانى ضد الإمام على (ع)، وظلّ المغيرة معتزلًا بالطائف وأرضها إلى حين. (۱) كلّ هذا كان وقيس يعيش الجاهلية بكل ما تحمله، أى قبل إسلامه، لكنه ما أن أعلن إسلامه حين أخذه أبوه سعد بن عبادة إلى رسول الله (ص) قائلًا: هذا خادمك يا رسول الله! فأسلم على يديه، وصدق فيه حتى تغيرت حياته، وغدا يتعامل تعاملًا آخر يتناسب وإسلامه وأخلاق الدين الجديد وقيمه ومبادئه، حيث تغير تغيراً جذرياً وكلياً، وهو ما جعل قيس يضحك ويقول حين يتذكر تلك الأيام والمواقف والأحداث المتصفة بدهائه عبر مكره وخداعه وكيده ":لولا ـ الإسلام لمكرت مكراً لاـتطيقه العرب "ويقول أيضاً ":لولا ـ أنى سمعت الرسول (ص) يقول: «المكر والخديعة فى النار»، لكنت من أمكر هذه الأمة."

إنّ أروع ما قرأته عن الرجل قدرته على الدهاء وعلى الإمساك به فى الوقت ذاته، فالدهاء الذى يتمتع به لم يترك قيس له العنان، ويجعله مطلقاً كما هو حال معاوية وابن العاص اللذين لم يتقيدا بشرع، فيما قيده قيس بالشرع، نعم كما كانت له قدرة على الدهاء كانت له القدرة على ضبطه بضوابط دينه.

كتب الشيخ عبدالحسين الأمينى فى الغديرعن قيس: شهرته بالدهاء مع تقيده بالدين وكلاءته حمى الشريعة والتزامه البالغ فى إعمال الرأى بمايوافق رضا مولاه سبحانه، وكفه عما يخالف ربه، نثبت لقيس الأولوية والتقدم والبروز بين دهاة العرب، ولا يعادله من الدهاة الخمسة المشهورين أحد إلّا عبد الله بن بديل؛ وذلك لاشتراكهما فى المبدإ، والتزامهما بالدين الحنيف، والكفّ عن الهوى، والوقوف عند مضلات الفتن ..

أقول: إنّ لقيس و ابن بديل أسوة بالإمام على (ع) حين يقول فى معاوية: «والله، ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر؛ و لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة؛ والله ما أستغفل بالمكيدة، ولا أستغمز بالشديدة». (۲) وفعلًا اعترف الناس بذلك وبمؤامراته التى كان يحيكها، والتى تبين قدرته على الخديعة والكيد والمكر، وهم عاجزون عن ردها والتغلب عليها، ولكنهم وقفوا مبهورين بما رأوه منه بعد إسلامه، وكيف حوله من

۱- أنظر مختصر تاريخ دمشق ۱۰۸: ۲۱- ۱۱۰، قيس، بتصرف.

۲- نهج البلاغة، صبحى الصالح: ۳۱۸.

ص: ۱۲۵

ذاك الـذى عرف به بينهم وفى أوساطهم إلى مؤمن يتسم بالأمان والاسـتقامة والصـدق والوديعـة والطمأنينـة .. وصار عند النبى (ص) حسن التـدبير وذا فكر سـليم إضافـةً إلى شـجاعته وبسالته وإقدامه، وظلّ قريباً للنبى (ص) وملازماً له حتى قال عنه أنس: كان قيس بن سعـد بن عبادة من النبى (ص) بمنزلـة صاحب الشـرطة من الأمير، وظلّ حاملًا لواء الأنصار مع رسول الله (ص) وشـهد معه غزواته حتى أنّ رسول الله (ص) أخـذ الرايـة من أبيه سـعد يوم فتـح مكـة وأعطاهـا لابنه قيس لبطولته وفروسـيته .. وبقى هكـذا أميناً وصاحب عهد وميثاق، ورجلًا وفياً بارزاً طيلة حياته، حتى وافاه أجله رضوان الله تعالى عليه.

نصرته للحق:

وهناك صـفة أخرى تألقت فيه حتى غدت علامةً واضـحةً رافقته طيلة حياته المليئة إيماناً وجهاداً ومواقف ثمينةً، إنها نصـرة الحق، ولا تأخذه فى ذلك لومة لائم، إنها الشـجاعة توأم الجود، إنه الإقدام المنبثق من الحق وللحق، الحاضر فى جميع مشاهده، التى استبسل بها تحت رايـة رسول الله (ص) وحتى بعـد رحيله (ص) إلى الملكوت الأعلى، قـد تجلت شـجاعته مواقف عظيمـةً واعيةً يضـعها بين يدى الإمام على (ع)، لما علم أنّ علياً مع الحق والحق مع على.

فحين نقضت طائفـة عهـد البيعـة للإمـام على (ع)، وحينمـا أعلن معاويـة تمرده على الإمام على (ع) وحربه، وحين مرقت أخرى، وقف قيس مع الجـانب الـذى تمثـل فيه الحق والعـدل، فنهض إلى جـانب الإمـام على (ع) قويـاً عزيزاً لا ـ يلين، متيقناً لاينتابه شك فى ذلك ولاـريب، متوثبـاً لايخشـى لومـة لائم، وإذا به يتألق فى كل معارك الحق ضـد الباطل يقاتل الناكثين والقاسـطين والمارقين فى معركة الجمل ومعركة صفين فالنهروان، وهو يحمل لواء الأنصار وصوته يعلو سماء المعارك هذه:

هذا اللواء الذى كنا نحفّ به مع النبى، وجبريل لنا مدد

ما ضر من كانت الأنصار عيبته ألا يكون له من غيرهم أحد

قوم إذا حاربوا طالت أكفهم بالمشرفية حتى تفتح البلد. (۱)

يـذكرنى وعيه الرسالى هـذا بموقف الصـحابى الجليل عمار بن ياسـر، وذلك لما وقف عمار يرشـد من جاءه مسترشـداً، فقال له: «هل تعرف صاحب الرايـة السوداء المقابلـة لى؟ فإنها رايـة عمروبن‌العاص، قاتلتها مع رسول الله (ص) ثلاث مرات، وهـذه الرابة ما بخيرهن ولا أبرهن، بل هى أشرهن وأفجرهن! أشهدت بدراً وأحداً وحنيناً، أو شهدها لك أب يخبرك عنها؟ قال: لا.

قـال: فـإنّ مراكزنـا على مراكز رايـات رسول الله (ص) يوم بـدر ويوم أحـد ويوم حنين، وإنّ هؤلاـء على مراكز رايـات المشـركين من الأحزاب."

وفى روايـة مشابهة أنّ عماراً قال: والذى نفسى بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، لعرفت أنّ مصلحتنا على الحق، وأنهم على الضلالة (على الباطل). (۲)

۱- أنظر كتاب الجمل ۳۴۲- ۳۴۳.

۲- أنظر مختصر تاريخ دمشق ۲۰۶: ۱۸ وغيره.

ص: ۱۲۶

فإن دل هـذا على شـيء وهو يـدل قطعاً، فإنه يدل على وعى دقيق بالوضع القائم والأحداث التى حصـلت، وعلى إلمام بالرؤية الرسالية فى الأحـداث الجاريـة وبصـيرة بهـا، مهمـا تلبست بأغطيـة هـدفها أن تعمى الرؤيـة عن الحقيقـة .. وهو وعى افتقـدته طائفـة كـبيرة من المسـلمين، فيمـا عمت أخرى وصـمت غيرهـا، فـآلت الأمـور إلى فتنـة تركت آثارها السـيئة على الساحـة يومـذاك، بل وعلى الأجيال المتعاقبة ..

إذن فهو صـاحب بصـيرة فى الأمـور، ونظرة بعيـدة، وذو حزم وحنكـة، و قـد حظى بهـذا باتفـاق المؤرخين وإطبـاقهم، ومن ذلك قوله للإمام على (ع):

يا أميرالمؤمنين ما على الأرض أحد أحب إلينا أن يقم فينا منك، لأنك نجمنا الذى نهتدى به، ومفزعنا الذى نصير إليه، ولكن والله لو خليت معاويـة للمكر، ليرومن مصـر، وليفسـدن اليمن، وليطمعن فى العراق، ومعه قوم يمانيون قد أشـربوا قتل عثمان، وقد اكتفوا بالظن عن العلم، وبالشك عن اليقين، و بالهوى عن الخير، فسر بأهل الحجاز وأهل العراق، ثم أرمه بأمر يضيق فيه خناقه، ويقصر له من نفسه. فقال: أحسنت والله يا قيس ..

وحين دعـاه معاويـة لمفارقـة على (ع) و منـاه حين تفرق عنه النـاس، فكتب إليه كمـا ينقل الزمخشـرى: يا وثن ابن وثن! تـدعونى إلى مفارقـة على بن أبى طالب والـدخول فى طاعتك، وتخوفنى بتفرق أصـحابه عنه، وانثيال الناس عليك وإجفالهم إليك، فوالله الـذى لا إله غيره، لاسالمتـك أبـداً وأنت حربه، ولاـ دخلت فى طاعتـك وأنت عـدوه، ولا اخترت عـدو الله على وليه، و لاحزب الشـيطان على حزبه.

ويروى أنه بعد محاججة طويلة جرت بين قيس ومعاوية، وقعت بعد استتباب الأمر لمعاوية، قال قيس فى جملتها: ولعمرى ما لأحد من الأنصار ولا لقريش، ولا لأحـد من العرب والعجم فى الخلافـة حق مع على (ع) وولده من بعده، فغضب معاوية وقال: يابن سـعد، عمن أخـذت هـذا وعمن رويته وعمن سـمعته؟ أبوك أخبرك وعنه أخذته؟ فقال قيس: سـمعته ممن هو خير من أبى، وأعظم على حقاً من أبى، قال: من؟ قال: على بن أبى طالب (ع) عالم هذه الأمة وصديقها..

قالوا فى ولائه:

عرف قيس بحبه وولائه لأهل البيت (عليهم السلام)، وهو الذى كان فى غديرخم يهتف قائلًا:

و على إمامنا و إمام لسوانا أتى به التنزيل

حين قال النبى من كنت مو لاه فهذا مولاه خطب جليل

إنّ ما قاله النبى على الأمة حتم ما فيه قال و قيل

وهذا بعض ما قالوه فى ذلك:

يقول الميرداماد: هو من خلص أنصار رسول الله (ص) ومن العشرة الذين نصروه .. ومن أصفياء أولياء أميرالمؤمنين (ع).

فيما قال الفضل بن شاذان: هو من السابقين الذين رجعوا إلى أميرالمؤمنين (ع) وذكر العلامة هذا وأضاف: وهو مشـكور، وذكر أنه لم يبايع غير إمامه فيما عرفه إبراهيم الثقفى فى كتابه الغارات أنه: من شيعة على.

ص: ۱۲۷

أمّا ابن أبی الحدید فیصفه بأنه: من کبار شیعة أمیر المؤمنین (ع)، وقائل بمحبته و ولائه .. و مخلص فی اعتقاده.

و ذکره السید الخوئی فی معجمه: عده الشیخ تارةً فی أصحاب رسول الله (ص) وأخری فی أصحاب علی (ع) قائلًا: قیس بن سعد بن عبادة وهو ممن لم یبایع أبا بکر؛ وثالثة فی أصحاب الحسن (ع) ...

و عده البرقی فی آخر رجاله من المنکرین علی أبی بکر، وهم اثنا عشر رجلًا وقال: ثم قام قیس بن سعد بن عبادة فقال: یا معشر قریش قد علم خیارکم أنّ أهل بیت رسول الله (ص) أحق بمکانه فی سبق سابقة وحسن عناء، وقد جعل الله هذا الأمر لعلی بمحضر منکم وسماع أذنیکم، فلا ترجعوا ضلالًا فتنقلبوا خاسرین.

وفی ترجمة البراء بن مالک أنه من السابقین الذین رجعوا إلی أمیرالمؤمنین (ع).

و فی ترجمة البراء بن عازب: أنه ممن شهد بسماعه من رسول الله (ص) قوله یوم غدیر خم: من کنت مولاه فعلی مولاه.

وتقدم فی ترجمة عبید الله بن العباس خطبته فی ذم عبید الله ونصرة الحسن (ع) وکتابه إلی الحسن (ع) بعد لحوق عبید الله بمعاویة.

وله خطبة جمیلة یحرض فیها الإمام أمیر المؤمنین (ع) علی قتال معاویة حین بلغ علیاً (ع) مسیر طلحة والزبیر، فقال له أمیر المؤمنین (ع): أحسنت یا قیس وأجملت. (۱) ذکر یونس بن عبد الرحمن فی بعض کتبه: أنه کان لسعد بن عبادة ستة أولاد، کلهم قد نصر رسول الله (ص) وفیهم قیس بن سعد بن عبادة، وکان قیس أحد العشرة الذین لحقوا النبی (ص) من العصر الأول ممن کان طولهم عشرة أشبار بأشبار أنفسهم، وکان شبر الرجل منهم یقال إنه مثل ذراع أحدنا، وکان قیس وسعد أبوه طولهما عشرة أشبار بأشبارهما، ویقال إنه کان من العشرة: خمسة من الأنصار، أربعة من الخزرج کلها، ورجل من الأوس؛ و سعد لم یزل سیداً فی الجاهلیة والإسلام، و أبوه وجدّه وجدّ جدّه لم یزل فیهم الشرف، وکان سعد یجیر فیجار له وذلک لسؤدده، ولم یزل هو وأبوه أصحاب إطعام فی الجاهلیة والإسلام، وقیس ابنه بعده علی مثل ذلک. (۲) وأقوال أخری فیه:

جمع فضائل أخری من مکارم الأخلاق ومحاسنها، راح عدد من المؤرخین وعلماء الرجال یذکرونها له، وهذه أقوال بعضهم:

أبوعمر: کان قیس أحد الفضلاء الجلة، وأحد دهاة العرب، وأهل الرأی والمکیدة فی الحروب، مع النجدة والبسالة والسخاء والکرم، وکان شریف قومه غیر مدافع هو وأبوه.

المبرد: کان قیس بن سعد شجاعاً جواداً.

ابن کثیر: کان سیداً مطاعاً، ممدوحاً شجاعاً، و کانت له صفة یدار بها حین یدار.

۱- کما فی أمالی الشیخ الطوسی ۲: فی مجلس یوم الجمعة/ ۲۳ ذی الحجة/ سنة ۴۵۷.

۲- أنظر: اختیار معرفة الرجال، الشیخ الطوسی ۳۲۷: ۱؛ معجم رجال الحدیث للسید الخوئی ۱۵: ترجمة قیس بن سعد؛ أعیان الشیعة للسید محسن الأمین: ترجمته.

ص: ۱۲۸

و جمع الخطیب البغدادی لقیس الشجاعة مع البطولة والسخاء مع الکرم ...

فیما قال الزرکلی: هو أحد الأجواد المشهورین وکان شریف قومه ...

ابن شهاب کما أخرج البغوی: کان قیس حاملًا رایة الأنصار، مع رسول الله ۹ وکان من ذوی الرأی من الناس ..

و أیضاً قال عنه ابن کثیر: کان قیس یقادم بدهائه وسیاسته معاویة وعمرو بن العاص .. وکتب الحلبی فی سیرته: من وقف علی ما وقع بینه وبین معاویة لرأی العجب ...

قیس مبعوثاً:

لمکانته الکبیرة وقدرته، کان یسجل حضوراً فی بعوث رسول الله (ص) و الإمام علی (ع) إلی بعض المناطق والبلدان، فقد کانت لرسول الله (ص) سرایا و بعوث عدیدة بقیادة علی (ع) أو صحابی من الصحابة، فحظی قیس ببعضها، فقد ذکر محمد بن سعد فی الطبقات: أخبرنا محمد بن عمر الأسلمی حدثنی شیخ من المصطلق عن أبیه أنّ رسول الله (ص) لما انصرف من الجعرانة سنة ثمان، بعث قیس بن سعد بن عبادة إلی ناحیة الیمن وأمره أن یطأ صداء (قبیلة من الیمن) فعسکر بناحیة قناة فی أربعمائة من المسلمین، وقدم رجل من صداء فسأل عن ذلک البعث، فأخبروه، فخرج سریعاً حتی ورد علی رسول الله (ص) فقال: جئتک وافداً علی من ورائی فأردد الجیش وأنا لک بقومی، فردهم رسول الله (ص) فقدم منهم بعد ذلک علی رسول الله (ص) خمسة عشر رجلًا فأسلموا و رجعوا إلی بلادهم ففشا فیهم الإسلام، فوافی النبی (ص) مائة رجل منهم فی حجة الوداع.

ولعله البعث نفسه لکن بعبارة أخری أو هو غیره حین ذکروا أنه (ص) أرسل قیس بن سعد فی أربعمائة نفر إلی قبیلة صداء من قبائل مذحج، التی تسکن نجران وما یجاورها؛ لأنّ نجران کانت تشکل منطقة استراتیجیة، و طریقاً آمناً بین الحجاز والیمن، وقبائل مذحج لم تسلم إلّا بعد أن حاربها أمیرالمؤمنین (ع)..

لما تمت البیعة للإمام علی (ع) بالخلافة، کان واحداً من ثلاثة بعثهم الإمام علی (ع) إلی الکوفة، لخلع أبی موسی الأشعری عنها؛ لما بلغه أنه یخذل أهل الکوفة عن اللحاق به نحو البصرة: «... وقد بعثت إلیک الحسن وعماراً وقیساً، فأخل لهم المصر وأهله، واعتزل عملنا مذؤوماً مدحوراً ...». (۱) ولما نکث کل من الزبیر وطلحة بیعتهما للإمام، وتوجها إلی البصرة وقد اصطحبا معهما عائشة، کما جاء فی کتاب قثم بن عباس- الذی استخلفه علی المدینة- إلی علی یخبره أنّ طلحة والزبیر وعائشة قد خرجوا من مکة، یریدون البصرة، و قد استنفروا الناس فلم یخف معهم إلّا من لا یعتد بمسیره، ومن خلفت بعدک فعلی ما تحب.

فلما قدم علی علی (ع) کتابه غمه ذلک، وأعظمه الناس، وسقط فی أیدیهم. وکما جاء- أیضاً- بکتاب أخیه عقیل بن أبی طالب: ... وإنی خرجت معتمراً، فلقیت عائشة معها طلحة والزبیر وذووهما، وهم متوجهون إلی البصرة، فقد أظهروا الخلاف و نکثوا البیعة ...

کان لقیس موقف یشخص فیه أموراً مهمةً، ویدعو الإمام علیاً (ع) لمواجهة هؤلاء الناکثین، فقال: یا أمیرالمؤمنین، إنه والله ما غمنا بهذین الرجلین کغمنا بعائشة؛ لأنّ هذین الرجلین حلالا الدم عندنا،

۱- الإمامة والسیاسة، لابن قتیبة الدینوری ۸۱: ۱.

ص: ۱۲۹

لبیعتهما و نکثهما، ولأنّ عائشة من علمت مقامها فی الإسلام، و مکانها من رسول الله (ص)، مع فضلها ودینها وأمومتها منا ومنک، ولکنهما یقدمان البصرة، ولیس کل أهلها لهما، وتقدم الکوفة، وکل أهلها لک، وتسیر بحقک إلی باطلهم، و لقد کنا نخاف أن یسیرا إلی الشام، فیقال: صاحبا رسول الله وأم المؤمنین، فیشتد البلاء، وتعظم الفتنة، فأما إذا أتیا البصرة وقد سبقت إلی طاعتک، وسبقوا إلی بیعتک، وحکم علیهم عاملک، ولا- والله ما معهما مثل ما معک، ولا یقدمان علی مثل ما تقدم علیه، فسر فإنّ الله معک، وتتابعت الأنصار فقالوا وأحسنوا. (۱) و بعد کلامه هذا کان واحداً من وفد ضم ثلاثة فی خبر أو أربعة فی خبر آخر: الحسن بن علی (ع) وعبد الله بن عباس وعماربن یاسر وقیس بن سعد بن عبادة حین نزلوا الکوفة، و معهم کتاب أمیرالمؤمنین (ع).

و قد خطب الإمام الحسن (ع) یستنفر أهلها لمعرکة الجمل، وبعد خطبة عمار، قام قیس خطیباً فقال:

«أیها الناس! إنّ هذا الأمر، لو استقبلنا فی الشوری، لکان أمیرالمؤمنین (ع) أحق الناس به، لمکانه من رسول الله (ص) وکان قتال من أبی ذلک حلالًا، فکیف فی الحجة علی طلحة والزبیر، وقد بایعاه طوعاً، ثم خلعاه حسداً وبغیاً، وقد جاءکم علی فی المهاجرین والأنصار»، ثم أنشأ یقول:

رضینا بقسم الله إذ کان قسمنا علیاً و أبناء الرسول محمد

وقلنالهم أهلًا وسهلًا ومرحباً بمد یدینا من هدًی وتودّد

فما للزبیر الناقض العهد حرمة و لا لأخیه طلحة الیوم من ید

أتاکم سلیل المصطفی ووصیه و أنتم بحمد الله عارضة الندی

فمن قائم یرجی بخیل إلی الوغی و ضم العوالی و الصفیح المهند

یسود من أدناه غیر مدافع وإن کان ما تقضیه غیر مسود

فإن یأت ما نهوی فذاک نریده و إن تخط ما نهوی فغیر تعمد. (۲)

ولایة مصر:

فی هذه الفقرة نتناول أمراً مهماً فی ملف حیاة هذا الصحابی الجلیل، یعد الأکثر إثارةً فی سیرته و جدلًا، فقد دعاه الإمام علی (ع) وأرسله والیاً له علی مصر، فی شهر صفر سنة ست وثلاثین هجریة، حین عین عماله وهو فی المدینة المنورة، بعد بیعته بالخلافة یوم الجمعة لخمس بقین من ذی الحجة سنة خمس وثلاثین، و قبل توجهه إلی معرکة الجمل فی جمادی الآخرة سنة ۳۶ هجریة قائلًا:

سر إلی مصر فقد ولیتکها، و اخرج إلی رحلک، و اجمع إلیک ثقاتک، و من أحببت أن یصحبک، حتی تأتیها ومعک جند، فإنّ ذلک أرعب لعدوک وأعز لولیک، فإذا أنت قدمتها إن شاء الله، فأحسن إلی المحسن، واشتد علی المریب، و ارفق بالعامة والخاصة، فإنّ الرفق یمن.

۱- کتاب الجمل للشیخ المفید: ۲۴۶- ۲۴۷؛ کتاب وقعة صفین: ۱۵؛ الإمامة والسیاسة، لابن قتیبة الدینوری ۸۷: ۱.

۲- تاریخ الطبری ۳: أحداث سنة ۳۶.

ص: ۱۳۰

فقال له قیس بن سعد: رحمک الله یا أمیرالمؤمنین! فقد فهمت ما قلت، أما قولک: أخرج إلیها بجند، فوالله لئن لم أدخلها إلّا بجند آتیها به من المدینة لا أدخلها أبداً، فأنا أدع ذلک الجند لک، فإن أنت احتجت إلیهم کانوا منک قریباً، وإن أردت أن تبعثهم إلی وجه من وجوهک کانوا عدةً لک، و أنا أصیر إلیها بنفسی وأهل بیتی؛ و أما ما أوصیتنی به من الرفق والإحسان، فإنّ الله عزّوجلّ هو المستعان علی ذلک.

فخرج فی سبعة نفر من أصحابه حتی دخل مصر، فصعد المنبر فجلس علیه، و أمر بکتاب معه من أمیر المؤمنین فقرئ علی أهل مصر، ... ومما جاء فیه: و قد بعثت إلیکم قیس بن سعد بن عبادة أمیراً، فوازروه، وکانفوه، و أعینوه علی الحق، و قد أمرته بالإحسان إلی محسنکم، والشدة علی مریبکم، و الرفق بعوامکم وخواصکم، و هو ممن أرضی هدیه، و أرجو صلاحه و نصیحته ...

ثم إنّ قیس بن سعد قام خطیباً، یدعو الناس للبیعة قائلًا بعد أن حمد الله وأثنی علیه وصلی علی محمد (ص): ألحمد لله الذی جاء بالحق، وأمات الباطل، وکبت الظالمین؛ أیها الناس! قد بایعنا خیر من نعلم بعد محمد نبینا (ص)، فقوموا أیها الناس فبایعوا علی کتاب الله عز وجل وسنة رسوله (ص) فإن نحن لم نعمل لکم بذلک فلا بیعة لنا علیکم.

فقام الناس فبایعوا واستقامت له مصر وبعث علیها عماله، إلّا قریة خربتا (خربنا، عند ابن الأثیر) من قری مصر لم تبایع، وأهلها کانوا یومئذ عشرة آلاف، قد أعظموا قتل عثمان، فبعث بعض رجالهم إلی قیس: إنّا لانقاتلک فابعث عمالک، فالأرض أرضک، ولکن أقرنا علی حالنا حتی ننظر إلی ما یصیر أمر الناس.

و وثب مسلمة بن مخلد الأنصاری وهو من رهط قیس، فنعی عثمان و دعا إلی الطلب بدمه.

فأرسل إلیه قیس: ویحک، علی تثب؟! فوالله ما أحب أن لی ملک الشام إلی مصر و أنی أقتلک؛ فبعث إلیه مسلمة: إنی کاف عنک ما دمت أنت والی مصر.

و بما أنّ قیساً کان له حزم و رأی، فبعث إلی الذین بخربتا: أنی لا أکرهکم علی البیعة، و أن أدعکم و أکف عنکم، فهادنهم وهادن مسلمة بن مخلد، و جبی الخراج، لیس أحد من الناس ینازعه. (۱) والذی یستظهر من الأخبار أنّ مصر لم تکن واحدةً فی موقفها من ولایة قیس، بل من خلافة أمیر المؤمنین (ع)، فهی ساحة قلقة تفرق أهلها بین مواقف شتی، وهو ما نراه جلیاً فیما جاء فی تاریخ الطبری: و أما قیس بن سعد، فإنه لما انتهی إلی أیلة لقیته خیل، فقالوا: من أنت؟ قال: من فالة عثمان، فأنا أطلب من آوی إلیه وأنتصر به، قالوا: من أنت؟ قال: قیس بن سعد، قالوا: امض، فمضی حتی دخل مصر، فافترق أهل مصر فرقاً، فرقة دخلت فی الجماعة وکانوا معه، وفرقة وقفت واعتزلت إلی خربتا وقالوا: إن قتل قتلة عثمان فنحن معکم، وإلّا فنحن علی جدیلتنا حتی نحرک أو نصیب حاجتنا، وفرقة قالوا: نحن مع علی (ع) ما لم یقد إخواننا، وهم فی ذلک مع الجماعة؛ وکتب قیس إلی أمیر المؤمنین (ع) بذلک. (۲) فهی وإن کان أغلب الثائرین علی الخلیفة عثمان منها، إلّا أنّ هذا لایعنی أنها بلد یطمأن إلیه، والأوضاع مستقرة فیه، بل هو کما أوجد معارضین للخلیفة الثالث، یمکن أن یوجد معارضین أیضاً لخلافة الإمام علی (ع)،

۱- المصدر السابق ۵۵۱: ۳.

۲- المصدر السابق، أحداث سنة ۳۶.

ص: ۱۳۱

ونظراً لأهمیة موقعها ودورها الذی لعبته فی الثورة علی الخلیفة الثالث عثمان، قد تلعب غیره فی أی نزاع یحصل، مما یجعلها بؤرة أزمة، ومحل نظرالآخرین ومطامعهم، وبالتالی تحتاج إلی أمیر یمسک العصا من وسطها ولو إلی حین، ویدیر شؤونها بلباقة وحنکة وصبر وسعة أفق، وبعد نظر، وهو ما تمتع به قیس بن سعد، حتی أنّ الإمام علیاً (ع) لما بلغه اضطراب أمرها بعد قیس علی محمد بن أبی بکر، قال: لایصلح لمصر إلّا قیس أو الأشتر، وکان الأشتر بعد صفین قد عاد إلی عمله بالجزیرة، وقال لقیس: أقم عندی علی شرطتی حتی تنقضی الحکومة، ثم تسیر إلی أذربیجان، وأرسل إلی الأشتر وهو بنصیبین فاستدعاه، وولّاه مصر وکتب له عهداً مشهوراً.

فهذه شهادة من الإمام علی ما یتمتع به قیس من قدرات قیادیة تنفع فی مواطن الأزمات ..

وقد أبان قیس حقیقة موقفه وخطورته برسالتیه للإمام (ع)؛ الأولی حیث قال:

بسم الله الرحمن الرحیم، أما بعد فإنی أخبر أمیرالمؤمنین أکرمه الله أن قبلی رجالًا معتزلین، قد سألونی أن أکف عنهم، وأن أدعهم علی حالهم حتی یستقیم أمر الناس، فنری ویروا رأیهم، فقد رأیت أن أکف عنهم، وألّا أتعجل حربهم، وأن أتألفهم فیما بین ذلک، لعل الله عزّوجلّ أن یقبل بقلوبهم، ویفرقهم عن ضلالتهم، إن شاء الله.

والرسالة الثانیة- لما وصل إلیه کتاب الإمام (ع):

«بسم الله الرحمن الرحیم، أما بعد، فسر إلی القوم الذین ذکرت، فإن دخلوا فیما دخل فیه المسلمون وإلّا فناجزهم إن شاء الله»- کتب إلیه: أما بعد یا أمیرالمؤمنین! فقد عجبت لأمرک، أتأمرنی بقتال قوم کافین، مفرغیک لقتال عدوک! وإنک متی حاربتهم ساعدوا علیک عدوک، فأطعنی یا أمیرالمؤمنین! واکفف عنهم، فإنّ الرأی ترکهم، والسلام.

وقیس بموقفه هذا- کما فی مواقفه الأخری- کان بحق من المخلصین لأمیرالمؤمنین (ع) ومناصحیه، والصادقین فی ولائهم الواعی له کما هو واضح فی رسالته الجوابیة الثانیة لمعاویة والتی تأتینا، فقد استطاع أن یهدئ هذه الجبهة، ویشکل بموقعه هذا خطراً کبیراً علی معاویة، حتی ذکر الطبری فی تاریخه أنه کان أثقل خلق الله علی معاویة؛ لقربه من الشام مخافة أن یقبل علی فی أهل العراق، ویقبل إلیه قیس بن سعد فی أهل البصرة، فیقع معاویة بینهما؛ وهذا الذی یبدو أنه دفع معاویة إلی مراسلة قیس یمنیه، لاستمالته أو علی الأقل لتهدئة الأمر بینه وبین قیس، وتطییب الأجواء بعیداً عن الإمام علی (ع) وهو یومئذ بالکوفة وقبل أن یسیر إلی صفین.

وهی تدل علی شدة خوف معاویة من تولی قیس ولایة مصر، خصوصاً أنّ الحرب لابدّ منها بینه وبین الإمام علی (ع)، فتقدم بخطوته هذه إلی قیس فلعله یحقق شیئاً ینفعه.

رسالة معاویة:

من معاویة بن أبی سفیان إلی قیس بن سعد، أما بعد، فإنکم إن کنتم نقمتم علی عثمان بن عفان فی أثرة رأیتموها، أو ضربة سوط ضربها، أو فی شتیمة رجل، أو فی تسییره آخر، أو فی استعماله الفتی، فإنکم قد علمتم- إن کنتم تعلمون- أنّ دمه لم یکن یحل لکم، فقد رکبتم عظیماً من الأمر، وجئتم

ص: ۱۳۲

شیئاً إدّاً، فتب إلی الله عزّوجلّ یا قیس بن سعد! فإنک کنت فی المجلبین علی عثمان بن عفان- إن کانت التوبة من قتل المؤمن تغنی شیئاً- فأما صاحبک فإنا استیقنا أنه الذی أغری به الناس، وحملهم علی قتله حتی قتلوه، وأنه لم یسلم من دمه عظم قومک، فإن استطعت یا قیس أن تکون ممن یطلب بدم عثمان فافعل، تابعنا علی أمرنا، ولک سلطان العراقین إذا ظهرت ما بقیت، ولمن أحببت من أهل بیتک سلطان الحجاز ما دام لی سلطان، وسلنی غیر هذا مما تحب، فإنک لا تسألنی شیئاً إلا أوتیته، واکتب لی برأیک فیما کتبت به إلیک، والسلام.

فلما جاءه کتاب معاویة، کتب إلیه: أما بعد، فقد بلغنی کتابک وفهمت ما ذکرت فیه من قتل عثمان، وذلک أمر لم أقارفه، ولم أطف به. وذکرت أنّ صاحبی هو أغوی الناس بعثمان، و دسهم إلیه حتی قتلوه، وهذا ما لم أطلع علیه، وذکرت أنّ عظم عشیرتی لم تسلم من دم عثمان، فأول الناس کان فیه قیاماً عشیرتی، وأما ما سألتنی من متابعتک، وعرضت علی من الجزاء به، فقد فهمته، وهذا أمر لی فیه نظر وفکرة، ولیس هذا مما یسرع إلیه، وأنا کاف عنک، ولن یأتیک من قبلی شیء تکرهه حتی تری ونری إن شاء الله، والمستجار الله عزّوجلّ، والسلام علیک ورحمة الله وبرکاته.

هذه الإجابة الهادئة کما یراها القارئ، والتی لاتخلو من فنّ السیاسة لمصلحة یراها الرجل، أو هو «أحب أن یدافعه ولایبدی له أمره، ولایعجل له حربه» أو أنه «لم یره إلّا مقارباً مباعداً، ولم یأمن أن یکون له فی ذلک مباعداً مکایداً»، کما صرح به فی تاریخ الطبری؛ فیما جعلت معاویة متحیراً فی فهم مراد قیس حتی عدها خدیعةً یبتغی من ورائها تحقیق أغراض له، وهو یعرف قیساً جیداً فی دهائه، ویری نفسه أنه لایصانع بالخداع ولا یخادع بالمکائد، لهذا کتب إلیه ثانیةً: أما بعد، فقد قرأت کتابک، فلم أرک تدنو فأعدک سلماً، ولم أرک تباعد فأعدک حرباً، أنت فیما هاهنا کحنک الجزور، ولیس مثلی یصانع المخادع، ولا ینتزع للمکاید، ومعه عدد الرجال، وبیده أعنة الخیل، والسلام علیک.

فلما قرأ قیس کتاب معاویة هذا ورأه أنه لایقبل معه المدافعة والمماطلة، أظهر له ذات نفسه، فکتب إلیه:

بسم الله الرحمن الرحیم؛ من قیس بن سعد إلی معاویة بن أبی سفیان، أما بعد، فإنّ العجب من اغترارک بی، وطمعک فی، واستسقاطک رأیی؛ أتسومنی الخروج من طاعة أولی الناس بالإمرة، وأقولهم للحق، وأهداهم سبیلًا، وأقربهم من رسول الله (ص) وسیلةً، وتأمرنی بالدخول فی طاعتک، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم للزور، وأضلهم سبیلًا، وأبعدهم من الله عزّوجلّ ورسوله (ص) وسیلةً، ولد ضالین مضلین، طاغوت من طواغیت إبلیس! وأما قولک إنی مالئ علیک مصرخیلًا ورجلًا، فوالله إن لم أشغلک بنفسک حتی تکون نفسک أهم إلیک، إنک لذو جد؛ والسلام.

فلما بلغ معاویة کتاب قیس آیس منه وثقل علیه مکانه. (۱) المکیدة!

۱- المصدر السابق.

ص: ۱۳۳

وردت الأخبـار، وراحت الأقوال تختلف فی سـبب عزله، وهی بلا شک تحتاج الی تـدقیق وإعمال نظر فیها، تبین أنّ قیساً قام بعمل لم ینـل قبول بعض رفاق دربه، فیما فسـره آخرون لصالحه، وفریق ثالث اتخـذ منه وسـیلهٔ لتشویه شخصـیته خصوصاً عنـد الإمام علی (ع)، فیکون مبرراً لعزله عن ولایـهٔ مصـر، التی تقض مضاجعهم مادام قیس علیها، وأبطال هـذا الفریق هم معاویـهٔ وعمرو بن العاص، غایتهم منها إبعاد قیس عن ولایهٔ مصـر وهو ما یریده معاویهٔ "فکل من ولی یکون أهون علینا من قیس "وإن استطاعوا التفریق بینه وبین الإمام علی (ع) فهو أقر لعیونهم، وأسلم لتحقیق آمالهم وأهدافهم ..

ذکر الخبر کمـا فی تاریـخ دمشق لابـن عساکر وفی غیره أیضاً أنّ عمرو بن العاص ومعاویـهٔ بن أبی سـفیان کان قـد شق علیهما وعلی أهل الشام ما یصـنع قیس بن سـعد من مناصـحهٔ علی، وما ضیق علی أهل الشام، فلا یحمل إلیهم طعام؛ فکان عمرو بن العاص ومعاویهٔ جاهدین أن یخرجا قیساً من مصر، ویغلبا علیهما، وکان قیس قد امتنع منهما بالمکیدهٔ والدهاء، فمکرا بعلی (ع) فی أمره، فکتب معاویهٔ کتاباً فی قیس إلیه یـذکر فیه ما أتی إلی عثمان من الأمر العظیم، وأنه علی السـمع والطاعـهٔ. ثم نادی معاویـهٔ: الصـلاهٔ جامعـهٔ، فاجتمع الناس فی السـلاح، فحمد الله وأثنی علیه، وقال: یا أهل الشام إنّ الله ینصـر خلیفته المظلوم، ویخذل عدوه، أبشـروا، هذا قیس بن سعد، ناب (سـیدهم وکبیرهم) العرب، قد أبصر الأمر، وعرفه علی نفسه، ورجع إلی ما علیه من السمع والطاعهٔ، والطلب بدم خلیفتکم. وکتب إلی بذلک کتاباً، وأمر بالکتاب فقرئ، وقد أمر بحمل الطعام إلیکم، فادعوا الله لقیس بن سـعد، وارفعوا أیدیکم، وابتهلوا له فی الدعاء بالبقاء والصـلاح. فعجّوا وعـجّ معاویـهٔ وعمرو! ورفعوا أیـدیهم ساعـهٔ، ثم افترقوا، فأخذ معاویهٔ بید عمروبن العاص، فقال: تحین خروج العیـون الیوم إلی علی (ع)، یسیر الخبر إلیه سـبعاً أو ثمانیـاً فیکون أول من یعزل قیس بن سـعد، فکـل من ولی یکون أهون علینـا من قیس، فتحینوا خبر علی، فلمـا ورد الخبر کـان أول من حمله إلیه محمـد بن أبی بکر، فـأخبره بما صـنع، ورفـده الأشتر، ونالا من قیس، وقالا: ألا اسـتعملت رجلًا له حق، فجعل علی لا یقبل هذا القول علی قیس بن سـعد، ویقول (ع): «إنّ قیساً فی سر (فی سر قومه، أی فی أفضـلهم ...) وشـرف فی جاهلیـهٔ وإسـلام، وقیس رجل العرب. فیأبی محمد بن أبی بکر أن یقصـر عنه، فعزله علی (ع). (۱) والمکیدهٔ کمـا تـذکر عن الزهری فی تاریـخ الطبری أنه قـال: کانت مصـر من حین علی (ع)، علیها قیس بن سـعد بن عبادهٔ، وکان صاحب رایهٔ رسول الله (ص) وکان من ذوی الرأی والبأس، وکان معاویهٔ بن أبی سـفیان وعمرو بن العاص جاهدین علی أن یخرجاه من مصر لیغلبا علیها، فکان قـد امتنع فیها بالـدهاء والمکایدهٔ، فلم یقدرا علیه، ولا علی أن یفتتحا مصـر، حتی کاد معاویهٔ قیس بن سـعد من قبل علی، وکان معاویهٔ یحدث رجالًا من ذوی الرأی من قریش یقول: ما ابتدعت مکایدهً قط کانت أعجب عندی من مکایدهٔ کدت بها قیساً من قبل علی وهو بالعراق حین امتنع منی قیس.

قلت لأهـل الشام: لا تسـبّوا قیس بن سـعد، ولا تـدعوا إلی غزوه، فإنه لنا شـیعهٔ، یأتینا کیس نصـیحته سـراً، ألا ترون ما یفعل بإخوانکم الذین عنده من أهل خربتا، یجری علیهم أعطیاتهم وأرزاقهم، ویؤمن

۱- مختصر تاریخ دمشق ۱۱۱: ۲۱.

ص: ۱۳۴

سربهم، ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم، لايستنكرونه فى شىء. وهممت أن أكتب بذلك إلى شيعة من أهل العراق، فيسمع بذلك جواسيس على عندى وبالعراق.

وفى حديث هشام بن محمد عن أبى مخنف أنه لما آيس معاوية من قيس أن تابعه على أمره، شق ذلك، لما يعرف من حزمه وبأسه، أظهر للناس قبله، أنّ قيس بن سعد قد تابعكم، فادعوا الله له، وقرأ عليهم كتابه الذى لان له فيه وقاربه.

واختلق معاوية كتاباً من قيس بن سعد فقرأه على أهل الشام:

بسم الله الرحمن الرحيم: للأمير معاوية بن أبى سفيان من قيس بن سعد، سلام عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلّا هو، أما بعد، فإنى لما نظرت رأيت أنه لا يسعنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً براً تقياً، فنستغفر الله عزّوجلّ لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا، ألا وإننى قد ألقيت إليكم بالسلم، وإنى أجبتك إلى قتال قتلة عثمان، إمام الهدى المظلوم، فعول على فيما أحببت من الأموال والرجال أعجل عليك، والسلام. (۱) عزله

إذن، مواقف قيس من طائفة من الناس عثمانية الهوى فى قرية خربتا.

موقفه مع مسلمة بن مخلد الأنصارى ورسالته إليه.

رسالته الجوابية الأولى إلى معاوية.

والأهم هو غياب حكمة كل هذه الأمور حتى عند بعض أصحاب الإمام (ع)- على ذمة ما ورد- والتى لم تغير من موقف الإمام (ع) منه ولم يفقد ثقة الإمام به وهو القائل: «إنى والله لا أصدق بهذا على قيس».

ولكنها- ولا شك- تركت آثارها و خلقت جواً ملوثاً فى الساحة، وراح الناس ينشغلون بتأويلاتهم لما سمعوا بما شاع فى أهل الشام أنّ قيس بن سعد بايع معاوية، وسرحت العيون (جواسيس معاوية) إليهم بذلك، وراحت تضغط بقوة حين سرحت عيون على بن أبى طالب إليه بذلك، فلما أتاه ذلك أعظمه وأكبره وتعجب له ودعا بنيه ودعا عبد الله بن جعفر فأعلمهم ذلك فقال: ما رأيكم؟ فقال عبد الله بن جعفر: يا أميرالمؤمنين دع ما يريبك إلى ما لايريبك، أعزل قيساً عن مصر.

قال لهم الإمام (ع): «إنى ما أصدق بهذا على قيس»، فقال عبد الله: أعزله، فوالله لئن كان هذا حقاً لا يعتزل لك إن عزلته.

وكان هدف قيس من عمله هذا كما جاء فى رسالته الجوابية لأميرالمؤمنين (ع) حين طلب منه أن يناجزهم، هو أن يتفرغ الإمام (ع) للعدو الأكبر، فيما لايرى هذا عبد الله بن جعفر وغيره، الذى راح يفسر مواقف قيس بالممالأة، وأنّ الحل هو قتالهم وقد عبر عن خوفه هذا حين قال للإمام (ع): يا أميرالمؤمنين! ما أخوفنى أن يكون هذا ممالأة لهم منه.

۱- أنظر تاريخ الطبرى ۳: حوادث سنة ۳۶.

ص: ۱۳۵

بل صار يدعو الإمام (ع) إلى عزله قائلًا: يا أميرالمؤمنين! أعزله، فوالله لئن كان هذا حقاً لا يعتزل لك إن عزلته.

وأظنّ عبد الله بن جعفر ومن قد يكون معه، قد اقتنع حين لم يتمرد قيس على إمامه، بل أطاع أميرالمؤمنين (ع)، فلبى أمره حين استبدله بمحمد بن أبى بكر وهو أخ لعبد الله بن جعفر من أمه أسماء بنت عميس التى كانت زوجة لجعفر بن أبى طالب وبعد استشهاده تزوجها أبو بكر، ثم الإمام على (ع)، وإن غضب قيس كما ورد، فلا أظن غضبه إلّا لمصلحة عليا أدركها ولم يدركها غيره حتى من بعض أصحاب الإمام (ع)، الذين خفيت عليهم حكمة ما قام به قيس، وقد تكون مكيدة معاوية قد انطلت عليهم وأقلقتهم، ووسائل إعلامه التى تهدف إلى ضعضعة وتمزيق الساحة قد تركت أثرها، فخشيت هذه الثلة المؤمنة، فبادرت إلى الإمام ليضع حلًا، ولعل أميرالمؤمنين (ع) رأى أنّ المصلحة تقتضى تبديله، لحسم الخلاف فى الساحة، ودفع القلق والاضطراب عنها، والتفرغ للاستعداد لمعركة صفين وهى قادمة لا محالة.

إذن لم ير معاوية وصاحبه عمرو بن العاص إلّا الكيد لقيس، فلعلهما ينجحا فى النيل منه و تشويه سمعته عند أصحاب الإمام وعند العامة من الناس والجند ..، إن لم تستطع زعزعت مكانته عند الإمام (ع)، الذى ازداد تمسكاً به فى مواطن أخرى.

وأما قيس فقد تلقاه وهو عائد إلى المدينة حسان بن ثابت وكان عثمانى الهوى فقال له: نزعك على بن أبى طالب، وقد قتلت عثمان فبقى عليك الإثم، ولم يحسن لك الشكر! فقال له قيس بن سعد: يا أعمى القلب والبصر، والله لولا أن ألقى بين رهطى ورهطك حرباً لضربت عنقك، أخرج عنى.

وقيس حتى فى هذا كان لا يريد اشغال الساحة بنزاعات جانبية تحول دون تحقيق النصر على معاوية، .. ولم يكن حسان وحيداً فى موقفه، بل هو يحكى تياراً يترقب أى خلل فى ساحة على (ع)، لا فقط ليشمت بل ليوسعه ويعمقه؛ وحتى لايترك مبرراً لأعلام معاوية أن يكيد ويملأ الساحة بأقوال وأباطيل مضللة راح يلقيها هنا وهناك؛ بادر قيس وهو يردف قوله "والله إنّ هذا لقبيح، أن أفارق علياً وإن عزلنى، والله لألحقن به "بالقدوم على على (ع)، يصحبه سهل بن حنيف، فخبره قيس، فصدقه على .. وعرف أنّ قيس بن سعد كان يقاسى أموراً عظاماً من المكايدة ..، فأطاع على قيس بن سعد فى الأمر كله.

وفى رواية أنّ أم المؤمنين أم سلمة أرسلت إلى قيس تلومه وتقول: فارقت صاحبك، قال: أنا لم أفارقه طائعاً هو عزلنى، .. فكتبت إلى على تخبره بنصيحة قيس وأبيه فى القديم والحديث ... فكتب على إلى قيس يعزم عليه إلا لحق به. فقال: والله ما أخرج إليه إلّا استحياء، وإنى لأعلم أنه مقتول؛ معه جند سوء لا نية لهم، فقدم على على، فأكرمه، وحباه؛ فأخبره قيس بخبره، وما كان يعمل بمصر، فعرف على أنّ قيساً كان يدارى أمراً عظيماً من المكيدة التى قصر عنها رأى غيره. وأطاع على قيساً فى الأمر كله، وجعله على شرطة الخميس الذين كانوا يبايعون على الموت .. وشهد هو وسهل بن حنيف معه صفين. (۱) إذن ما إن عزل عن ولاية مصر حتى التحق مع الإمام على (ع) فى معركة صفين، وقد أدرك معاوية الدور الجديد لقيس وبينه بوضوح، وهو يتغيظ على كل من مروان والأسود بن أبى البخترى، اللذين كما فى الخبر

۱- المصدر السابق؛ ومختصر تاريخ دمشق ۱۱۲: ۲۱.

ص: ۱۳۶

عن الزهری، أخافا قیس حین عودته إلی المدینة من مصر بعد عزله منها حتی رکب راحلته، فظهر إلی علی، فقال لهما محملهما مسؤولیة التحاق قیس بعلی (ع): أمددتما علیاً بقیس بن سعد ورأیه ومکانه، فوالله لو أنکما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما کان ذلک بأغیظ لی من إخراجکما قیس بن سعد إلی علی. (۱) ففی أی موقع وضع فیه هذا الصحابی الجلیل، کان یشکل أهمیة بالغة، ویمثل طورة کبیرة راحت تؤرق معاویة وتقلقه، سواء أکان والیاً علی مصر أم قائداً یحمل رایة الأنصار فی معسکر علی (ع)، أو زعیماً لشرطة الخمیس فی إدارة الإمام (ع) ..

قال نصر بن مزاحم فی کتاب صفین: إنّ أمیرالمؤمنین (ع) لما عزم علی المسیر إلی صفین دعا من کان معه من المهاجرین والأنصار فاستشارهم فقام فیمن قام قیس بن سعد بن عبادة، فحمد الله وأثنی علیه ثم قال: یا أمیرالمؤمنین انکمش بنا إلی عدونا ولا تعرج، فوالله لجهادهم أحب إلی من جهاد الترک والروم، لادهانهم فی دین الله، واستذلالهم أولیاء الله من أصحاب محمد (ص) من المهاجرین والأنصار والتابعین بإحسان؛ إذا غضبوا علی رجل حبسوه أو ضربوه أو جرموه أو سیروه، وفیئنا لهم فی أنفسهم حلال ونحن لهم فیما یزعمون قطین، قال: یعنی رقیق.

فقال أشیاخ الأنصار منهم خزیمة بن ثابت وأبو أیوب الأنصاری وغیرهما: لم تقدمت أشیاخ قومک وبدأتهم یا قیس بالکلام؟ فقال: أما أنی عارف بفضلکم معظم لشأنکم، ولکنی وجدت فی نفسی الضغن الذی جاش فی صدورکم حین ذکرت الأحزاب ... (۲) من کلماته وأشعاره، وأراجیزه وهو یقاتل:

اخترت شیئاً مما ذکرته بعض المصادر، فقد روی نصر بن مزاحم فی کتاب صفین أنّ معاویة لما تعاظمت علیه الأمور یوم صفین، جمع خواص أصحابه فقال لهم: إنه قد غمنی رجال من أصحاب علی وعدّ فیهم قیس بن سعد فی الأنصار، فعبأ لکل رجل منهم رجلًا من أصحابه، فجعل من قریش بسر بن أرطأة لقتال قیس بن سعد، فغدا بسر بن أرطأة فی الیوم الثالث فی حماة الخیل، فلقی قیس بن سعد فی کماة الأنصار، فاشتدت الحرب بینهما، وبرز قیس کأنه فنیق مقرم، وهو یقول:

أنا ابن سعد زانه عباده والخزرجیون رجال ساده

لیس فراری فی الوغی بعاده إنّ الفرار لل-- فتی قلاده

یا رب أنت لقنی الشهاده والقتل خیر من عناق غاده

حتی متی تثنی لی الوساده

وطاعن خیل بسر، وبرز له بسر بعد ملی (أی بعد مضی ملی من النهار، أی ساعة طویلة) ویطعن بسر قیساً، فیضربه قیس بالسیف فرده علی عقبیه، ورجع القوم جمیعاً ولقیس الفضل.

وجمع قیس بن سعد بن عبادة الأنصاری الأنصار، وقام فیهم خطیباً، فقال: إنّ معاویة قد قال ما بلغکم، وأجاب عنکم صاحباکم، فلعمری لئن غظتم معاویة الیوم، لقد غظتموه بالأمس، وإن وترتموه فی

۱- تاریخ الطبری، أحداث سنة ۳۶.

۲- کتاب وقعة صفین: ۹۳.

ص: ۱۳۷

الإسلام فقد وترتموه فی الشرک، وما لکم إلیه من ذنب أعظم من نصر هذا الدین الذی أنتم علیه، فجدوا الیوم جداً تنسون به ما کان أمس، وجدوا غداً جداً تنسونه به ما کان الیوم، وأنتم مع هذا اللواء الذی کان یقاتل عن یمینه جبرائیل، وعن یساره میکائیل، والقوم مع لواء أبی جهل والأحزاب، وأما التمر فإنا لم نغرسه، ولکن غلبنا علیه من غرسه، وأما الطفیشل فلو کان طعامنا لسمینا به کما سمیت قریش السخینة. (۱) ثم قال قیس بن سعد فی ذلک:

یا ابن هند دع التوثب فی الحر ب إذا نحن فی البلاد نأینا

نحن من قد رأیت فادن إذا شئت بمن شئت فی العجاج إلینا

إن برزنا بالجمع نلقک فی الجمع و إن شئت محضةً أسرینا

فألقنا فی اللفیف نلقک فی الخز رج ندعو فی حربنا أبوینا

إن نشأ فارس له فارس منا و إن شئت باللفیف التقینا

أی هذین ما أردت فخذه لیس منا ولیس منک الهوینا

ثم لا تنزع العجاجة حتی تتجلی حربنا لنا أو علینا

لیت ما تطلب الغداة أتانا أن-- عم الله بالشهادة عینا

إننا إننا الذین إذا الفتح شهدنا و خیراً وحنینا

بعد بدر وتلک قاصمة الظهر و أحد و بالنضیر ثنینا

یوم الأحزاب قد علم الناس شفینا من قبلکم واشتفینا

فلما بلغ شعره معاویة دعا عمرو بن العاص فقال: ما تری فی شتم الأنصار؟

قال: أری أن توعد ولا تشتم، ما عسی أن تقول لهم؟ إذا أردت ذمهم فذم أبدانهم ولا تذم أحسابهم. قال معاویة: إنّ خطیب الأنصار قیس بن سعد یقوم کل یوم خطیباً، وهو والله یرید أن یفنینا غداً إن لم یحبسه عنا حابس الفیل، فما الرأی؟ قال: الرأی التوکل والصبر، وأن تبعث إلی رجال من رؤساء الأنصار فتعاتبهم، فأرسل معاویة إلی رجال من الأنصار ... فمشوا إلی قیس، فقالوا: إنّ معاویة لایرید شتمنا، فکف عن شتمه؛ فقال: إنّ مثلی لایشتم، ولکن لا أکف عن حربه حتی ألقی الله.

وتحرکت الخیل غدوة فظن قیس أنّ معاویة فیها، فحمل علی رجل یشبهه فقنعه بالسیف فإذا غیر معاویة، وحمل الثانیة علی آخر یشبهه فضربه، ثم انصرف وهو یقول:

۱- الطفیشل: بوزن سمیدع، کما فی القاموس، ویقال له أیضاً "طفشیل، "ولفظه فارسی معرب، وهو بالفارسیة "تفشله "أو "تفشیله" ضرب من اللحم یعالج بالبیض والجزر والعسل، وفسر فی القاموس بأنه نوع من المرق، وجعله البغدادی فی کتاب الطبیخ ضرباً من التنوریات، أی الأطعمة التی تنضج فی التنور، وفی منهاج الدکان ۲۲۰ ":طفشیل کل طعام یعمل من القطائی، أعنی الحبوب کالعدس والجلبان وما أشبه ذلک. "أنظر حواشی الحیوان ۲۴: ۳/ ۲۲۶: ۵، فهو مرق معروف، یعیب معاویة الأنصار بأنّ طعامهم التمر وهذا المرق. أما السخینة فهو طعام رقیق یتخذ من دقیق وسمن وقیل من دقیق وتمر، أغلظ من الحساء وأرق من العصیدة، وکانت قریش تکثر من أکلها فعیرت بها حتی سموا سخینة أو صار لقباً لها. أنظر کلًا من هامش الصفحة ۴۴۶ من کتاب وقعة صفین لنصر بن مزاحم ت ۲۱۲ وتحقیق وشرح عبد السلام محمد هارون، منشورات مکتبة آیة الله العظمی المرعشی النجفی ۱، قم- إیران، ۱۴۰۳ ه-. وأیضاً أعیان الشیعة الجزء ۲۷: ۴۳- ۳۲، رقم الترجمة ۹۵۰۰ قیس بن سعد بن عبادة الخزرجی الأنصاری. دار التعارف للمطبوعات، بیروت،

لبنان.

ص: ۱۳۸

قولوا لهذا الشاتمی معاویه إن کل ما أوعدت ریح هاویه

خوفتنا أکلب قوم عاویه إلی یا بن الخاطئین الماضیه

ترقل إرقال العجوز الجاریه فی أثر السارى لیالی الشاتیه

فقال معاویة: یا أهل الشام! إذا لقیتم هذا الرجل فأخبروه بمساویه؛ وفی خبر فلما تحاجز الفریقان شتمه معاویة شتماً وشتم الأنصار، فغضب النعمان ومسلمة فأرضاهما بعدما هما أن ینصرفا إلی قومهما، ثم إنّ معاویة سأل النعمان أن یخرج إلی قیس، فیعاتبه ویسأله السلم، فخرج فقال له: یا قیس ألستم معشر الأنصار تعلمون أنکم أخطأتم فی خذل عثمان، وقتلتم أنصاره یوم الجمل، وحملتم خیولکم علی أهل الشام بصفین، فلو کنتم إذ خذلتم عثمان خذلتم علیاً، لکانت واحدة بواحدة، ولکنکم خذلتم حقاً ونصرتم باطلًا، ثم لم ترضوا حتی أوغلتم فی الحرب، ودعوتم إلی البراز، ثم لم ینزل بعلی أمر قطّ إلّا هونتم علیه المصیبة، ووعدتموه بالظفر، وقد أخذت الحرب منا ومنکم ما قد رأیتم، فاتقوا الله فی البقیة.

فضحک قیس ثم قال: ما کنت أراک یا نعمان تجترئ علی هذه المقالة أنه لاینصح أخاه من غش نفسه، وأنت والله الغاش الضال، أما ذکرک عثمان فإن کانت الأخبار تکفیک فخذ منی واحدة، قتل عثمان من لست خیراً منه، وخذله من هو خیر منک؛ وأما أصحاب الجمل، فقاتلناهم علی النکث؛ وأما معاویة فوالله أن لو اجتمعت علیه العرب لقاتلته الأنصار؛ وأما قولک إنا لسنا کالناس، فنحن فی هذه الحرب کما کنا مع رسول الله (ص) نتقی السیوف بوجوهنا والرماح بنحورنا حتی جاء الحق وظهر أمر الله وهم کارهون، ولکن انظر یا نعمان! هل تری مع معاویة إلّا طلیقاً أو أعرابیاً أو یمانیاً مستدرجاً بغرور؟ وانظر أین المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان الذین رضی الله عنهم ورضوا عنه؟ ثم انظر هل تری مع معاویة غیرک وغیر صویحبک، ولستما والله ببدریین ولا أحدیین، ولا لکما سابقة فی الإسلام، ولا آیة فی القرآن، ولعمری لئن شغبت علینا، فقد شغب علینا أبوک، وقال قیس فی ذلک:

و الراقصات بکل أشعث أغبر خوص العیون تحثها الرکبان

ما ابن المخلد ناسیاً أسیافنا فی من نحاربه ولا النعمان

ترکا البیان وفی العیان کفایة لو کان ینفع صاحبیه عیان

وطالما کان یردد وهو یخوض غمار معرکة صفین:

قلت لما بغی العدو علینا حسبنا ربنا ونعم الوکیل

حسبنا ربنا الذی فتح البصر ة بالأمس والحدیث طویل

و علیٌّ إمامنا و إم-- ام لسوانا أتی به التنزیل

وقد نال تقدیر الإمام علی (ع) واحترامه وثناءه، یقول نصر بن مزاحم: إنّ علیاً دعا قیس بن سعد فأثنی علیه خیراً، وسوده علی الأنصار. (۱) وهو کموقف رسول الله (ص) فی فتح مکة حین أعطاه رایة الأنصار کما ذکرنا.

۱- أنظر وقعة صفین: ۴۵۰- ۴۵۳؛ والإمامة والسیاسة لابن قتیبة الدینوری ۱۳۰: ۱- ۱۳۱؛ و أعیان الشیعة، ترجمته.

ص: ۱۳۹

مع الإمام الحسن (ع):

عرف قيس فى ولائه لعلى (ع) وأهل بيت النبوة (عليهم السلام)، وينضم فى هذا الولاء إلى الصحابة سلمان وأبى ذر والمقداد وعمار رضوان الله تعالى عليهم، وخير دليل مواقفه التى أشرنا إليها مع على (ع)، ومع الإمام الحسن (ع) وهو يعد لحرب معاوية وفى سلمه وصلحه، فقد ظل قيس بعد استشهاد الإمام على (ع) على ولائه لأهل بيت رسول الله (ص) ويرى أنّ الإمام الحسن (ع) هو الوارث الشرعى للإمامة، لهذا بادر إلى مبايعته دون تردد أو تباطئ، واستمر واقفاً إلى جنبه مدافعاً غير مبال بالأخطار، و كان تحت قيادته خمسة آلاف ممن حلقوا رؤوسهم حداداً على استشهاد الإمام على (ع)، واستعداداً للشهادة بين يدى الإمام الحسن (ع).

ولما خطب الحسن (ع) الناس، وحثهم على الجهاد معه، فتثاقلوا قام قيس فى جماعة، فأنبوا الناس ولاموهم وحرضوهم، وكلموا الحسن (ع) بمثل كلام عدى بن حاتم الذى سبقهم فى حديثه والقائل به: أنا ابن حاتم سبحان الله ما أقبح هذا المقام، ألا تجيبون إمامكم وابن نبيكم؟! أين خطباء مضر (المصر) الذين ألسنتهم كالمخاريق فى الدعة، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب، أما تخافون مقت الله؟ ... (۱) وقد شكر الإمام الحسن (ع) لقيس مواقفه الشجاعة، حين وقف قيس يؤنب الناس ويلومهم على تخاذلهم، فقال له الإمام ولعدى بن حاتم الطائى ومعقل بن قيس الرياحى وزياد بن صعصعة التيمى: صدقتم رحمكم الله، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة، فجزاكم الله خيراً. (۲) وحين انسل عبيد الله بن العباس ليلًا من معسكر الإمام الحسن (ع) إلى معسكر معاوية، وأصبحوا بغير أمير، صلى بهم قيس ثم خطبهم، فقال: أيها الناس لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الورع (أى الجبان) إنّ هذا وأباه وأخاه (فإن هذا وأباه لم يأتيا قط، كما عن الكشى فى معجم رجال الحديث ۱۲: (ع) ۴۸۵ عبيد الله بن عباس) لم يأتوا بيوم خيراً قط، إنّ أباه عم رسول الله (ص) خرج يقاتله ببدر فأسره كعب بن عمرو الأنصارى، فأتى به رسول الله (ص) فأخذ فداه فقسمه بين المسلمين، وإنّ أخاه ولاه على (ع) على البصرة، فسرق مال الله ومال المسلمين، فاشترى به الجوارى، وزعم أنّ ذلك له حلال، وأنّ هذا ولاه أيضاً على اليمن فهرب من بسر بن أرطأة، وترك ولده حتى قتلوا، وصنع الآن هذا الذى صنع، فتنادى الناس ألحمد لله الذى أخرجه من بيننا، إمض بنا إلى عدونا، فنهض بهم وخرج إليهم بسر بن أرطأة فى عشرين ألفاً، فصاحوا بهم هذا أميركم قد بايع، وهذا الحسن قد صالح، فعلام تقتلون أنفسكم؟ فقال لهم قيس: اختاروا إما القتال مع غير إمام، أو تبايعون بيعة ضلال، فقالوا: بل نقاتل بلا إمام، فخرجوا وضربوا أهل الشام حتى ردوهم إلى مصافهم.

وكتب معاوية إلى قيس يدعوه ويمنيه، فكتب إليه قيس: لا والله، لاتلقانى أبداً إلّا وبينى وبينك الرمح.

فكتب إليه معاوية: أما بعد فإنما أنت يهودى ابن يهودى، تشقى نفسك وتقتلها فى ما ليس لك، فإن ظهر أحب الفريقين إليك نبذك وعزلك، وإن ظهر أبغضهما إليك نكل بك وقتلك، وقد كان أبوك أوتر غير

۱- أنظر كلامه فى ترجمته من أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين.

۲- المصدر السابق؛ وفى رحاب أئمة أهل البيت:، للسيد محسن الأمين ۱۹: ۳- ۲۰.

ص: ۱۴۰

قوسه ورمی غیر غرضه، فأکثر الحز وأخطأ المفصل، فخذله قومه وأدرکه یومه، فمات بحوران طریداً غریباً، والسلام.

فکتب إلیه قیس بن سعد- رحمه الله-: أما بعد، فأنما أنت وثن ابن وثن من هذه الأوثان، دخلت فی الإسلام کرهاً، وأقمت علیه فرقاً، وخرجت عنه طوعاً، ولم یجعل الله لک فیه نصیباً، لم تتقدم بإسلامک (أو لم یقدم إسلامک) ولم یحدث نفاقک، ولم تزل حرباً لله ورسوله، وحزباً من أحزاب المشرکین، فأنت عدوّ الله ورسوله والمؤمنین من عباده؛ وذکرت أبی، ولعمری ما أوتر إلّا قوسه، ولا رمی إلّا غرضه، فشغب علیه من لاتشق غباره، ولاتبلغ کعبه، وکان امرءاً مرغوباً عنه، مزهوداً فیه؛ وزعمت أنی یهودی ابن یهودی، ولقد علمت وعلم الناس أنی وأبی من أنصار الدین الذی خرجت منه، وأعداء الدین الذی دخلت فیه وصرت إلیه، والسلام.

فلما قرأ معاویة کتابه غاظه وأراد إجابته، فقال له عمرو بن العاص: مهلًا إن کاتبته أجابک بأشد من هذا، وإن ترکته دخل فیما دخل فیه الناس، فأمسک عنه؛ وانصرف قیس بمن معه إلی الکوفة. (۱) بیعته لمعاویة!

إضافةً لما سبق من القول فإنی لم أجد خبراً أو روایةً تثبت أنّ قیساً بایع معاویة رجاء رحمته أو خوفاً من عذابه، وبقی علی عهده الذی قطعه علی نفسه بقوله: «إنی حلفت أن لا ألقاه إلّا وبینی وبینه الرمح أو السیف» وفی رده علی معاویة کما یحمله خبر آخر أنه لما قدم علی معاویة لیبایعه کما بایع أصحابه، فقال معاویة: وأنت یا قیس تلجم علی مع من ألجم؟! أما والله کنت أحب ألّا یأتی هذا الیوم إلّا وقد أصابک ظفر من أظفاری موجع! فقال له قیس: وأنا والله قد کنت کارهاً أن أقوم فی هذا المقام، فأحییک بهذه التحیة.

فقال له معاویة: ولِمَ؟ وهل أنت إلّا حبر من أحبار الیهود؟ فقال له قیس: وأنت یا معاویة کنت صنماً من أصنام الجاهلیة، دخلت فی الإسلام کارهاً، وخرجت منه طائعاً.

فقال معاویة: أللهم غفراً، مد یدک. فقال قیس: إن شئت زدت وزدت. (۲) ولکنه بایع نزولًا عند رغبة الإمام الحسن (ع) واستجابةً له کما نراه فی الأخبار.

فی معجم رجال الحدیث، قال الکشی: جبرائیل بن أحمد وأبو إسحاق حمدویه وإبراهیم ابنا نصیر قالوا: حدثنا محمد بن عبد الحمید العطار الکوفی عن یونس بن یعقوب عن الفضل غلام محمد بن راشد، قال: سمعت أبا عبدالله (ع) یقول: «إنّ معاویة کتب إلی الحسن بن علی (ع) أن أقدم أنت والحسین بن علی وأصحاب علی، فخرج معهم قیس بن سعد بن عبادة الأنصاری، وقدموا الشام فأذن له معاویة وأعد لهم الخطباء، فقال: یا حسن قم فبایع، فقام فبایع، ثم قال للحسین (ع): قم فبایع، فقام فبایع، ثم قال: یا قیس قم فبایع فالتفت إلی الحسین (ع) ینظر ما یأمره فقال: یا قیس إنه إمامی یعنی الحسن (ع)».

۱- مقاتل الطالبیین، لأبی الفرج الأصفهانی: ۷۴.

۲- مختصر تاریخ دمشق ۱۰۳: ۲۱.

ص: ۱۴۱

حدثنی جعفر بن معروف قال: حدثنی محمد بن الحسین بن أبی الخطاب عن جعفر بن بشیر، عن ذریح، قال: سمعت أبا عبدالله (ع) یقول: دخل قیس بن سعد بن عبادة الأنصاری صاحب شرطة الخمیس علی معاویة، فقال له معاویة: بایع، فنظر قیس إلی الحسن (ع)، فقال: أبا محمد بایعت؟ فقال له معاویة: أما تنتهی؟ أما والله إنی، فقال له قیس: ما شئت، أما والله لإن شئت لتناقض، فقام (فقال)، وکان مثل البعیر جسیماً، وکان خفیف اللحیة، قال: فقام إلیه الحسن، فقال له: بایع یا قیس! فبایع. (۱) وفی روایة ذکرها أبو الفرج الأصفهانی فی مقاتل الطالبیین أنه لما صالح الحسن (ع) معاویة، اعتزل قیس بن سعد فی أربعة آلاف وأبی أن یبایع.

وفی روایة أخری لأبی الفرج أیضاً أنّ معاویة أرسل إلی قیس یدعوه إلی البیعة فأتی به، قال: وکان رجلًا طویلًا یرکب الفرس المسرف، ورجلاه تخطان فی الأرض، وما فی وجهه طاقة شعر، وکان یسمی خصی الأنصار، فلما أرادوا أن یدخلوه إلیه قال: إنی قد حلفت أن لا ألقاه إلّا وبینی وبینه الرمح أو السیف، فأمر معاویة برمح أو سیف فوضع بینه وبینه لیبر یمینه.

وفی روایة لما صالح الحسن معاویة، اعتزل بن سعد فی أربعة آلاف وأبی أن یبایع، فلما بایع الحسن أدخل قیس بن سعد لیبایع؛ قال أبومخنف فی حدیثه: فأقبل علی الحسن (ع) فقال: أنا فی حل من بیعتک؟ قال: نعم. فألقی لقیس کرسی وجلس معاویة علی سریره، فقال له معاویة: أتبایع یا قیس؟ قال: نعم، فوضع یده علی فخذه ولم یمدها إلی معاویة، فجثا معاویة عن سریره وأکب علی قیس حتی مسح یده علی یده، فما رفع قیس إلیه یده. (۲) و فی روایة سعید بن عبد الرحمن بن حسان، التی تضمنت حواراً دار بین معاویة وقیس بن سعد بحضور رهط من الأنصار، رد قیس علی ما أثاره معاویة .. ومن تلک الردود قوله: .. وأما استقامة الأمر علیک فعلی کره منا، وأما فلنا حدک یوم صفین، فإنا کنا مع رجل نری طاعته لله طاعة، .. (۳) وفی خبر أنه ما أن تم الصلح بین الإمام الحسن (ع)- بعد تخاذل جنده، وتآمربعضهم، وطعنه- ومعاویة، حتی وقف قیس حین عاد إلی المدینة المنورة مخاطباً جنوده، الذین کان یری أنّ لهم فی ذمته حق الشوری فی الاختیار:

إن شئتم جالدت بکم حتی یموت الأعجل منا، وإن شئتم أخذت لکم أماناً.

واختار جنوده الأمان وقالوا: خذ لنا أماناً؛ فأخذ لهم الأمان من معاویة. (۴) یذکرنی موقف قیس هذا بموقف أبیه سعد بن عبادة الذی رفض بیعة الخلیفة الأول رغم ما تعرض له من ترغیب تارةً، وتهدید أخری، حتی توفی؛ رائع جداً أن یقف الإنسان مدافعاً عن رأی یتبناه أو موقف اتخذه إذا کانا قائمین علی دلیل یقطع بصحته وأنه معذر له یوم القیامة.

۱- معجم رجال الحدیث، للسید الخوئی ۱۵: رقم ۹۶۷۵ قیس بن سعد.

۲- مقاتل الطالبیین، لأبی الفرج الأصفهانی: ۷۹.

۳- مختصر تاریخ دمشق ۱۱۲: ۲۱- ۱۱۳.

۴- المصدر السابق، ترجمة قیس بن سعد بن عبادة.

ص: ۱۴۲

وفاته:

بعد جهاد طويل ومواقف رائعة مليئة بالحق والحكمة والوفاء مع رسول الله (ص) ومع الإمام على (ع) والإمام الحسن (ع)، توفى سنة ۶۰ وقيل: ۸۵ أو ۹۵ هجرية فى المدينة المنورة، وقيل فى تفليس؛ حشره الله تعالى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً!

***

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹